www.kotobarabia.com

الحب و السجن و التسكع العاطفي

أحمد إسماعيل

www.kotobarabia.com

أحمد إسماعيل

عن الحب
والسجن
والتسكع العاطفي

تقديم:

حسن سليمان

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

أحمد إسماعيل

- الشاعر والكاتب الصحفي أحمد إسماعيل.
- تخرج في كلية الإعلام قسم الصحافة جامعة القاهرة عام ١٩٧٩.
- يعمل صحفيًا بجريدة «الأهالي» منذ ١٩٨٢.
- صدر له ديوانان من الشعر:
- قصائد بلا أغلفة دار – طيبة ١٩٨٩.

قصائد الشخص الآخر – دار عيون جديدة ١٩٩٨.

فهرس

الجزء الأول: معهم ..... - ١٢ -

١. أمل دنقل ..... - ٢٥ -
٢. يوسف إدريس ..... - ٤٨ -
٣. لويس عوض..... - ٦٣ -
٤. صلاح جاهين ..... - ٩٦ -
٥. سعدي يوسف..... - ١١١ -
٦. شادي عبد السلام ..... - ١٢٢ -
٧. حسن فتحي..... - ١٣١ -
٨. حسن سليمان ..... - ١٤١ -
٩. حجازي..... - ١٥٠ -
١٠. سلفادور دالي ..... - ١٦٢ -
١١. أروى صالح..... - ١٦٧ -
١٢. مكرم عبيد ..... - ١٧٧ -

الجزء الثاني: أمَّاهُم ..... - ١٨٢ -

الحنين إلى الشوك

أنا في المقهى وعليَّ أن أكتب مقدمة لمقالات أحمد إسماعيل التي ستُجمع في كتاب.

وإذ بصوت جهوري ينطلق يقول: «أنا أتحدث من واقع الأحداث..» نظرت خلفي، إلى الصوت، فإذا به رجل ضخم الجثة يتحدث إلى آخر أظنه صحفي، فهو يدون ما يقوله الرجل الضخم، الصوت يشتتني.. لا أستطيع أن ألملم نفسي.. فلقد بعثرها الرجل الضخم.. ولم يكن أمامي سوى أن أستبعد الكتابة وأنصت.

الكلام كله سليم ونقد في أوضاعنا السياسية والاجتماعية، بالضبط كخطبة غراء لمسئول، أو الصفحة الرئيسية لرئيس تحرير مهم لجريدة يومية. وبعد ساعة زمنية من الكلام المتواصل، أنهى الرجل كلامه قائلاً: «كل هذا سأطرحه في ندوة يوم الثلاثاء».

وسرعان ما ذهب الانبهار بقدرة الرجل على الكلام. ذهب الانبهار فإذا بي أمام كلمات جوفاء لا تسمن أو تغني من جوع. كلمات كأنها «طق حنك» كما يقول السوريون، فنحن

في المجتمعات النامية من العالم الثالث يتحول الكل إلى ناقـ ـد سياسي واجتماعي، وكذلك إلى محلل رياضي، إذ ـه الفـ ـراغ والتنفيس عن الطاقة المكبوتة.

وهكذا وجدت نفسي أمام حقيقة لا مناص منها، وهي أنني لا أستطيع أن أكتب عن أحمد إسماعيل ككاتـ ـب سياسـ ـي أو اجتماعي أو معلق فني أو أدبي، فهناك من لهم باع أكثر منه على ملء الصفحات في مثل هذه المجالات دون أن يقولـ ـوا شيئًا يذكر. كما أن هناك ملوكًا للسخرية و«خفة الدم» وأنا لا أريد أن أربط أحمد إسماعيل بهـ ـم، فالكتابـ ـة ليسـ ـت شـ ـيئًا مستهلكًا ترتبط بحدث أو مناسبة، وحينما تنتهي هذه المناسبة أو ذاك الحدث تصبح الكتابة لا قيمة لها.

***

هناك أسطر للرسام الفرنسي «ديلا كروا» استخدم فيهـ ـا كلمة (woee) والكلمة كاصطلاح معناها الحرفـ ـي «إخّيـ ـه» بالعامية عندنا، وأسطر «ديلا كروا» هي: «إخّيه على الرجل الذي لا يرى سوى توضيح فكرة ما في عمل فنـ ـي بـ ـديع.. وأخّيه على الصورة التي لا تعكس شيئًا أبعـ ـد مـ ـن حـ ـدود الشيء المرسوم» فالعمل الفني يذهب أبعد من حدود الشـ ـيء

المرسوم، أو الكلمات المكتوبة. تكمن قيمة العمل الفني ف ي ذلك الذي لا يمكن تحديده لكن يضيفه الفنان أو الكاتب، إذ ه العمق في الحس والفهم. وهو ما حاول «دي لا ك روا» أن يقودنا إليه، كي نصل إلى إدراك أعم ق لمفه وم الف ن أو الكتابة. لقد قصد «ديلا كروا» تكثيف ذالك الع الم الرحي ب حولنا، الذي نطلق عليه لفظ واقعنا.. نكثفه ونضغطه ف ي حدود رؤيانا الخاصة في هذه الحالة يصبح الشيء المحدود لا محدودًا، والذاتي موضوعيًا، والنسبي هو المطل ق..إذن الموضوع الذي أنا بصدده هو ما تجاوزه أحمد إسماعيل في كتاباته لكي تصل إلى رحابة الفن، وهذا ليس غريبً ا عليه لأنه شاعر.

***

ليس من السهل على رسام أن يقدم كتابًا، خصوصً ا إذا كان ما يقدمه الكاتب ليس رواية ذات موضوع، وشخصيات وسلم درامي، كما أنها ليست شعرًا يح دد بأبع اد الش عر المعتادة وموسيقاه، بل هي مجموعة مقالات نثرية كانت تنشر في جريدة أسبوعية، والمقال حتى لم يكن له وحده، بل ك ان مجموعة من أجزاء مختلفة (Item أيتم)

في هذه الحالة ليس أمام المرء سوى أن يتناول نسيج كتابة هذا الكتاب، وهذه النوعية من النقد لم يعتد عليها لا الدارس ولا القارئ المتخصص في مصر. فما بالنا بالقارئ العادي. وكي أبسط الأمر للقارئ فلأضرب له مثالاً: إن قلنا مثلاً الرجل البدين يرتدي قميصًا لامعًا، وفي قدميه شبشب «زنوبة» تختلف عن الرجل البدين «ينحشر» في قميص لامع متحديًا الضوء، وتنحشر قدماه العاريتان في شبشب «زنوبة» لا نملك أن نحدد أي الجملتين أفضل من الأخرى، لأن هذا سيتوقف على وضع الجملة بالنسبة لباقي الجمل، وعلاقتها بالإيقاع العام للكلمات وموسيقاها التي ستحدد صدق الكاتب ومقدرته في أن يوصل لنا نبضًا ما. ونعجب بمقدرة أحمد إسماعيل على التعبير عما يريد. وهنا تتضح النقطة التي أريد أن أحصر نفسي فيها. فقد يقول قائل: إن كتابات أحمد إسماعيل تتشابه مع كثير من الكتابات التي نحن معتادين على قراءتها على صفحات «روزاليوسف» من بعض الكتاب الساخرين، لكن بالنسبة لي فشتان بين الكتابتين، فهناك فرق بين كتابة كاتب قد رجع من رحلة سياحية الله أعلم من أين أتى بنفقاتها، أو من دعوة من سفارة يطرق

أبوابها أو ينتقد النظام والنظام الذي ينتقده قد وفر لـ ـه سـ ـبل الحياة حتى أصبح يملك شقة في لندن أو باريس، فشتان بين كتابة مثل تلك الكتابة وكتابة أحمد إسماعيل، وشـ ـتان بـ ـين المرارة والحقيقة والزيف. وشتان بين الصـ ـنعة والافتعـ ـال، والأصالة واللوعة الحقيقية. إن المرارة لدى أحمد إسـ ـماعيل تقرب المرارة التي تجدها في كتابات «مالبرتي» و«سيلوني» أثناء الحرب العظمي الثانية وبعدها.

***

درّسوا لنا في المدرسة الثانوية أن الذي حدد عالم المقـ ـال هو الكاتب الإنجليزي «بيكون» وفي الوقت نفسه هو المثـ ـال الذي يجب أن يُحتذي به في الكتابة.

ولم نلبث، بعد قراءة كتابة «بودلير» النثرية بما فيها مـ ـن شجن ولوعة وسخط، أن ضربنا بالتعاليم الأكاديميـ ـة والقـ ـيم الكلاسيكية عرض الحائط. وبعد ذلك كانت كتابات من تبعـ ـه من شعراء القرن العشرين تغير مضمون ومفهـ ـوم الكتابـ ـة النثرية. ثم أتت الحرب العالمية الثانية وجُنِّد شعراء وكُتـ ـاب أوروبا وعملوا مراسلين حربيين، وبلغت السخرية مداها في كتابات «أرول» و«مالبرتي» كمراسلين حـ ـربيين، لكنهمـ ـا

صاغا الكتابة بناء على الموقف التراجيدي من مأساة الإنسان، كانت النبذة القصيرة المعبرة عن الموقف تحمل مأساة ما. وانتهت الحرب وكانت الحرب الباردة بين الكتلتين المهيمنتين، فإذا بنوع آخر من الكتابة تكون له الصدارة بجانب الأدبية الذاتية، وهي كتابة المعلق السياسي، وهكذا تكونت معالم الكتابة الصحفية التي تحمل معالم شاملة عن الذات والموضوع وعن المحنة التي يمر بها الكاتب ويربطها بنوازعه والجانب الاجتماعي.

***

نستطيع أن نحدد معالم كتابة أحمد إسماعيل: فهو شاعر يكتب لجريدة أسبوعية، لكنه معني بأشجان الوطن ومحنته، فينعكس هذا على كلماته التي تصاغ، حتى لو تحدث عن مشكلة زوجية أو قضية عاطفية، وهكذا فهو أقرب إلى اندفاع وحرارة كتابة الشعراء الغربيين في الجرائد، وهو أقرب إلى مرارة وسخرية «مالبرتي» و«سيلوني» و «أرول» لذا فهو يختلف عن كتابات قد نجدها في «روز اليوسف» أو صحف المعارضة، وإن تشابه معها ظاهريًا.

***

أحمد إسماعيل لا يئن، ولكنه في لوعة يحمل الشوك في ضلوعه، إنه يحمل حنينًا دائمًا إلى الشوك، كلنا يحمل هذا الحنين، سأخبرك أيها القارئ كيف، تصور أن في جسدك «دمل أو خُراج» فأنت لا ترتاح إلا إذا غرست دبوسًا محميًا في هذا الانتفاخ، ولن ترتاح كذلك إلا إذا ضغطت وضغطت متحملاً الألم حتى يبزغ الصديد والتقيح وتظل تضغط حتى ترى دمًا نقيًا. إذن فالكتابة لدى أحمد إسماعيل هي الضغط على جرح متقيح لكنه لا يصرخ، فقط يستكفي بأن يضغط على شفتيه حتى يدميهما، وتظل اللوعة ويظل الحزن. أحمد إسماعيل ما زال شابًا، فلننتظر – ولن يطول انتظارنا– حتى يصبح أحمد إسماعيل هو والكتابة شيئًا واحدًا، حينئذ ستتضح معالم كتابة أحمد إسماعيل. سيكون لها طعمها ومذاقها وحسها، لأنه سيكون حينذاك قادرًا على أن ينقل إلى الرجل العادي ذلك الحنين إلى الجرح الدامي، وأظن أنه لمدة ستطول ستظل جراحنا دامية، لأن الفساد أصبح هو الأسلوب والشرف هو الاستثناء.

حسن سليمان

القاهرة – ديسمبر ١٩٩٨

الجزء الأول

معهم

أدونيس	أمل دُنقل
يوسف إدريس	لويس عوض
صلاح جاهين	سعدي يوسف
شادي عبد السلام	حسن فتحي
حسن سليمان حجازي	سلفادور دالي
أروى صالح	مكرم عبيد

أدونيس:

أنا شيعي.. وشعوبي.. وشاعر

أقام الفنان فاروق حسني وزير الثقافة هذا الأسبوع، حفل استقبال الشاعر الكبير أدونيس بمناسبة زيارته للقاهرة.. حضره عدد كبير من الكُتاب والمثقفين المصريين، من بينهم يحيى حقي، د. لويس عوض، لطفي الخولي، أحمد عبد المعطي حجازي. د لطيفة الزيات. د. عبد المنعم تليمة، د. سمير سرحان، السيد ياسين، د. غالي شكري، د. عبد المحسن طه بدر، محمد عفيفي مطر، فريدة النقاش، علي سالم، جمال الغيطاني، يوسف القعيد، محمد إبراهيم أبو سنة، د. أحمد عثمان، جلال السيد وآخرون.

وقد ألقى أدونيس كلمة ردًا على تحية وزير الثقافة له ذكر فيها:

إذ أشكر السيد وزير الثقافة على هذا اللقاء الطيب المحب، أشعر بسعادة كبيرة أن أكون بينكم لا بوصفي زائرًا وضيفًا، بل بوصفي واحدًا من العائلة الثقافية المصرية، وأشعر على نحو خاص بسعادة أكثر شمولاً إذا أرى وأعرف أن واحدًا

من أبناء هذه العائلة مثقفًا وفنانًا يتولى شـ ئون الثقافـ ة فـ ي مصر، صحيح أن الفاعلية الثقافية بطيئة لكنها هي الأبقـ ى.. وحين ننظر إلى تاريخنا على عظمته، نـ رى أن الأجهـ زة الإدارية الاقتصادية والحكام صاروا جزءًا وثائقيًا مـ ن هـ ذا التاريخ، بينما تبقى قيم الإبداع وتبقى الثقافة رمزًا حيًا لهـ ذا التاريخ.

وقد أقامت نقابة الصحفيين أمسية ألقـ ى فيهـ ا أدونـ يس مقتطفات من ديوانه «وقت بين الرماد والورد» ومقتطفـ ات من قصيدة الوقت من كتاب الحصار.. ثم فتح الحـ وار مـ ع جمهور الحاضرين.

كان لا بد أن نقدم هذا الحوار احتفـ اءً وتقـ ديرًا لقيمـ ة أدونيس في حركة الشعر العربي وإن اختلفت معه في الكثير من الأفكار.

منذ خرج من سلالته كعطر وردة تكاد تمـ وت. يتمـ وج ويتعدد يتشبه بالنحل..

ويصنع شهده الخاص.. ونحن نسأل: من هو؟

إنه أدونيس

أطول عاصفة في جسد القصيدة العربية.. وأكثرها غموضًا! لا الخارج بيته، والداخل ضيق!

لا يريد أن يسمي.. بل يريد أن يكون سميًا للضوء!

لا يريد أن يستمسك.. بل يريد أن يرادف الريح!

عندما سمعت صوته – عبر الهاتف – انفتحت كتبه فجأة أمام عيني «الخمسة وعشرون كتابًا» ولا يزال هذا الرجل الدقيق يكتب! فكيف تتسع الأسئلة للأسئلة؟ ومن أين يكون الخيط الذي سوف يلفُّنا معًا؟

هذه الأصابع التي أشعلت النار في تاريخنا.. تصافحني الآن.. وهذا الوجه الذي راح يعترف للغزالي، ويبكي بين يدي هاملت – يتفرس وجهي – فكيف أباغته؟

ربما كانت الذئاب البرية في غير حاجة إلى الطعام – عندما التهمت أدونيس في الغابات حتى جاءت عشتار لتبعثه من جديد.

- قلت لأدونيس: من هي الذئاب البرية التي حاولت التهامك في مطلع الخمسينيات؟

– أجاب ضاحكًا: إنها الصحافة العربية!

- ولم تكن عشتار سوى قصيدتي التي تبعثني.. «فنحن نموت مرة ونولد مرارًا».

● قلت لأدونيس: أنت تتحامل على العقل العربي طـ وال الوقت، وتتهمه بسيادة الذهنية الدينية، في الوقـ ت الـ ذي نراك فيه شيعيًا أصيلاً وعندما نحاصرك بذلك.. تصـ رخ فينا يجب أن تقرأوني بدون ذاكرة، فكيف يستقيم ذلك؟

- أولاً: هل الشيعة تهمة؟

● قلت نعم عندما ينفيها أدونيس ويطالبنا بتحرير العقل!

- حينما أقول يجب قراءتي بدون ذاكرة، فأنا أقول فـ ي معرض محدد ولا أُعممه، وحينما يأتي ناقـ د ويقـ رأ نصًا، فإنه يتحدث عن مفهومات وقضايا من ذاكرتـ ه وليست في داخل النص؛ بحيث إنه لا يقرأ النص.. بل يحجبه بهذا المعنى، قلت يجب أن أقرأ في معزل عن الذاكرة.. لأنني أعرف الـ ذاكرة العربيـ ة – خاصـ ة ذاكرة الناقد – فهـ ي محشـ وة بالأحكـ ام العميقـ ة، والخرافات التي لا علاقة لها بالشعر ولا بالنقد.

● قلت: لكن بعض القراءات النقدية لنصوصك الشعرية وضعتنا في قلب الفكر الطائفي.. فكيف نقرأ قصـ يدة

«علي» بمعزل عن شيعيتك أو قصيدة «إسماعيل» على سبيل المثال؟

- بالنسبة لهذه القصائد.. لماذا لم ير الناقد شخصية عمر أيضًا ولماذا وقف عند «علي»؟!
- إن لفظة علي – في القصيدة – لا علاقة لها بعلي – الشخصية التاريخية – ولم أتحدث مرة في حياتي كلها عن الشخص التاريخي المعروف، أما إذا حسبت لفظة علي بأنها تمثل الإمام علي فهذا تبسيط، ولا يعني ذلك أنني لست معجبًا بشخصية علي الإمام، بل العكس، فأنا أعده رمزًا من أعظم الرموز في ثقافتنا العربية.

- قلت: لكننا لا نستطيع أن نقرأ قصيدتك عن الثورة الإيرانية والخميني بمعزل عن انتمائك الطائفي.

- هذه القصيدة كانت بعنوان «تحية إلى الثورة الإيرانية». وهناك عدة أسباب لكتابتها ليس من بينها أنني شيعي. فهذه أول ثورة خارجة عن مقولات الثورة التقليدية، وهذا أول رجل مسلم يقول لا في وجه أمريكا. وهؤلاء إيرانيون هم الذين اقتلعوا عرش الشاه الفاسد، وصنعوا ثورتهم ومن ثم كتبت قصيدتي

تحية لهم، ولا تزال هـ ذه القصـ يدة خارجـ ة علـ ى دواويني الشعرية.

- قلت: البعض يراك متناقضًا مع نفسك. فأنت عربـ ي تناهض القومية العربية، وعندما تدعو لثقافة عربيـ ة واحدة نراك ضد الوحدة العربية، فكيف تفسر ذلك؟

– أنا أميز بين القومية العربية كمذهب سياسـ ي، وبـ ين العروبة بوصفها لغة وثقافة. فأنا لست قوميًا عربيً ا بالمعنى الأولى، أي لست مذهبيًا قوميًا، ولا تعنيـ ني القومية بشكل عام، إلا بقدر ما تضمن مـ ن احتـ رام الإنسان، وقيم التوكيد على الحرية والإبداع، لكن من الجهة الثانية أنا عربي – ثقافيًا ولغويًا– وفـ ي هـ ذا الاتجاه قدمت للغة العربية والثقافة العربية ما لم يقدمه أي شاعر، فأنا عربي – لكنني لست قومي النزعة – خصوصًا أن الفكر العربي القومي كما مـ ورس ولا يزال يُمارس – يتضمن بعض العنصرية – وبعـ ض الازدراء للقوميات الأخرى – لذلك فأنا مؤمن بالتنوع والاختلاف في إطار الثقافة العربية الواحدة، واللغـ ة

العربية وهذا ما لا تُتيحه النزعة القومية الوحدوية كما ينظر لها حتى الآن.

- قلت: ألست ترى أن هذا الموقف قادك إلى مزيد من الانعزالية حتى وصفك أحد النقـ ـاد – ذات مقالـ ـة – بأنك «صوت سعد حداد الأدبي»؟.

تساءل أدونيس بهدوء: ومتى عارضت الوحدة ودعـ وت إلى الانعزالية في نصوصي الشعرية؟

- قلت: في ديوانك الأول عندما أسميت عصر الوحـ دة المصرية – السورية، بعصر الحذاء الذهبي، ورحت تحذِّر من قدوم الفراعنة.

– إنه عصر الشرطة.. عصـ ر البـ وليس ومصـ ادرة الحريات. فهل يدافع هذا الناقد عن ذلك.. وهل كانت هناك وحدة عام ١٩٦٠، أما الفراعنة فلـ م أقصـ دهم بالمعني الحضاري، لكن قصدتهم كرمز للطغيان.

أما الانعزالية، فهي الوجه الحقيقي للقومية الواحدية، كيف يمكن أن تكون القومية العربية ردًا على القوميات الأخـ رى كالمصرية والفرعونية واللبنانية.. وغيرها؟

إن القومية بالنسبة لي جزء من العروبة.. وليس العكس!

- قلت: أنت شعوبي إذن؟

- أجاب أدونيس: نعم.

لأن أساس الشعوبية هو القول بأن العرب كقومية ليسوا متفوقين على الشعوب ذوي القوميات الأخرى.. والرسول ساوى بين الشعوب.. «فلا فضل لعربي على أعجمي».

فأساس الشعوبية هو المساواة والعدالة، وكل عربي حقيقي هو شعوبي، لكن الصراع السياسي جعل القريشيين يحاولون فرض لسانهم وقوميتهم، لذلك شوّهوا المعنى باستخدامه «أيديولوجيًا» وكما استخدمه القرشيون القدامى يستخدمه اليوم القرشيون الجدد!

- قلت لأدونيس: ألست توافقني على أنك بهذه الآراء مخربٌ عظيمٌ؟!

- نعم. أنا أفخر بأنني مخرب لهذه العقلية العربية – ولن أتردد في مواصلة التخريب – وعليهم أن يبنوا ويعمروا، فلديهم كل شيء.. الطائرات.. والدبابات.. والجيوش.. والجماهير ليفعلوا إن استطاعوا.. إنهم لا يقرأون.. هل تعرف أن كتبي ممنوعة من دخول أكثر

البلدان العربية مثل الخليج العربي والعراق وغيرها.. والذين يتهمونني لم يقرأوا لي نصًا وحدًا.

فلو عملت استفتاء لوجدت قلة ضئيلة هي التي قرأتني.. أليس هذا مؤسفًا!

هناك نص أعتبره أجمل نصوص حياتي بعنوان «ضوء الشمعة» من كتاب «الحصار». هذا النص مرّ دون أن يقرأه سوى شخص واحد من تونس وعندما أرسل لي خطابًا كدت أبكي فرحًا، وتذكرت شاعر فرنسا العظيم «ميلارمييه» الذي باع نسخة واحدة من كتابه طيلة حياته.

عندما تطالع ميثاق حقوق الإنسان العربي لا تجد كلمة إدانة واحدة لمعنى الرقابة.. فالرقابة قتل من مزدوج للقارئ والكاتب معًا.. لكن ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة للعقل العربي!

- قلت: لكنك واحد من بين الذين أسسوا هذا الميثاق وكتبوا بنوده؟
- أعترف بذلك، وأنتقد نفسي.. وما أردت بهذا إلا التدليل على مدى التناقض الذي نعيش فيه!

- قلت: دعني أسألك: لماذا جئت إلى القاهرة بعد هذا الغياب «السياسي»؟ وهل يعني ذلك أن موقفك قد تغير على نحو ما؟!

- يا سيدي.. زيارتي للقاهرة شخصية، فأنا أحب هذا الشعب ومن حقي أن أزوره وقتما أحب، أن أقرأ كتابه العظيم وقتما أشاء.. فالقاهرة كتاب يجب أن تُعيد قراءته باستمرار.

وهؤلاء الناس أحبهم، وأحب موسيقاهم الصامتة.. أحب حركاتهم وتصرفاتهم وطوفانيتهم بموجها المتدافع. إنها مصر حسن فتحي وسيد درويش وصلاح جاهين.. فكيف لا أزورها!

- وكيف رأيت الشعر فيها؟

- رأيت تجربة الشباب وهي تخرج علينا حتى لو كانت متأثرة بنا – نحن الجيل الأسبق – رأيتهم يحاولون فتح آفاق أخرى للغة الشعرية والحساسية الشعرية.. ولا بأس إذا كانت أخطاؤهم كثيرة.. فالمشروع الذي يحاولون التأسيس له مشروع ضخم.. ولا بد لكل من

يعمل عملاً كبيرًا أن تكون أخطاؤه أحيانًا كبيرة هي أيضًا.

- البعض يراك متناقضًا عندما اعتبرت التجربة الصوفية ثورة فكرية وشعرية.. في الوقت الذي تدعو فيه إلى نسف الأسس الدينية ونفيها خارج العقل العربي؟

- نعم.. قلت إن التجربة الصوفية ثورة في إطارها التاريخي، ولا أدري ما الخطأ في هذا.. هؤلاء الصوفيون الذين قالوا «إذا رأيت عالمًا يلوذ ببابِ سلطان.. فاعلم أنه لص».

أليست هذه ثورة؟

أما على مستوى الشعر.. فلا أدري لماذا نجد – نحن العرب – تناقضًا بين ما هو فكر.. وما هو شعر. ففي رأيي أنه لا تناقض بين الفكر والشعر.. لأنه يجب أن تنتهي هذه النظرة التقليدية للشعر العربي.. تلك النظرة التي أخرجت الصوفية من الشعر بحجة أنها فكر!

يجب أن ينتهي هذا الميل إلى تستطيح التجربة الشعرية وحصرها في هذا الأنبوب الرومانطيقي الخيطي البعد!

- ترى هل كانت هذه النظرة وراء دعوتك إلى قصيدة النثر!

- يمكن ذلك.. فقصيدة النثر تتيح الإحاطة بأشياء الحياة اليومية.. وبهذه الزلزلة للمعالم المعروفة.. ربما أكثر من تجربة الوزن – لستُ متأكدًا!

فالشعر لا قاعدة له.. ويمكن لقصيدة واحدة أن تغير جميع المعايير.. ليست هناك نظرية واحدة، لكن المؤكد أن قصيدة النثر أكثر صعوبة.. فالشعر يواجه الحرية والخطر في آن واحد.. ونحن في حاجة إلى هذه الحرية وذلك الخطر.

(الأهالي: ١٩٨٨/٥/٢٥)

أمل دنقل

كيف كتب أمل دنقل قصائده

إذا كانت الكتابة هي «اغتصاب العالم باللغة». كما عبر «دورينمات»..

فما هو الشعر؟

- يجيب اليوت إنه «التركيز» في أعماق التفاصيل.. والقدرة على رؤية العظم وملامسة النخاع. ويضيف مايكوفسكي: «إنه صياغة الغد – المستقبل – بلغة المضارع – الحاضر، ومن أجل ذلك فأنا أبحث عن لغة جديدة»!

ولعل محاولة السعي وراء التعريفات للوقوف على ذلك المعنى – الشعر، لن تزيد الأمر إلا غموضًا وتعتيمًا، لأن كل تجربة شعرية تحوي قانونها ولغتها ورموزها، وكل شاعر يعرف الشعر طبقًا لرؤيته هو.. ومدى اتساعها وقدرتها على التعبير والغوص والشفافية والاجتياز، ومن ثم يسهل الولوج إلى خضم التجربة، والاقتراب من قسماتها، وملامسة أعضائها وعناصرها، ومن ثم أيضًا يصبح السؤال عن

المعنى المطلق للشعر لغوًا فارغًا، كأننا نسأل عن المعنى المطلق للحياة!

أنه الشاعر – التجربة – القصيدة، تمامًا كما حدق "فان جوخ" في لوحته وراح يختبر اللون والسطح والفراغ ويصرخ «يا الله إنها الأبجدية الناصعة».

ومنذ أن أصبحت مهمة النقد غير مقصورة على قراءة إبداع الشاعر فقط، بل تجاوزت هذا الإطار الضيق إلى الشاعر ذاته، والدراسات التحليلية والتشريحية لنفسية الشاعر وحياته الخاصة والعامة لم تتوقف.

فعندما صرخ الناقد الفرنسي «تودي» في وجه صديقه الفيلسوف جان بول سارتر متسائلاً كيف أضاع الأخير وقته في كتابة مؤلفه الضخم عن الشاعر المتمرد الكبير «جان جينيه» قديسًا وشهيدًا، متناولاً حياته ولهوه وعبثه وتشرده وعبقريته، أجابه سارتر: «يا صديقي.. لقد أردت أن أعرف ماذا كتب جان جينيه، ورأيت أن مجرد قراءة أشعاره وأعماله المسرحية ليست كافية على الإطلاق»!

علينا إذن أن نقطع الرحلة بين الشاعر وقصيدته حتى نعرف ماذا كتب، خاصة أن القراءة لم تعد كافية، وعلينا

أيضًا أن نسافر في ذاكرة الشاعر حتى نستطيع الإمساك بقانون تجربته وحل طرفي هذه المعادلة الموجعة – الشاعر – التجربة، حتى لا نخطئ الإجابة مرتين!

الأولى عندما نسأل.. والأخرى عندما نجيب.

فماذا عن أمل دنقل.. الشاعر.. التجربة.. القصيدة.

*أيها الشعر..

أيها الفرح المختلس!

«العهد الآتي»

كان ذلك في صيف عام ١٩٧٥، عندما وجه إليه أحد الصحفيين سؤالاً عن معنى الشعر، وتوقف أمل دنقل عن مداعبة خصلة شعره الجانبية، واتسعت حدقتا العينين فجأة، وقال له «الشعر يا سيدي هو بديل الانتحار»!

هكذا ظل أمل دنقل يموت كل يوم عبر ثلاثين عامًا من الشعر، ومنذ أن عرفت الكلمات طريقها إلى قلبه، فلم يكن الشعر بالنسبة له خلاصًا كما كان بالنسبة لصلاح عبد الصبور ولم يكن صلاة كما كان بالنسبة لأحمد عبد المعطي حجازي، لكنه نقيض الحاضر ونفيه، هو العهد الآتي على أنقاض الحاضر وتضاريسه الموحشة والباعثة

على الموت أبدًا. هو الرفض الواعي، والتجاوز النبيـ ـل، لأن الانتحار هنا لا يعني الهروب، بل يعني الاحتجاج، والمـ ـوت هنا لا يعني العدمية، بل يعني التجاوز والتواصل والامتداد.

لم يكن أمل دنقل متفائلاً – ولم يكن عبثيًّـ ـا. وقـ ـد سـ ـئل الشاعر أحمد حجازي عن أمل دنقل في حديث له في مجلـ ـة «النهار» البيروتية عام ١٩٨٠ فأجاب: «إنني أخشى عليـ ـه من عدميته»، وقد علّق أمل على قول حجازي ساخرًا: «لقد أراد أحمد حجازي أن يواري خوفه على نفسه، لأنني أراقب اندفاعه نحو التجريد والعدمية» كيف كان يرى العالم إذن؟

يُجيب أمل دنقل: «إنني أرفض الرؤية الهرمية للأشـ ـياء. وأن يكون النسر أقوى الطيور والصـ ـقر أحـ ـدقها والبلبـ ـل أعـ ـذبها، فأنـ ـا لا أفهـ ـم مجتمعًـ ـا ينجـ ـب شـ ـاعرًا جيـ ـدًا ولا ينجب كناسًا كفؤًا، إنني مؤمن بالتجانس، والهارمونيـ ـة، ولا أتآلف مع التفاوت والتجزئة».

ولعل ذلك يكشف عن مدى اتساع تلك البصـ ـيرة النافـ ـذة وراء أشعار أمل دنقل، وكيف توحدت تجربته والتعبير عنها إلى حد التنبؤ والاستشراف ومطالعة الغد. فلم يعـ ـرف أمـ ـل

دنقل معنى الاستقرار طيلة حياته، ولم يفعل شيئًا سوى كتابة الشعر.

فمنذ أن غادر قريته – قادمًا إلى الإسكندرية ثم القاهرة.

عاش حياة البسطاء، وظل عنوانه «مقهى ريش – مي دان سليمان باشا» لا يحمل أوراقًا، ولا يحلم بغي ر الشـ عر. ولا يمتلك بيتًا حتى بعد زواجه في عام ١٩٧٨.

وظل ينتقل بين الفنادق والحجرات المفروشة حتى استقر على سريره الأبيض في معهد السرطان.

لم يكف لحظة واحدة عن كتابة الشعر، كان يكتبه عل ى علب الثقاب وهوامش الصحف اليومي ة وعل ب السـ جائر، وعندما يكتب يمتنع تمامًا عن تناول الطعام، وتب دأ رحل ة الانتقال من مقهى إلى مقهى، ويظل يشرب فقط دون اهتزاز ودون غياب، وكان يسمي ه ذه الحال ة ب . . «المعايش ة النصفية» للواقع.

وعندما يشتد التوتر يهرع إلى المقهى القابع خلف عنوانه الدائم ليلعب النرد «الطاولة». وكان يؤكد دائمًا أنه تخلص ه من «التوترات الهائلة»! والغريب أن ملامح وجه ه كان ت تتغير، وفي إحدى المـ رات عـ ام ١٩٧٦ اسـ تطاع الفن ان

الدسوقي فهمي أن يرسم له صورة من «بورتريه» أثناء اللعب، وظل أمل يعتز بهذه الصورة، كما كانت محل اعتزاز الراحل صلاح عبد الصبور، ونشرت في مجلة الكاتب في العام نفسه مع قصيدة «سفر ألف دال».

- إنني أول الفقراء الذين يعيشون مغتربين.

يموتون محتسبين لدى العزاء.

هكذا كان يرى نفسه، لم يعرف الوظيفة أبدًا، ومن المفارقات العجيبة أن يوسف السباعي أصدر قرارًا بتعيينه في مؤسسة «دار الهلال» كاتبًا ناصحفيًا عام ١٩٧٤، ولا يزال هذا القرار باقٍ في سجلات المؤسسة، لكن أمل لم يذهب قط، ولم يتسلم وظيفته الجديدة، وظل اسمه بين أسماء العاملين بمنظمة التضامن الآسيوية، التي لم يذهب إليها إلا لتقاضي مرتبه الذي لم يتجاوز الأربعين جنيهًا حتى مات. لم يكن هناك ثمة مصدر للدخل سوى هذا المرتب الضعيف، رغم العروض التي قدمتها العديد من المجلات والصحف العربية كي يعمل بها، وكان يقول ساخرًا: «إنني لا أفهم كيف أكون شاعرًا وشيئًا آخر!».

وفي إحدى «ليال التوفيقية» جاءت مجموعة من المثقفين العراقيين وظلوا يحاورونه حتى الصباح، وسأله أحدهم لماذا لا تسافر بعيدًا عن مصر، فقال له أمل: «لأنني أحب الشعر» واندهش السائل وقال له: «سوف تكتب الشعر هناك». وضحك أمل عاليًا وقال: «من أين لك بهذه الثقة أيها الصديق».

- أرشق في الحائط حد المطواة.

«العهد الآتي»

كذا تبدأ لحظة الميلاد.. يحتضن الفكرة في أعماقه زمناً طويلاً، ويظل على اتصال دائم بها، يتحدث إليها عبر الكلمات النثرية، ثم تبدأ لحظة «التكثيف» وهنا يكون الألم عظيمًا، والوجع لا يحتمل، فيشرع في الكتابة الأولى، وتتحول الحروف إلى سلاسل، وتضيق رقعة الفرج، فيرتد ثانية إلى نفسه ويبدأ في الكتابة ثانية – وهي الأولى على الورق، وتطول القصيدة، وتنأى بقلب شاعرها عن هذا العذاب الفج، وتبدأ مرحلة «المساس» فتكتسب الكلمات قدرتها وشاعريتها وأخيرًا مرحلة «المونتاج» أو «اليد القاسية». كما أطلق عليها حتى تأخذ القصيدة شكلها النهائي،

والغريب أن هذه المرحلة لم تعرف الانتهاء عند أمل، فجميع قصائده كان يحلو له أن يغير فيها ويحذف منها.

كان ذلك في صيف عام ١٩٧٥، وكان أمل يعـ يش أشـ د الفصول حزنًا وكآبة، فقد غادرته صديقته البولنديـ ة، التـ ي قدمت إلى القاهرة لتحصل علـ ى رسـ الة الماجسـ تير فـ ي أشعاره، فأحبته وأحبها، وعندما سافرت إلى وطنهـ ا شـ رع يكتب في قصيدته الرائعة «سفر ألف دال» أو سفر أمل دنقل، فراح يرسم نفسه وحزنه ووحدته، ويرثي حاضره.

وقد عشت مراحل كتابة هذه القصيدة ورأيت كيف تعذب أمل، واختل توازنه أكثر من مرة، وأنا أرقب تطور الفكـ رة النثرية مرورًا بالمراحل السابقة حتى الشكل النهائي.

كان أمل يتابع تفاصيل معاهدات فض الاشـ تباك الأولـ ى والثانية، ويستشعر خطرًا سوف يهدد كيان الوطن كله، وكان على ثقة من أن الصهاينة قادمون إلى هذه الأرض المقدسة، وما يجري ليس إلا تمهيد الأرض وتقليل المسافات. وكـ ان يتحدث عن ذلك بصوت مرتفع.

تقول القصاصة الأولى:

تسألني بائعة الكبريت.

عن أعداء الوطن المقهور متى يأتون.

فقلت لها: نامي

فعدو الوطن المقهور سيختتن الليلة تحت جدار المبكى.

ثم لم يلبث أن انقض على القصاصات، وراح يمزقها، وبدأ عدوانيًا كما لم أعرفه من قبل، وربما تكون المرة الأولى التي شاهدت فيها دموعه، وكان يعتز بنفسه ورجولته، ومشينا سويًا طوال الليل.. لا نتكلم.. وفي الخامسة من صباح اليوم نفسه، جلسنا نشرب الشاي في مقهى بشارع محمد علي، وأخرج علبة ثقابه وكتب عليها:

كان يكتب في هذه الزاوية.

كان يكتب والمرأة العارية.

تتمشى بين الموائد تعرض فتنتها بالثمن.

عندما سألته عن الحرب قال لها: لا تخافي على الثروة الغالية فعدو الوطن – مثلنا يختتن.

مثلنا يعشق السلع الأجنبية، يكره لحم الخنزير.

يدفع للبندقية والغانية!

«سفر ألف دال».

وتبلغ الرؤية ذروتها، ويشتعل الشعر اشتعالاً في صدره وقلبه، وتتزاوج الأشياء – المرأة والوطن – الأرض والأبناء – الحب والحلم – وتتضافر كل عناصر الحركة لتدفع بالصورة الشعرية إلى الغرور والتمرد والدفقة الثائرة.. ويأتي الشعر صراخًا وألمًا ونزيفًا:

«كان يكتب في هذه الزاوية.

كان يكتب والمرأة العارية.

حين دعاها فقالت له إنها لن تطيل القعود.

فهي منذ الصباح تفتش مستشفيات الجنود.

عن أخيها المحاصر في الضفة الخالية.

عادت الأرض لكنه لا يعود

وأرته له صورة بين أطفاله ذات عيد

وبكت!

«سفر ألف دال»

- الالتزام.. ضد من؟

ظل أمل دنقل ظاهرة مُحيرة لأجهزة الأمن الرسمية في بلادنا! فقد اعتبرته في مرحلة مبكرة شيوعيًا وقامت بفصله

من الاتحاد الاشتراكي بالإسكندرية عام ١٩٦٤، والطريف أن أمل لم يكن عضوًا بالتنظيم في هذه الأثناء!

ثم في مرحلة متقدمة، اعتبرته أحد دعاة القومية العربية، ومنعته من التعامل مع الإذاعة والتليفزيون ومنعت أشعاره من النشر في المجلات والصحف الرسمية.

وفي كل مرة كان أمل يلقى عنتًا وتجاهلاً وحصارًا من أجهزة الدولة، رغم تفوقه الشعري، وتجاوزه لكل أبناء جيله من شعراء الحقبة. كان أمل دنقل يرى أن الشعر هو «العالم الجميل والموازي لذلك الواقع القبيح» ويرى أن تقدم المجتمعات لن يأتي إلا عبر الوعي الاجتماعي الذي يرتكز على أسس العلم وأسباب الحضارة. كان مؤمنًا بالحرية إلى حد الموت في سبيلها، وكان يجاهد أن تكون كلماته أكثر إيلامًا وتحديًا لمعنى السلطة وعقوقها.. واستطاع أن يجسد هذه الرؤية في سفره العظيم حتى نكاد نلمس مناضلاً يحمل مدفعه وليس شاعرًا يلوح بكلماته:

قلت فلتكن الريح في الأرض تكنس هذا العفن.

قلت فلتكن الريحُ والدم.

تقتلع الريح هسهسة الورق الذابل المتشبث.

يندلع الدم حتى الجذور.

ثم يصعد في السوق والثمر المتدلي.

ليزهرها.. ويطهرها.

ثم يعصرها العاصرون نبيذًا يزغرد في كل دن.

قلت فليكن الدم في الأرض نهرًا من الشهد ينساب.. تحت فراديس عدن.

... ولم يكتف أمل بهذا الرفض، بل راح يحدد موقعه من هذه المذبحة المقبلة، ويرى نفسه بين القادرين على دفع حركة الحياة إلى قلب التاريخ:

هذه الأرض حسناء زينتها الفقراء.

لهم تتطيب.. يعطونها الحب، تعطيهم النسل والكبرياء.

قلت لا يسكن الأغنياء بها.

الأغنياء الذين يصوغون من عرق الأجزاء نقود زنا ولآلئ تاج.. وأقراطة عاج، ومسبحة للرياء.

هكذا يتحدد الرفض، ويتفرد الالتزام، فليست هناك رؤية أنصح من هذه الرؤية، ولم يقف شاعر عند بوابة التزامه وانتمائه – كما فعل أمل دنقل – وهو الأمر الذي دفع بأجهزة

الأمن أن تكتب في أحد تقاريرها عام ١٩٧٧ – وكنت معتقلاً في هذه الأثناء وأطلعني عليه أحد الضباط «إن أمل دنقل ينادي بضرورة العنف الاجتماعي، وهو الأمر الذي يهدد السلام الاجتماعي واستقرار الطبقات» وعندما خرجت من المعتقل، نقلت إليه ما أطلعني عليه الضابط.. فقال لي إنني أعرف من الذي كتب ذلك التقرير.. ورفض أن يقول اسمه!

- عادات... وطقوس:

كان أمل يستيقظ في الثالثة ظهرًا!

ويبدأ حياته – بعد أن يقرأ في غرفته – في السابعة مساءً.

يذهب إلى المقهى ليتسلم خطابات ويعرف أخبار من سألوا عنه، ثم يذهب إلى «الأتيليه» لتسلم خطابات أو دعوات جديدة، وفي العاشرة يجوب الشوارع بقامته الفارعة ومشيته الهادئة المتأملة.. يستقر خلالها في إحدى المقاهي الليلية حيث أصدقاؤه ومعارفه، وفي الخامسة يحتسي قهوته الأخيرة في التوفيقية ويشتري الجرائد والمجلات.. ويعود إلى غرفته!

وقد لا يعرف البعض أن أمل دنقل كان يترنم بالشعر طوال مسيرته، وكان يحفظ أشعار الآخرين ويتلوها في جلساته وكأنه قائلها.. كان لا يحب أن يقرأ أشعاره للآخرين

ويحب أن يقرأ أشعار الآخرين فقط. وكثيرًا ما تمنى أن يكتب بعض القصائد التي كتبها شعراء غيره. كان يحب أحمد عبد المعطي حجازي حبًا عظيمًا.. ويقول «لقد خرجت من معطفه» وكان يحفظ أشعار حجازي عن ظهر قلب!

كما أحب سعدي يوسف وتأثر به وحفظ أشعاره أيضًا.

وفي إحدى ليالي عام ١٩٨٠ – وكان قد خرج من مستشفى العجوزة بعد إجراء الجراحة الثانية – شاهدته وهو يكتب أحد المقاطع الشعرية من قصيدة لسعدي يوسف.. وقال لي في أسى:«كم أحب هذه القصيدة الجميلة».

كانت القصيدة هي «الأخضر بن يوسف ومشغله».. وكان المقطع هو:

«يرافقني في زيارة محبوبتي.

ويدخل قلبي، وينظر في مقلتيها طويلاً.

وإذ أرسم الرغبة المبهمة

وسائد.. أو منزلاً

يرسم الرغبة المفعمة

نسورًا.. طباشير فوق الجدار الذي يحمل النافذة ويدنو ويأخذ كف الفتاة (أنا جالس لصقها) ثم يمضي بها خارج الغرفة المعتمة!

ومن القصائد التي كان لا يملُّ تكرارها، قصيدة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي «موعد في الكهف» وكان يؤديها بحب وشجن كبيرين، وعندما يصل إلى المقطع الذي يصف فيه عيون حبيبته، يتهدج صوته وترق نبراته.. وكأننا نسمع لحنًا.. وليس مقطعًا من قصيدة:

«عيناك يا لا لكلمتين لم تُقالا أبدًا

خانهما التعبير حتى ظلتا كما هما

راهبتين تلبسان الأسودا

تنتظران ليلة العرس سدى»

كان يتنفس الشعر ويعيشه، وعندما يكتشف قصيدة لشاعر، يحرص أن يقرأها لكل أصدقائه، وذات مرة رأيته سعيدًا ومبتهجًا وعندما سألته السبب، راح يقرأ لي قصيدة بعنوان «خُلاسية» لشاعر سوداني يدعي «محمد إبراهيم مكي» وقال لي تمنيت لو أكتب هذا المقطع:

«أواه.. يا خلاسيه

يا نصف عربية

ونصف زنجية

وبعض أقوالي أمام الله

من اشتراك اشترى للحزن غمدًا

وللأحزان مرثية!»

والخلاسية تعني المرأة الملونة، وظل أمل مفتونًا بهذه القصيدة حتى النهاية.

ومن القصائد التي تركت في نفسه أثرًا قويًا وتأثيرًا هائلاً، تلك المرثية الرائعة التي كتبها أحمد عبد المعطي حجازي في صديقه الراحل وحيد النقاش، وكيف راح حجازي يتشبث به أو يرفض موته، ويعاقبه على تركه وحيدًا في هذا العالم الموحش.

«أنهم يأكلون لحوم الصغار

ويخترعون مشانق للروح تستلها

ويظل القتيل يعيش، ويغشى المقاهي

ويعشق زوجته وينام، ويكتب في جاره للمباحث نثرًا وشعرًا

وفي عينه جثث الأصدقاء.

وفي فمه الكلمات القديمة!».

كان أمل يردد هذا الوصف الموغل في الوحشية لحياتنا وواقعنا، ويشرح في استفاضة قدرات الشاعر واصطياده لأدق المعاني وكيف اختتم حجازي القصيدة بقوله: «استرح يا طبيبي

إن دائي الإقامة.. ودوائي السفر»

وعلق أمل في حزن:

هذا ما حدث.. فقد سافر حجازي بعد أن أعيته الإقامة ودعاه السفر.

- «رفسة من فرس

تركت في جبيني شجا

وعلمت القلب أن يحترس»

كان أمل يحذر الناس قدر حبه لهم!

وكان يكره الشكوى، والتعري والضعف، ويعشق الكبرياء والجسارة والفروسية. لم يكن يخاف السلطة – كما ادّعى البعض – بل كان يحذرها ولم يستفد منها – كما ظن البعض

– بل عاش نقيضًا لها، رافضًا لممارستها وأساليبها، وقد اعتقد بعض المستضعفين – كما كان يسميهم أمل في حياته – أن رثاءه ليوسف السباعي نوعًا من «الملق والتعلق بأهداب الحكومة». لكن الأمر غير ذلك، فقد أحب أمل دنقل شخص يوسف السباعي وعارض سياسته أثناء توليه الوزارة وهاجمه في جريدة «السفير» البيروتية عندما سأله الصحفي عن رأيه في الحياة الثقافية فأجاب أمل: «إن وزارة الثقافة مؤسسة عسكرية، إنها في ذلك شأن جميع المؤسسات، فكيف نطلب من مؤسسة كهذه أن تعمل على دفع حركة الفكر إلى الأمام» وعندما عاتبه يوسف السباعي في مبنى اتحاد الكتاب أجابه أمل أنه سوف يترك منظمة التضامن حتى لا يؤثر ذلك في رأيه، فاحتضنه يوسف السباعي وقال له: «يا أمل أنت ابن لي.. وعندما أعاتبك لا يعني ذلك أنني أهددك في عيشك ومستقبلك».

أما قصيدة الرثاء.. فكانت باقة حب إلى يوسف السباعي لأن قتله لم يكن عملاً ثوريًا.. أو وطنيًا في خدمة القضية الفلسطينية.. فليس يوسف السباعي صاحب القرار، وليس يوسف السباعي هو الذي حال دون تحرير فلسطين، فقد

قاموا باغتياله باسم فلسطين «.... ولم ترجع فلسطين!» أما قضية علاجه على نفقة الدولة، فلم يكن علاجًا بالمعنى الحقيقي، فقد صدر قرار رئيس الوزراء بالعلاج على نفقة الدولة – الدرجة الثانية – وكان أمل يقيم بالدرجة الأولى وتحمل الفرق من ماله الخاص، بل رفض عرضًا كويتيًا من أحد أصدقائه – وكنت أنا همزة الوصل في هذا الاتفاق – بالسفر إلى أمريكا والعلاج على نفقة الصديق الكويتي – ورفض أمل السفر أو تعاطى أية مبالغ من ذلك النوع – كما رفض عروض أصدقائه الذين رغبوا في المساهمة في علاجه.. ومات في سريره مرفوع الهامة.. غير مدين لأحد.

كان يأبى أن يتألم من مرضه.. وفي إحدى الليالي طلبت منه أن يصرخ بأعلى صوته وكان الوجع يفتك بخلاياه وأحشائه، وابتسم لي قائلاً: «يجب أن تحمل عذابك وحدك، لأن الصراخ يعني دعوة الآخرين للمشاركة!».

كان يعتبر مرضه مسألة خاصة به، وكان يتكلم في كل شيء إلا عن ذلك المرض اللعين، وكان يطرد كل الذين يغالون في إظهار مشاعر العطف نحوه، ولم يكف عن

السخرية لحظة واحدة، كان يسخر من المـ ـرض والضـ ـعف والخوف والموت، ويتساءل:

فلماذا إذا مات..

يأتي المعزون متشحين بشارات لون الحداد

هل لأن السواد.. هو لون النجاة من الموت

لون التميمة ضد الزمن..

ضد من...؟

ومتى القلب في الخفقان اطمأن».

كما ظل يعيش عالمه الخارجي دونما اعتراف بـ ـالمرض ويضحك من الأطباء ويشير إليهم:

«أوهموني.. بأن السرير سريري!!».

قصيدة لم تكتمل

تُرى هلا نقلّب في سلة الفاكهة

لنرى كيف دبّ إليها العطن!»

...لم يكمل أمل دنقل هذه القصيدة!

كان ذلك في شقته المفروشة في وسـ ـط المدينـ ـة، وكـ ـان صلاح عبد الصبور قد غادر الحياة إثر نوبة قلبيـ ـة حـ ـادة،

ورأت بعض فصائل اليمين الرجعي من كتاب السلطة وأرباع الموهوبين في موته فرصة سانحة للانقضاض على الفن بهجت عثمان والشاعر أمل دنقل، الذين عايشا لحظة الموت وراحوا يشنون حربًا غير أخلاقية على أمل دنقل وصاحبه متهمين كليهما بقتل صلاح عبد الصبور (كذا) حتى أن الذين هاجموا صلاح في حياته ويكتبون- حتى الآن – الشعر العمودي رافضين الشعر الحديث ساهموا بنصيب وافر في حملات التجريح – ورأينا كاتبًا مرتزقًا يطالب بترك أمل دنقل يموت لأن الدولة لا يجب أن تنفق أموالها في مثل هذه الأمور!

في الوقت الذي كان أمل يعد مرثية حزينة لصديقه الشاعر الكبير، وعندما سألته لماذا لا تكمل هذه القصيدة المرثية؟ أجابني: «لقد أعددت قصيدة الطيور في رثائه، ولن أكتب اسمك عليها.. لأن حزني عليه خاص بي وحدي!».

وراح يكتب بيد مرتعشة:

«الطيور مشردة في السماوات

ليس لها أن تحط على الأرض

ليس لها غير أن تتقاذفها

فلوات الرياح»..

كان أمل نبيلاً في حزنه.. صادقًا في حبه، وصاحبًا لصاحبه.

وقبل موته بيوم واحد.. كنت بجوار سريره، وكان قد تغير تمامًا، وتسلل الشلل إلى نصفه السفلي ويجاهد أن يكمل مرثيته في الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل وهي آخر ما كتب.. ودنوت بوجهي منه وسألته: كيف حالك يا أمل؟.. أجاب: «ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردًا..» ولا أظن أنه قال شعرًا بعد ذلك، لأنه فارق الحياة بعد ساعات قليلة.

(أدب ونقد – العدد الأول)

يوسف إدريس

يوسف إدريس يطفئ ستين شمعة ويقول: أحس أنني كلمة زائدة!

عندما وقف الروائي الإنجليزي جراهام جرين ليلقى كلمة في احتفال عيد ميلاده السبعين، تردد لحظة، ثم أشار بيده قائلاً: «أشعر أيها السادة أنكم جئتم اليوم لتتوعدوني كي أبقى حيًا».

وها نحن اليوم، نتوعد، كاتبنا يوسف إدريس في عيد ميلاده الستين لكي يبقى حيًا ومبدعًا.

ولكن كيف «نتوعده» أيها السادة، دون الدخول إلى عوالمه المثيرة.. وكيف التجول في حديقة الستين وهناك أكثر من مائتي وخمسين قصة قصيرة تضمها إحدى عشرة مجموعة قصصية، وتسع مسرحيات، وعشر روايات، وعشرة كتب متنوعة أبحر فيها بقلمه متسائلاً عن معان كثيرة ضاع نصفها.. وغاب نصفها الآخر!

أي وجه يطالعنا الآن من بين هذه السنوات، لكي نطبع عليه قبلتنا... القصاص.. أم الروائي.. أم الكاتب المسرحي.. أم الكاتب الصحفي.. أم الرحالة إلى «آخر الدنيا» «ولغة

الآي آي».. أم الثائر الذي قرأ عذابات وطنه على جـ ـدران الزنازين وحوائط الحبس.. أم شاعر الحواري و «الفرافير» وفقراء المدن وبسطاء الريف.

إنها «اللحظة الحرجة» التي نواجهها ونحـ ـن نحـ ـاول أن نطبع قبلتنا فلا بأس من المحاولة «أليس كذلك»!

المحاولة رقم (١) للفهم

«فاجأني العمر.. ولكنني لا أحس بالتوتر».

هكذا تكلم يوسف في يوم عيد ميلاده، قلت له: «من أيـ ـن تأتي الصدمة إذن؟».

أجاب في عذوبة: «يا أخي.. أنا مازلت أشعر أنني غيـ ـر عادي وأنني كلمة زائدة تبحث عن نفسـ ـها وسـ ـط التكـ ـرار والتربُص.. فهل يمكن الوصول إلى النفس عبر نفي الـ ـذات؟ إن هذا ما يقلقني.. فقد عشت ستين عامًا في مجتمع لم يحتمل أبدًا الاختلاف معه، وتعرضت لموت محقق... ورغم ذلك ما زلت مختلفًا».

محاولة (٢) للفهم أيضًا

عندما التقى به المستشرق «كوبور شوك» الحاصل على درجة الماجستير في أدب يوسف إدريس، قال له شوك: «لقد قرأت قصصك فوجدتك متأثرًا تأثرًا كبيرًا بتشيخوف وكافكا.. ومن ثم فهذه القصص ليست مصرية.. وليست أصيلة»!

لم يغضب يوسف إدريس ونصحه بقراءة القصص مرة أخرى.

وبعد عام جاءه شوك حاملاً خمسة وعشرين قصة وقال له: «لقد قرأت قصصك مرة أخرى، فوجدت أن هذه القصص الخمس والعشرين خالية تمامًا من أية تأثيرات عربية، أنها «تيمات» مصرية صميمة، فمن أين لك بتلك الأصالة يا يوسف».

بلا بأس من محاولة ثالثة!

في الخمسينات التي لن تتكرر أبدًا، كنا ثلاثة نكتب القصة القصيرة: سعد مكاوي وعبد الرحمن الخميسي وأنا.. واليوم يكتبها أكثر من مائة قصاص وروائي فيا له من ثراء.

يقول الناقد إبراهيم فتحي: يوسف إدريس هو نقطة التحول في القصة المصرية القصيرة، لا لأنه – كما يعتقد – أكد الطابع المصري واستلهم التراث، فقد كان ذلك الهم الأساسي لرواد القصة في مصر ابتداء من محمود تيمور وعيسى عبيد لاشين وانتهاء بيحيى حقي لكن لأنه صوّر الحياة الشعبية المصرية ونماذج الشخصيات وملامحها النفسية من وجهة نظر تتبنى هذه الشخصيات ولا تقتصر على مجرد التعاطف معها، لقد كان يوسف إدريس أول شاعر شعبي في القصة القصيرة المصرية.

يصور حياة البسطاء ويضيئها من داخلها، ويفتح أمامها الآفاق. كان نذيرًا لعاصفة في الخمسينيات الأولى مع المد الوطني الجارف، لم يكن متحسرًا على تعاسة البسطاء، بل كان يكتشف إمكانات نائمة فيهم، وقدرة على الخلق، وكانت لغته القصصية لأول مرة متشابكة مع المصائر الاجتماعية النفسية والأفعال، وكانت مسائل الشكل الفني عنده مرتبطة بمشاكل صياغة وجدان الإنسان ومصيره، أي أن يوسف إدريس كان يجسد رؤية قوى شعبية وطنية مستنيرة تنازع

القوى السائدة على قيادة المجتمع، وكان يوسف يتقمص تلك الفاعلية.

ثورة كاملة

ويلتقط الناقد رجاء النقاش زاوية أخرى لرؤية يوسف إدريس وأهميته على خارطة الأدب العربي.

فيقول عندما يبلغ يوسف الستين، فذاك أمر ينبغي أن يكون موضوعًا لاحتفال قومي شامل في مصر وسائر أنحاء الأرض العربي.. فيوسف يمثل ثورة كاملة في الأدب العربي، وهو واحد من عظماء الموهوبين الذين نقلوا الكلمة العربية من الصالونات والسوبر ماركتات التي لا تعرفها سوى طبقة محدودة من الميسورين ليجعل هذه الكلمة مقروءة في الشوارع والحواري البسيطة ويفهمها كل الصبيان والبنات في القرى والمدن. وهو واحد من الذين يجعلوا الفن الجميل المؤثر مقروءًا في كل مكان.. على شاطئ النيل.. وحافة الترع والمقاهي البلدية ومقاعد الدرجة الثالثة في قطارات السكة الحديد، الكل يستطيع أن يقرأ يوسف إدريس ويجب أن يقرأه والكل يستطيع أن يفهمه أو يفهم جانبًا منه

ويحس في عالم يوسف إدريس أنه ليس غريبًا ولا ضيفًا غير مرغوب فيه.

ويوسف لم يصل إلى هذا كله إلا بفضل عبقريته الفطرية، إلا أن هذه العبقرية لم تدفعه إلى الكسل، فقد جاهد كثيرًا ليصل إلى هذا المستوى الرفيع الذي وصل إليه.. وكثيرًا ما كنت أشعر أن هذا الفنان لا يكتب بالحبر المعتاد، بل إنه ينزف في كتابته نزيفًا مستمرًا. كل كلمة هي قطرة من الدم، وفنه كله عميق الجذور في الأرض لأنه يعرف جيدًا نوع التربة ويختار البذور الصحيحة ويحلم دائمًا بالثمار التي قد تكون مرة في بعض الأحيان، ولكنها ضرورة للجميع، ولا يستغنى عنها أحد، إنه فن يملأنا بالفرح لكنه ليس فرح المساطيل الذين يخضعون لحالات التخدير وأوهام الغائبين عن الوعي، فالفرح في فن يوسف إدريس هو فرح الوعي والمعرفة والرؤية.

يوسف بين عزيزة وفتحية

في نيويورك.. فوجئ يوسف إدريس بامرأة أمريكية تبكي عقب مشاهدة فيلم «الحرام» (أولى رواياته) حيث قامت فاتن حمامة بتمثيل شخصية «عزيزة» تلك المرأة الريفية الفقيرة

التي حملت في «الحرام» وماتت من وطأة الشعور بالإثم وعذابات الخطيئة.. ونظرة المجتمع والبؤس. فسألها: وما علاقتك بعزيزة؟ فأجابت المرأة الباكية: لقد أحسست بها أكثر من إحساسي بجارتي التي تسكن في مواجهتي.. في أقرب المشاعر الإنسانية عندما لاتجد لغة أقوى غير الصدق.

وفي القاهرة سألته الفنانة ماجدة أن يسمح لها بإنتاج فيلم رائعته «النداهة» وتمثيل شخصية «فتحية» تلك الفتاة التي قذف بها قاع الريف إلى جوف المدينة فابتلعها في وحشية ونذالة!

قلت لماجدة: لماذا فتحية، وما سبب الاختيار؟

تجيب: أحسست أنني أعرفها وربما قابلتها في أماكن متعددة. هي فتاة مصرية، وهذا هو الملمح الأساسي في شخصيتها.. وعندما دخلت في عالمها لم ألمس افتعالاً.. أو اغترابًا.. بل تقمصتها بيسر وتلقائية.. وتتبعت خلجاتها ومخاوفها واضطرابها.. لم أكن في حاجة إلى معاونة أو مساعدة للتعرف على أعماق الشخصية ونسيجها النفسي.. فقد أبدع يوسف إدريس بناءها حتى تشعر أنها نابضة أمامك.. حية.. وحارة.. وصادقة.

سألت ماجدة: ولماذا تغيرت نهاية الفيلم عن نهاية القصـ ـة كما كتبها د. يوسف؟

أجابت: لأني رفضت أن ينتهي الإنسان عند أول خطـ ـأ يقترفه في حياته.. فكان لا بد أن تنهض فتحية مـ ـرة ثانيـ ـة وتبدأ حياتها من جديد.. وقد اعترض د. يوسف علـ ـى ذلـ ـك لكن ربما كان خوفي على فتحية وحبـ ـي لهـ ـا وراء تغييـ ـر النهاية!

ويعلق يوسف إدريس على ما أثارته الفنانة ماجدة قـ ـائلاً: «إن ضياع فتحية في زحام المدينة ليس عقابًا على خطأ.. بل ربما يكون بداية لحياة جديدة.. ولكن ماجـ ـدة لـ ـم تقتنـ ـع».. ويضيف ضاحكًا: «لقد اقترحت عليها أن تكتب فـ ـي مقدمـ ـة الفيلم «قصة يوسف إدريس.. ونهاية ماجدة»!

محاولة ليست أخيرة

سألت يوسف إدريس: هل أحببت شخصياتك كما جسدتها؟

أجاب في براءة: قوي يا أخي!

ويفتح الناقد محمود أمين العالم بعض مغاليق هذا الحـ ـب قائلاً: في رأيي أن يوسف إدريس قصّـ ـاص نقـ ـل القصـ ـة العربية من مرحلة يغلب عليها الطابع العاطفي السـ ـيكولوجي

الرومانتيكي إلى القصة الواقعية، ولا شك أنه أبـ و القصـ ة الواقعية، فقد نجد كثيرًا من الإرهاصات الواقعية في القصـ ة قبله، سواء في سوريا أو العراق وفي مصر أيضًا.. ولكـ ن مع يوسف إدريس أخذت القصة أرقـ ى أشـ كالها أو أرقـ ى بنيتها، وعندما أتكلم عن القصة الواقعية فإننى لا أقصد مـ ا يفهم دائمًا أنها تصوير الواقع المباشر، وإنما أقصد اكتشـ اف السمات الجوهرية في هذا الواقع المباشر أيًا كـ ان النسـ يج الأسلوبي الذي يصاغ به هذا الإدراك للواقع، سواء كان هذا النسيج رمزيًا أو سرديًا مباشرًا. والغريب أن يوسف إدريس استطاع أن يمتلك معرفيًا وفنيًا كثيرًا من السمات الجوهريـ ة للواقع المصري، سواء في قصصه أو بعض روايات التـ ي يعالج بها موضوعات ريفية: «أرخص ليالي» و «الحـ رام»، أو التي عالج بها موضوعات مدنية لفئات برجوازية صغيرة في المدينة: «لغة الآي آي» و «أليس كذلك» أو التي عـ الج بها موضوعات ذات طابع رمـ زي خـ الص مثـ ل قصـ ة «الطابور» و «المثلث الرمادي» ولهذا أرى أن القصة عنـ د يوسف رغم تنوع موضوعاتها وأحيانًا تنوع أساليبها، تشكل في مجملها رؤية عميقة متسقة للواقع تسهم فـ ي صـ ياغتها

الفنية في تأكيدها وبلورتها، لأن الفن يبلور الرؤية، وفي تقديري أنه حاول الأمر نفسه في المسرح لكنه كان أبعد عن الإدراك الفني الواقعي الحي من قصصه، وكان أقرب إلى التجريد والتعميم منه في القصة، باستثناء «الفرافير» و «الجنس الآخر» يحاول أن يصل إلى القانون العام. لكن ليس القانون العام الموجود في قصصه المليء بالتوتر والحيوية، على حين أننا في الفرافير نجده ينتهي إلى صيغة تجريدية جامدة في موضوع مثل الحرية.

أشياء خاصة جدًا

في الستين.. تُرى ما الذي يشغل إدريس.. وهل ما زال يكتب القصة.. وما الذي يقرأه أو يفعله على وجه الدقة؟

في شقته المطلة على النيل.. جلس يوسف إدريس مرتديًا جلبابًا شعبيًا جميلاً.. وراح يحدق في سجادة المكان ذات اللون الذهبي.. قبل أن يتدفق في حديثه الدافئ:

تشغلني اليابان وغرابة شعبها، وأقرأ رواية عنها باسم «شوجان» وتعني «السيد» للكاتب الإنجليزي جميل كلافلز يحكي فيها عن التقاليد اليابانية العجيبة، فهم يكرهون الأغراب ويتحدون العالم بحبهم لبلادهم.. والسر وراء

نهضتهم أنهم لا يزالون يعيشون في العصر العبودي بتقاليده الصارمة، وحين انتقلوا إلى العصر الصناعي انتقلوا فجأة دون المرور بأي عصر وسيط!

قلت: وماذا عن القصة القصيرة؟

قال في فرح: لقد فرغت من كتابة قصة، ولم أستقر بعد على عنوانها، يقولون إن يوسف إدريس انتهى.. وأنا أسألهم بدوري.. كيف تنتهي الموهبة؟! كيف تخرج من عقل ووجدان صاحبها بهذه البساطة؟! لقد تركت قصتي أربعة شهور، وحين عدت لقراءتها أدركت أنني ألامس مستويات أكثر نضجًا في الكتابة والحس والمعرفة، هل أقرأ لك ما كتبت استمع إذن:

نصف نائم، نصف مستيقظ، أدرك وكأنما فجأة أنه لم يعر عن عمد جلده مُذ كان في أوائل مراهقته، وقد كان الشعر، شعره نصف أسود متناثر، خفيف، يكسو نعومة جلده يذكر أنه فرح، وكان باستمرار يفرح كلما أمعن النظر فتح عينيه تمامًا، فقد أدرك أنه وكأنما كان ينظر إلى جلد إنسان آخر أدرك الشعر خفيفًا، وكأن شعر ذراعيه وصدره قد بدأ يُصاب بالصلع وكشف عن ساقيه وبطنه خفيف جدًا كان الشعر كأنه

عاد إلى سن الرابعة عشرة، سكت تمامًا عن التفكير والتأمل وإن كانت ذاكرته لم تسكت بوابل من نخزات صغيرة بـ دأت تنهال عليه. فقام إلى المرآة حدّق مليًا، في وجهه اللحية كم ا هي أو تبدو كما هي، فتلك النخزات تبدو.. أغمض عينيه كما يرغم نصف النائم نفسه إذا أحس أنه في ك ابوس ليختف ي الكابوس أو يرحل، رغمًا عنه فتح العينين وفي م زيج م ن الحيرة والضباب ضباب أمس ينزلق ويتوالى والأشياء تمتزج وتتباعد وتقترب لتصبح واضحة تمامًا. صورة الرجل يراها واضحة تمامًا، إذ تلك هي صورته التي يعرف نفسه عليها.

تنزلق يمر فوقها الضباب كأنه السحاب يخفي وجه القمر ولا يبقى سوى ضوء فجري لا يستطيع به أن يمي ز ش يئًا. نعومة، أجل نعومة أنثوية مرعبة كأنها نعومة حية رقط اء تبتسم قبل أن تغلق فاها في عضة صم كعضـ ة الم وت... يرتخي وينفتح يأمره.... وباستخفاف يعصى وينفتح، ومعه ا يحس أنه يهوى في بئر أو من فوق جبل. يشهق طاردًا ك ل شيء كالغريق يدفع الماء برأسه ليلتقط شيئًا محددًا واضـ حًا سيحدث كل ما يحدث أمس. كل ما يتشبث به ينزلق.. م اذا يحدث.. ماذا يحدث.....

هنا فقط يتوقف يوسف إدريس عن القراءة ويطوي صفحات قصته التي بلغت أربعة وأربعين صفحة، وفي هدوء يخلع نظارة القراءة قائلاً: هذه هي الصفحة الأولى من القصة، أعلم أنها طويلة وصعبة.. ولكن هكذا شاءت التجربة.

قلت: هذا عن القصة.. فماذا عنك؟

قال بصوت «نصف نائم» أحب موسيقى «باخ».. وأعشق أشعار محمود درويش.. وأكره قصائد أدونيس لأنها بلا قضية.. وأحن إلى أشعار صلاح عبد الصبور، وكلما أحسست أنني أضعف أتناول جرعة من أشعار أمل دنقل فأعود إلى شبابي.. أما عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري فهما صديقان في الليل.. أقرأ أشعارهما بحب وحزن.. وأراقب نزار قباني في المرحلة الأخيرة حيث يأخذ شعره ونثره منعطفًا خطيرًا.

في الشهر الماضي مات شقيقي.. فتذكرت أبي، وتذكرت أول قصة كتبتها في حياتي كانت عن القبور!

هل تعلم أنني كتبت قصة «اليد الكبيرة» قبل موت أبي بعام، لم تكن مرثية.. بل رجاء أن يبقى حتى أشبع منه.

بالأمس فقط تشاجرت مع ابني الأكبر وأحسست بسعادة خفية عندما ارتفع صوته!

ثمة أفكار تراودني الآن.. أحس أن عصر الثورات الكبرى في المجتمع الغربي قد انتهى، وأن الحضارة الأوروبية ضد الثقافة، وأن أحزابنا السياسية لا بد أن تتحول إلى مدارس حقيقية لتعليم الناس هل أبدو ثائرًا.

عندما أفكر على هذا النحو، عندما زرت عبد الحكيم قاسم في مستشفاه تذكرت أنني رقدت شهورًا طويلة في طوابقها الستة مريضًا تارة بالقلب.. وتارة بالانهيار، لكني ما زلت قادرًا على تحدي الموت.. ألم أقل لك إنني أشعر دائمًا بأنني غير عادي!

(الأهالي ١٩٨٧/٥/٢٧)

لويس عوض

لويس عوض في سيرة ذاتية عاصفة!

على بعد سبعين عامًا، وقف هذا «المشاغب» يروي قصة «اللا تفاهم» الكبير بينه وبين مجتمعه، من خ لال خمس ين كتابًا في الأدب والتاريخ والمسرح والشعر والسياسة.

في صباه، أحب حزب الوفد، وعشق النح اس «باش ا» وهتف بسقوطه!

وفي الجامعة، سيخلع الطربوش، ويكون أول طالب ف ي الثلاثينيات يفعل ذلك!

وفي الأربعينيات، يقود حملة ضاربة على ك ل الأفك ار الرجعية والفاشية، وينتصر للجديد، فيكتب «بلوتولاند د» أول ديوان شعر «حديث» محطمًا عامود الشعر التقليدي، وكاسرًا «رقبة البلاغة العربية»!

وفي الخمسينيات، يصبح اشتراكيًا ديمقراطيً ا، فيع رف طريقه إلى السجن والاعتقال، والفصل من الجامعة، وتغضب عليه السلطات، والتيارات الرجعية، والشيوعيون!

وفي الستينيات، يكتب أفكاره «الجريئة» وتأملات ه ف ي الفكر والحرية، ومسرحياته التاريخية والمعاص رة، فيعلن ه

الجميع: السلفيون، والقوميون العرب، والشيوعيون والصحف الأمريكية!

وفي السبعينيات، شاهده الرئيس الراحل أنور السادات جالسًا مع زوجته جيهان السادات فقال لها محذرًا: «خلي بالك من الراجل ده.. أفكاره خطرة»!

وفي الثمانينيات، تصادر السلطات كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية» وبالتحديد في سبتمبر ١٩٨١، فجأت المصادرة بدلاً من الاعتقال، فيلجأ للقضاء إلا أن الأزهر يعترض على قرار القضاء بتشكيل لجنة علمية لبحث الكتاب، وتنشأ معركة رهيبة بين الأزهر والقضاء، ينتصر فيها الأزهر، ويختنق الكتاب وتتخلى عنه جميع التيارات!

في عام ١٩٨٦، يجلس على مكتبه الخاص بشارع الهرم، ويكتب مذكراته وذكرياته في ثلاثة أجزاء ضخمة سوف يطبعها الناشر مدبولي فتجيء مثيرة.. عارية.. صادقة.. روي فيها كل شيء عن: السياسة والحرب، والجنس، والأحزاب، والأديان، والفن.

وكشف عن حياة شخصية قلقة.. عاصفة.. مضرجة بدماء الثورة وأغنياتها، فما أشبه حياته بحياة مصر في تلك السنوات الحافلة بالمجد والتقدم، والثورة والانكسار أيضًا!

في الجزء الأول – الذي نعرض له – يتحدث د. لويس عوض عن طفولته، ويرسم جدارية رائعة لعائلته: أبيه، وأمه، وأشقائه التسعة!

ونتعرف فيها على أول مطلعاته وأساتذته، والمناخ السياسي والاجتماعي آنذاك.

فماذا يقول؟!

فولكلور عائلي

اسمي الشائع هو لويس عوض، الشهير بالدكتور لويس عوض، ولدت في قرية شارونة، مركز مغاغة، مديرية (أي محافظة) المنيا في ٥ يناير ١٩١٥، لأب هو حنا خليل عوض، وأم هي هيلانة عوض.

هكذا يقدم نفسه د. لويس.

فلا يوجد له اسم ثلاثي إلا في ملفاته الجامعة وحسابات البنوك وملفات وزارة الداخلية!

ويرى د. لويس أن التمسك بالاسم الثلاثي، دون التمسك باسم الجد الأول «قد ساعد على عدم تبلور أرستقراطية مصرية بمعنى نبالة الدم وشرف النسب، فهو لا يدري من هو «عوض» هذا، لكن «فولكلور العائلة» ملئ وزاخر بالروايات عن هذه الشخصية الفريدة!

ويتوسع د. لويس في ذكر تفاصيل «باترونيمية» خرجت من الريف إلى المدينة خلال قرن كامل، وما طرأ عليها من تحولات، فهي من وجهة نظره «أسرة مفككة»!

وعندما يتوقف عند اسم أمه «هيلانة» وخالته «روزا» يتساءل: كيف دخلت هذه الأسماء اليونانية والرومانية في القرن التاسع عشر قرية في صعيد مصر معزولة تقع شرق النيل؟ فهذه أسماء «مثقفة»... فكيف انتقلت إلى بيئة غير «مثقفة»؟

الأرجح – يقول د. لويس – أن هيلانة المتواتر في أسرتنا واسم روزا كانا من بقايا مصر الرومانية، ومع ذلك فمن الصعب أن تعرف إن كان اسم هيلانة الشائع في أسرتنا تخليدًا لهيلانة طراودة الشهيرة بجمالها أو تخليدًا للقديسة هيلانة المصرية أم الإمبراطور قسطنطين، أو من أعلن

المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) عام ٣٢٤ ميلادية.

والأرجح أن عوض، جدي لأمي، لم يسمع بهيلانة طروادة، ولا بهيلانة قسطنطين، إنما أخذ اسم هيلانة من تراث متوارث عبر الأجيال ضاع مضمونه ولم يبق منه إلا أشكاله!

أنا وأسرتي عاطلون من الذكاء!

ليس في أسرتنا إلا محام واحد.

هكذا يقول د. لويس، وليس فيها قضاة أو وكلاء نيابة أو ضباط جيش، أو بوليس، أو عمال فنيون، أما التجار فيها قلة نادرة، وأغزر مهنة فيها هي الهندسة، ثم الطب، ثم أساتذة الجامعة في العلوم أو الآداب.

بعبارة أخرى: «نحن لا نشتغل بضبط المجتمع أو انضباطه ولكن نشتغل بخدمته وزيادة إنتاجيته!».

ويشرح لنا د. لويس بعض «الخصائص النفسية والأخلاقية المشتركة» لآل عوض.

«فنحن لا نكذب، ولا نعرف كيف نكذب حتى للمجاملة، والكلمة لها معنى واحد، كما أننا عاطلون من الذكاء الاجتماعي، وهذا ما يجعلنا نعيش في عزلة نسبية».

ويرى د. لويس أن العجز عن التكيف أو التأقلم من أسباب انقراض بعض الأنواع كالماموث والديناصور وبعض السلالات البشرية كما تقول نظرية التطور، وبهذا المقياس يعلق د. لويس ساخرًا: «نحن أسرة لا مستقبل لها»!

عندما بكى والدي!

في السودان، ينشأ د. لويس مع والده الذي كان يعمل في الحكومة السودانية موظفًا قبل عودته إلى المنيا للاستقرار عام ١٩٢٠.

وكان والد لويس رجلاً مستنيرًا، مثقفًا، لديه مكتبة رائعة، لا يعمل بالسياسة، لكنه وفدي صحيح.

رآه. لويس يبكي مرتين!

مرة يوم وفاة سعد زغلول في ٢٧ أغسطس ١٩٢٧، ومرة يوم تنفيذ حكم الإعدام في شيكاجو عام ١٩٢٧ في الفوضويين الإيطاليين «ساكو» و «فانزيتي»!

وكان اتهما بقتل رجلين في أمريكا، وتأجل تنفيذ حكم الإعدام ست سنوات بسبب ثورة الرأي العام على هذا الحكم الجائر والمنافي للعدل والإنسانية!

واجتاحت المظاهرات كل عواصم العالم، تتهم بوليس شكاجو بالتلفيق ضد عاملين بريئين قادا عمال مصانع شيكاجو. وهذا هو الأساس في اختيار أول مايو من كل عام عيدًا للعمال باعتبار ساكو وفانزيتي أكبر شهيدين للحركة العمالية.

ويعلق د. لويس «أما بكاء أبي على سعد زغلول فمفهوم.. وأما بكاء أبي على ساكو وفانزيتي فهذا ما لم أفهمه!

عاملان من الخواجات في بلاد بعيدة يعدمان بتهمة جريمة قتل، وأبى في المنيا يذرف عليهما الدموع ونحن لسنا من العمال، ولا من الفوضويين، ولا من الخواجات، ولا من الأمريكان، ولا من الإيطاليين.

وكان السبب في ذلك أن «أبي يحتقر إجرام البوليس» حيث كان بيتنا يقع أمام بندر المنيا، وكثيرًا ما سمعنا صغار اللصوص والمجرمين، يتأوهون ويجأرون تحت وطأة التعذيب الذي كان يقوم به رجال البوليس».

وقد فجّر هذا الموضوع في نفس وعقل د. لويس «الوعي بدور البوليس وأجهزة القمع في قهـ ر الشـ عب وإخضـ اعه للحكومة والطبقة الحاكمة»!

أبناء للذبح

لم يكن أبي دائمًا فاضلاً في كلامه وتصرفاته!

ويذكر د. لويس أنه في أوائل الثلاثينيات شـ اهد مناقشـ ة حامية بين أخيه فيكتور – معاون محطة مريوط آنذاك– والده بشأن الجنيهات الخمسة التي يرسلها فيكتور لوالده.

وهنا صاح الأب في أولاده جميعًا بما فيهم لويس. «لماذا في ظنكم ينجب الآباء الأبناء، لكي يساعدوهم عند الحاجـ ة، الراعي مثلاً يربي الخراف والجديان الصغيرة، وينفق عليها حتى تكبر لماذا؟ لكي يذبحها ويأكلها أو يبيعها».

وكانت الصورة «بشعة» سبّبت للدكتور لويس صدمة!

فإبراهيم أعد كل شيء لذبح ابنه، وأجاممنون ذبح ابنتـ ه ايفيجينيا قربانًا للآلهة، لكن إبراهيم فعل ذلك ليثبت طاعة الله (مبدأ عام).

وأجاممنون فعل ذلك ليحرك رب الرياح سفائن اليونان، ويحمل البحر أسطولهم إلى طروادة (مصلحة عامة). إما أن يربي الأب أولاده ليذبحهم كالخراف ويأكلهم، فهذه نظرية جديدة!.

أنا والعقيد القذافي!

كان العقيد القذافي، وبنت الشاطئ، والأستاذ محمود شاكر يعيرونني باسمي!

فهم يحسبون أن كل من سُمّي «لويس» في مصر تمجيدًا للويس التاسع ملك فرنسا أسير دار ابن لقمان في المنصورة أيام الحروب الصليبية.

وقد عرفت من أبي ما يخيّب توقعات هؤلاء المتعصبين، فقد سمّاني «لويس» لفرط إعجابه بالعالم لويس باستير مكتشف الميكروبات!

ولو أنهم بحثوا في سجلات الحروب الصليبية لما وجدوا أسماء «شاكر» ولا «ألفونس» ولا «مارجريت» (أشقاء د. لويس)

وكانت هناك أيضًا «فلورنسا»- في أوائل الثلاثينات – تمجيدًا لاسم «فلورنس نايتنجيل» مؤسسة الصليب الأحمر

وليس تمجيدًا لفلورنسا مدينة عظماء الرينسانس، ولولا أنه ا ماتت بعد شهور لخلقت إشكالاً للعقيد القذافي والأستاذ محمود شاكر والشيخ عبد المهيمن الفقي خانق كتابي «مقدمة في فقه اللغة العربية» وحسبوها اسمًا مرعبًا لإحدى أميرات الحروب الصليبية!

أدهم الشرقاوي زعيم الفلاحين

وعن المؤثرات العميقة في هذه السنوات البعيدة يروي د. لويس عن أدهم الشرقاوي وموالله الشهير.

ذلك «اللص الشريف» الذي تحول إلى أس طورة ش بيهة بأسطورة «روبين هود» في الشعر الإنجليزي.

ويستعرض د. لويس تفاصيل الحكاية كما سردتها مجل ة «اللطائف المصورة» آنذاك ع ام ١٩٢١، وك ذلك ملف ات التحقيق، ويرى أن ثمة علاقة بين حوادث أدهم الش رقاوي وبين أحداث ثورة ١٩١٩!

فأدهم من أسرة طيبة، وأصاب درجة من التعليم، وعم ه عبد المجيد بك الشرقاوي عمدة «زبيدة» – البحي رة إلا أن الملفات تجهل والد أدهم أو مكانته بين قومه.

ونحن لم نألف في مجتمعنا أن عمًا يشهد ضد ابن أخيه ولو كان قاتلاً بالفعل، ويبدو من وجهة نظر د. لويس أن هناك صراعًا ضاربًا على السجن أثناء اضطرابات ثورة ١٩١٩، واختبأ في القرية ليشيع الإرهاب في المنطقة لكي يثبت للسلطات أن عمه عاجز عن حفظ الأمن فيفصل من العمودية، ومع ذلك تمسكت السلطات بعبد المجيد بك عمدة في ناحيته!

ويتساءل د. لويس هل قام سجناء الليمان بشغب سياسي أدي إلى هرب أدهم الشرقاوي ونظرائه؟

ثم كيف حدث هذا الشغب؟ ومن قاده من الداخل؟ وهل تلقى المتمردون في «طره» عونًا من الخارج بسبب كثرة المسجونين السياسيين بين سجناء القانون العام، حتى اتخذ هذا الليمان هيئة الباستيل؟

ثم ما هذا السحر الذي توفر في قاتل شاب يفر من الليمان أثناء ثورة ١٩١٩، ويختفي في بلدته فينضم إليه عدد كبير من الأشقياء وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره؟ (ولما كبرت عصابته) صار يفعل كذا.. كل هذا بين أواسط

عام ١٩١٩ وأواسط عام ١٩٢١، والثورة المصرية في قمـ ـة الغليان.

هل هذه نواة ميلشيا من الفلاحين كان ينظمهـ ـا ويقودهـ ـا أدهم الشرقاوي؟!

ويدعو د. لويس أساتذة الفولكلور إلى إعادة دراسة موال أدهم الشرقاوي، والتوقف عند كل وصف وعند كـ ـل حـ ـدث عسى أن يهديهم (الدليل الداخلي) إلى الكشف عن حقيقة مـ ـا كان يجري في ريف مصر في تلك الأيام التي أعلنت فيهـ ـا الجمهورية في زفتى، والمنيا، وبدأت أقـ ـاليم مصـ ـر تهـ ـدد بالانسلاخ احتجاجًا على الحكومة المركزية الموالية للإنجليز.

القرآن في حياتي

أني مدين بحبي للأدب العربي وللبيان العربي لأسـ ـاتذتي الأوائل في مرحلة الدراسة الثانوية، لأنهم كانوا لا يُقحمـ ـون الله أو جبريل أو الوحي في تدريس نصوص القرآن، وإنمـ ـا كانوا يركزون على أركان الجمال، والفـ ـن، والأحكـ ـام فـ ـي عباراته، فلم يكن غريبًا أني أشد إحساسًا بالقرآن من كثيـ ـر من أقراني المسلمين في المدرسة، وأرسخ منهم قدرة علـ ـى البيان العربي حسًا وفهمًا وتعبيرًا.

وفي موضع آخر من المذكرات يق ول د. ل ويس «لق د أدمنت قراءة القرآن» ولعل ذلك سببًا في عشق اللغة العربية وفقهها الذي استمر ستين عامًا حتى تأليف كتاب «مقدمة في فقه اللغة العربية».

امسك «شيوعي»

كنت من أوائل الشباب المصريين الذين تنبهوا إلى خط ر الفاشية والنازية والنظم الشمولية وج اهروا بع دائها لأن ي تأثرت في تاريخ باكر على الأقل منذ ١٩٢٩ بما كتبه سلامة موسى وما كان يكتبه عن الاشتراكيين والشيوعية، كم ا أن بداياتي الوفدية حصنتني ضد كل دعوة ديكتاتورية، وجعل ت إيماني بالحرية والمساواة وكافة المقولات الديمقراطية أش به شيء في نفسي بالعقيدة الدينية.

وقد بهرتني كتابات سلامة موسى في هذه السن الب اكرة، فكنت أشرح لزملائي المبادئ والمعلومات التي تعلمتها، ب ل وكنت أكتب موضوعات الإنشاء بالإنجليزية عن الاشتراكية والشيوعية، وأناقش سوينبرن مدرسي في اللغة الإنجليزي ة حول التجربة الروسية.

وفي عام ١٩٢٩ قال لي مستر سوينبرون فـ ـي الفصـ ـل: «أنت التلميذ الشيوعي الوحيد في المدرسة»!!

على الرغم من أن د. لويس لم يقرأ أعمال كارل ماركس وأنجلز وجوركي وبليخانوف إلا عام ١٩٣١ أثناء دراسـ ـته الجامعية!!

لويس في هوليود!

في عام ١٩٣٠ أدمن د. لويس مشاهدة السينما، وعاش في عالم سحري مع شارلي شابلن وتوميكي، وحفظ أخبارهم من المجلات والصحف، وحلم بأن يصبح نجمًـ ـا سـ ـينمائيًا فـ ـي هوليود!

واشتعل خياله بفكرة قرأها كثيرًا عن نجـ ـوم فـ ـرّوا مـ ـن عائلاتهم على سطح باخرة أو سفينة، وتحايلوا على القبطـ ـان حتى وصلوا إلى لوس أنجلوس بدون تذكرة أو أية أمـ ـوال، وهناك صعدوا إلى النجومية وأصبحوا مشاهير وعمالقة!

وبالفعل قرر لويس الصغير أن يخوض التجربـ ـة حتـ ـى لوس أنجلوس بعد أن ملأ شنطة الكتب بالغيارات الداخليـ ـة، ولم يكن يملك سوى جنيه، وأعطاه صديقه أحمد كامل جنيهًا

ونصفًا، وسافر من المنيا إلى الإسكندرية بتذكرة ذهاب، فلن تكون هناك عودة إلى المنيا مرة ثانية!

وفي الإسكندرية أقام بأحد الفنادق، وفي الصباح حاول أن يتسلل إلى الميناء إلا أنه اكتشف صعوبة الأمر واستحالته!

فليست هناك بواخر تسافر مباشرة إلى أمريكا، ولم يكن يعرف جداول وصول وسفر البواخر، كما أن بوابات الميناء شديدة الإحكام، وعساكر البوليس يطلبون من كل داخل جواز سفره.

لم يكن الأمر إذن كما تصور. د. لويس مجرد شابط يقف في أعلى السلم ليرى تذاكر سفر المسافرين كما يحدث في السينما!

وحاول لويس أن يجمع جداول وصول البواخر المختلفة وسفرها وساعات انتظارها، واستغرق ذلك ثلاثة أيام، ونفدت قروشه، فقرر العودة إلى المنيا، ولم يكن معه ثمن تذكرة العودة!

العودة بدون نجومية

وكانت مغامرة خطيرة، حيث ركب القطار في الدرجة الثانية وحاول أن «يزوغ» من الكمساري، إلا أنه أمسك به

لولا وجود عمدة من الأرياف خلّصه من الكمساري ودفع له ثمن التذكرة، ورغم ذلك أصر الكمساري على تسليمه في محطة طنطا.

وفي مكتب ناظر المحطة تم التحقيق مع لويس، واكتشف المحقق أنه هارب من أسرته فأعادوه إلى المنيا مع عسكري، وبعد أربع ساعات وصل لويس وسط حراسة مشددة، إلى محطة المنيا حيث كانت أسرته في انتظاره.

كان هذا ما جرته هوليود وأحلام اليقظة على لويس الصغير، فقرر أن يصرف نظره عن السينما والتمثيل وهوليوود ولوس أنجلوس وأمريكا كلها!

(الأهالي: ١٩٨٩/١٢/١٣)

لويس عوض وأوراق أخرى
من دفتر العمر

لم تعرف حياتنا الثقافية رجلاً شغل الناس وأغضب الجميع على مدى أكثر من خمسين عامًا مثلما فعل «د. لويس عوض».

فقد عاش الرجل ٧٥ عامًا كتب خلالها ٥٠ كتابًا، وخاض الكثير من المعارك، فجاءت حياته ملحمة هادرة في الوطنية والاستقلال الفكري.

كتب الشعر والمسرحية والرواية والنقد الأدبي، وترجم عن الإنجليزية والفرنسية واليونانية، كما كتب في النقد المسرحي والتشكيلي وشتى ألوان الفنون.

في صباه سوف يهرب لويس عوض من منزله بقرية «شارونة» محافظة المنيا لكي يسافر إلى أمريكا لدراسة السينما، فهو يريد أن يصبح ممثلاً، لكن شرطة القطار تقبض عليه وتعيده إلى أهله فيلعن السينما وأمريكا وجميع أجهزة الأمن التي تحول دون الناس وأمانيهم!

وفي شبابه يهتم بالأدب والسياسة ويصبح وفديًا وتتوالى المعارك.

وفي الثلاثينيات يصدر ديوانه الأول بعنوان «بلوتلاند وقصائد أخرى» ويدعو في مقدمته إلى كسر رقبة البلاغة وتحطيم عامود الشعر، فينتفض المحافظون وتنشب واحدة من أهم المعارك الأدبية ينتصر فيها الشعر الجديد.

ولا يهدأ الرجل، فيعود ليدعو إلى الكتابة باللغة العامية ويؤلف كتابًا رائدًا في هذا الاتجاه وهو «مذكرات طالب بعثة» يعاهد فيه الثلوج البيضاء وأشجار الدردار بحدائق جامعة كمبريدج على أنه لن يكتب كلمة باللغة العربية، لكنه سيخون الثلوج البيضاء وأشجار الدردار ولن يكتب أبدًا بعد ذلك باللغة العامية!

في الخمسينيات يدعو عبد الناصر إلى القومية العربية والوحدة العربية، ويتزعم تيارًا هادرًا من المحيط إلى الخليج تتبعه الجماهير العربية، إلا لويس عوض، الذي يرفض الدعوة ويتهمها بالتعصب ولا يرى في القومية العربية سوى ضرب الأساطير، ويكتب سلسلة من أعنف المقالات لتسفيه الفكرة القومية وتم اعتقاله وفصله من الجامعة.

ويعرف في تلك السنوات معنى الجوع والتشرد، لكنه يظل صامدًا كالصخرة، قابضًا على أفكاره مهما كانت النتائج.

والطريف أنه لم يتراجع عن دعوته إلى الكتابة باللغة العامية، ويقول عبد الناصر نفسه يدعو في خطبة إلى القومية العربية باللغة العامية المصرية!

في الستينيات يخرج لويس من السجن ويعين مستشارًا ثقافيًا بجريدة الأهرام، وعلى الفور يرتدي عدة الحرب ويكتب أفكاره وبحوثه في الثقافة العربية ويتصدى له العالم الجليل محمود شاكر في أعنف معركة عرفها لويس، خرج منها داميًا مثخنًا بالجراح، فقد لقنه شاكر درسًا مؤلمًا في كيفية التعامل مع النصوص العربية، وأطلق عليه مجموعة من الأوصاف الجارحة، ويستقيل لويس عوض من منصبه، لكن محمد حسنين هيكل يرفض الاستقالة ويطالبه بضرورة المواجهة والاستمرار في المعركة.

ويتسع الميدان فيدخل د. مندور منتصرًا لصديقه لويس، لكن المعركة لم تكن متكافئة، فقد ظل الأستاذ محمود شاكر يواصل دروسه بقسوة بالغة جمعها بعد ذلك في كتاب بعنوان

«أباطيل وأسماء» فجاءت مدفعية ثقيلة في صدر لويس عوض ومؤسسة الأهرام وكل دعاة التجديد.

ويهدأ الغبار، فالرجل لا يزال مثيرًا للدهشة والإعجاب معًا. ففي تلك السنوات ينشر على الناس روايته «العنقاء.. سيرة حسن مفتاح» التي تأجل نشرها أكثر من عشرين عامًا، أما حسن مفتاح فهو سكرتير عام الحزب الشيوعي الغارق في الأحلام والجنس والعنف، وأما الرواية فتدور أحداثها داخل المنظمات الشيوعية السرية.

ويغضب الشيوعيون كما غضب من قبل القوميون والبعثيون، ورغم اعتراف لويس بأن كارل ماركس «أجهز عليه» ولم يعد يرى من الألوان سوى اللون الأحمر، إلا أن ذلك لم يشفع له عند أصدقائه الشيوعيين فاتهموه بمعاداة الاشتراكية وهو اتهام قاس بالنسبة للدكتور لويس سرعان ما يدفعه عن نفسه، فقد عاش معهم محنة اتهام في الاعتقال بالواحات الخارجة، وفصل معهم من الجامعة ولا تزال السلطات تعتبره واحدًا من غلاة الشيوعية والشيوعيين وتستمر المعارك.

في السبعينيات يكتب لـ ويس كتاب ه «أقنع ة الناص رية السبعة» يعيد فيه مراجع ة التجرب ة الناص رية ويغض ب الناصريون، لكنه يواصل معركته القديم ة ح ول القومي ة العربية ويعلن سقوط الدعوة برحيل عبد الناصر، ب ل إن ه يرفض الانضمام إلى اتحاد الكتاب المص رريين لأن لائحت ه تشترط في العضو الإيمان بالقومية العربية، وتدور المعركة ويتصدى له عدد من الكتّاب القوميين ويتهمونه بالانعزالي ة والتعصب الديني!

ولكن هل تكون هذه آخر المعارك لا.. فالرج ل ارت دى عدة الحرب وما كان له أن يخلعها. أليس هو الـ ذي أطل ق على نفسه «المعلم العاشر» أي أنه من سلالة معلمي البشرية التي تبدأ بأرسطو وأفلاطون وتنتهي بأستاذه طه حسين وبه!

ورغم بلوغ لـ ويس الس تين إلا أن ه يواص ل حروب ه ومعاركه، فيكتب كتابه المثير «مقدمة في فقه اللغة العربية» وينتفض الجميع محافظين وغير محافظين، فالكتاب يبحث في سلالة اللغة العربية ويخلع عنها القداسة والأزلية، وي تلمس جذورها في اللغات القديمة، وهنا ي دخل الأزه ر مي دان

المعركة ويصادر الكتاب ويتهم مؤلفه بـ الطعن عل ى لغ ة الإسلام.

ويلجأ الرجل إلى القضاء فيأمر القضاء بتشكيل لجنة م ن العلماء في اللغ ة والـ دين والفلس فة، فالكت اب ص عب. والموضوع شائك وتصبح المعركة بين القض اء والأزه ر مؤسستين في البلاد في مواجهة فريدة، وينتص ر الأزه ر ويصادر الكتاب ويدرج اسم لويس عوض في قائمة المعتقلين في أحداث سبتمبر ١٩٨١ متهمًا بإثارة الفتنة الطائفية لـ ولا وجود صديق له برئاسة الجمهورية حال دون اعتقال ه ف ي آخر لحظة وشطب اسمه من القائمة.. ولا يهدأ الرجل!

نحن الآن في مطل ع الثمانينيـ ات والحـ رب العراقيـ ة، الإيرانية مستمرة، فيكتب لويس كتابه «الإيراني الغ امض» عن شخصية جمال الدين الأفغاني، ويتهم ه لـ ويس بأبش ع الاتهامات، فهو عميل لأجهزة الأمن الأوروبية، وهو مج رد مغامر سياسي يتخذ من الدين قناعًا. ومرة أخرى يتصدى له كتاب التاريخ مدافعين عن الأفغاني ودوره في إذك اء روح الثورة، لكنه يبقى واقفًا!

الآن يبلغ لويس السبعين من العمـ ـر ويداهمـ ـه سـ ـرطان العظام اللعين، لكن المعلم العاشر لا يلقى سلاحه ولا يستسلم لهذا الوافد الرهيب.

هنا يجلس لويس متأملاً رحلة العمر مقلبًا فـ ـي أوراقـ ـه، فيعود بذاكرته إلى الوراء يستدعي أحداث الماضي ومعاركه فيكتب كتابه «أوراق العمر» سيرته الذاتية فتأتي كالعاصـ ـفة في جرأتها وعريها.. يكتب عن عائلته وحياتـ ـه الخاصـ ـة، يكتب عن سنوات التكوين الفكري والنفسي والثقافي.

ويفزع الجميع من هول الصراحة والصدق حتى أن كاتبًا مثل نجيب محفوظ يرتعش أمام هذا التعري الخالص ويتمنى لو لم يكن قد صدر هذا الكتاب.

ورغم أن السيرة الذاتية قد وقفت عند عام ١٩٤٠، إلا أن أحداثها جاءت مخيفة في صدقها وشجاعتها، وهكـ ـذا عـ ـاش لويس عوض محاربًا حتى النهاية، مثيرًا للشـ ـغب والجـ ـدل وطنيًا مخلصًا وفنانًا كبيرًا.

يمضي لويس عوض موصيًا بمكتبته إلى جامعة القاهرة، تلك الجامعة التي حرم منها مبكرًا.. يمضى فقيرًا كما عـ ـاش راهبًا متقشفًا، لكنه كان كريمًا إلى أقصى الحدود. وكثيرًا ما

كان يسخر من هؤلاء الكُتّاب الأثرياء ويتساءل: كيف يكـ ون قصاص أو روائي مبدع وهو يكسب خمسة آلاف جنيه فـ ي الشهر؟!

والطريف أنه رفض أن يكتب عن هؤلاء القصاصين لهذا السبب، ويقول أن نجيب محفوظ كتب ثلاثيته وكـ ان دخلـ ه الشهري أربعين جنيهًا.

وعندما داعبه أحد أصدقائه وقال له هل تظن أن المبلغ ٥ آلاف جنيه كبير إلى هذا الحد؟

أجاب لويس بحدية بالغة: نعم فهذا ليس دخلاً بل دعـ وة صريحة للريبة، تستوجب المساءلة القانونية؟

(الأهالي ١٩٩٣/٩/١)

العنقاء التي أغضبت الشيوعيين

قال عنها توفيق الحكيم: لو خرجت هذه الرواية إلي النور وقت كتابتها عام ٤٦، لتغير وجه الرواية العربي ة قاطب ة. ووصفها دكتور حسين فوزي بأنها سجل حافل ودقيق لحي اة الشيوعيين من الداخل. إنها رواية «العنقاء» أو سيرة حس ن مفتاح للدكتور لويس عوض، التي تأخر نشرها عشرين عامًا بعد أن فرغ من كتابتها في باريس أوائل عام ٤٧.

عشرون عامًا جرت فيها مياه كثيرة ودماء كثيرة، ورغم ذلك بقيت سطورها وشخوصها صامدة ممتلئة بالدم والعافية.

حسن مفتاح – سكرتير عام اللجن ة المركزي ة للح زب الشيوعي – نصف خائن ونصف مجنون، يفكر في جريمة لم يرتكبها ولا يكلم أعضاء اللجنة إلا رمزًا! يرس م المشـ نقة كرمز للفداء ويمسك بزجاجة البراندي مفتوحة في اجتماعات الحزب، تطارده أشباح الوحدة وخيالات المنتحرين، وي رى أن الرحمة نوع من التفريط، ويحلم بالقتل والمذابح.

عقيمٌ لم يلد رغم خصوبة العوام والدهماء، ويه ذي ف ي الليل بعد أن فقد إنسانيته وتجرد من الضمير. أنه اللعنة جسد

بلا روح وروح تسكن في جسد يسعى إلى الموت ولا يسعى إليه الموت، يبوب المجتمع تبويبًا جنسيًا! فالبرجوازيون يُقبّل نصفهم النصف الآخر بعد الثانية صباحًا في الزمالك وجاردن سيتي، أما البرجوازيون المتوسطون في العباسية ومصر الجديدة فلا يفعلون ذلك إلا بعد العاشرة مساء. الفقراء وحدهم هم الذين يشرعون في القبلات بعد الثامنة مساء!

يؤمن بماركس وأنجلز ولينين، ويحب عايدة علم الجميلة التافهة كأزواج العظماء، تملأ عليه حياته حتى يكتشف فجأة أنه لا يحبها، أما مونا ربيع ابنة الأرستقراطية وزوجة رفيقه فهي تتحدث عن مدارس التكعيبية في الفنون الجميلة وتخترق بعينيها جسده اليابس وروحه الملعونة في أحضانها يتجزأ حسن مفتاح ليصعد من جديد الكل في واحد.

إنه أوزوريس أو برميثيوس طليقًا، هكذا تُولد اليناء من الألف المجردة ولا تبقى أمامه سوى رسم المشنقة علامة الخلاص.

لوحة تعبيرية امتزجت فيها الألوان واشتعلت فيها الخطوط واهتزت الريشة أكثر مرة بين يدي دكتور لويس عوض، إنها مصر الأربعينيات حيث القنابل في كل مكان:

في الحانات ودور السينما والشوارع، حيث القتل المجاني للقضاة ورؤساء الواردات والوزراء.

كان المجتمع يغلي منقسمًا إلى قوتين رئيسيتين: الشيوعيون والإخوان المسلمون، والعنف بساط أحمر يغطي وجه البلاد، كان الشيوعيون في منظماتهم المنقسمة والمبتورة يحلمون ويخططون بالثورة المقبلة، يعرفون عن الطبقة العاملة الفرنسية والأمريكية أكثر مما يعرفون عن عمال شبرا الخيمة، يؤمنون بالشعب ولا يعرفونه، منفيون في لغتهم وأجسادهم، وأوهامهم، ويتعاطون الحب والعنف والثورة مع أكواب البراندي وموسيقى فاجنر الهادرة، ليست لوحة تلك التي أبدعتها ريشة لويس عوض. إنها جدارية تقفز منها الملامح وتفر من صلصالها الكوابيس والأحلام المبللة، فحسن مفتاح بطل تراجيدي من طراز نادر، تتعامد في جسده الوجودية والماركسية، وتتقاطع في روحه الثورة والعنف، يحمل اللعنة على كاهله المتعب ويرى ذنوبه مطبوخة على نار زرقاء يطارده شبح فؤاد منقريوس المنتحر، وتلتف على عنقه أصابع سيد قنديل المقتول، وتفر منه موتًا ربيع ذلك الحلم المستحيل ولا يرى خلاصه إلا عبر المشنقة.

لقد اختار لويس عوض شخصية حسن مفتاح لقوة ومتانة نسيجها النفسي والاجتماعي، فهي شخصية مثقلة بالـ دلالات والمعارف وتختزل في أعماقها أكثر من وجه وأكثـ ر مـ ن شهيد، ولعل ذلك سببًا من أسباب رفض الشـ يوعيين لهـ ذه الرواية حتى الإهداء الذي كتبه لويس حمل هذا المعنى.

فهي مهُداة إلى سر «بكر سيف النصر الذي كان يكره أن ترى هذه الرواية النور» وبكـ ر شخصـ ية حقيقيـ ة ورمـ ز ماركسي بارز في تلك السنوات، وكان صديقًا حميمًا للدكتور لويس، وقال لويس في روايته: مادت بي الأرض يوم وفاتـ ه فالرواية وثيقة فنية للعلاقـ ات العاطفيـ ة والجنسـ ية داخـ ل المنظمات الشيوعية في تلك السنوات، وهي ممارسات امتدت عبر السنوات إلى أجيال لاحقة وتوارثتها أجيال الشـ يوعيين المتعاقبة، وجاءت نتائجها وبالاً على أصحابها، ما بين القتل والانتحار وتدمير الذات وهدم المعبد علـ ى الجميـ ع. روح ملعونة اجتاحت الشيوعيين راحت تطلق طيورها الخرافيـ ة وأشرعتها الممزقة لا تستقر على ساحل ولا تعرف ما يـ دور حولها تمامًا كعايدة علم التي تجمع التبرعات لأعضاء الحزب

وتمنحهم شقة لممارسة اجتماعاتهم ولا تنتظر من حسن مفتاح سوى الحب الذي لم يمنحه لها أبدًا.

خطأ أم خيانة؟

لم يكن حسن مفتاح سوى تعبير عن مرحلة الأربعينيات وآثامها، فمنذ أن فقد جذوره وإنسانيته ومنذ أن تخشب جسده في تابوت الرهبة والخوف، وهو لا يكف عن حديث الشعب ومطالب الشعب وروح الشعب، كل ذلك من خندقه السفلي وشعابه الصخرية، إنها العزلة التي أودت بهذه المنظمات إلى خارج النافذة تمامًا كروح حسن مفتاح الصاعدة. لقد كان الشيوعيون قوة مؤثرة في تلك السنوات، وتركوا آثارًا حقيقية في حياتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية، إلا أن آفة الانقسام المدمر وروح الاستبداد قد تمكنتا من هذه المنظمات حتى أصبحت كعصف مأكول، لهذا جاءت اللوحة داكنة وحزينة، ومن أجل ذلك خاصم الشيوعيون الرواية وناصبوها العداء، تارة بالتجاهل، وأخرى بالصمت، لقد حملت الرواية أكثر من دلالة موحية ومبكرة، فقد كان لويس عوض يرى في الشيوعية – رغم احترامه الكامل للماركسية، دعوة لتكريس الحق الإلهي من خلال الدولة والحزب، بينما كان هو يقف

في الشاطئ الآخر مع الحق الطبيعي في الحكم ومن ثم جـ اء التعارض حادًا رغم أن د. لويس ظـ ل متهمً ا بالشـ يوعية سنوات طويلة واعتقل مع الشيوعيين في الواحـ ات، وأحـ ب بعضهم حبًا حقيقيًا، لكنه ظل مستقلاً محافظًا على اسـ تقلاله في مواجهتهم، وجاءت الرواية «العنقاء» سيرة حب وليسـ ت قرار اتهام كما صورها الشيوعيون، لقد غاص لويس في أدق التفاصيل، راح يجمع ملامح أبطاله من خـ لال ممارسـ ات صغيرة وأحزان دفينة وأناشيد فاجعة وألوان أرهقها الطيـ ف وكلمات تقطر حكمة وبلاغة، كل ذلك وأكثر عجنه لويس في نسيج أسطوري شفاف وواقعي إلى حد الجنـ ون إنـ ه الفـ ن العظيم والبصيرة النافذة والنبوءة الجبارة، فالروايـ ة تأسـ ى لهؤلاء الحالمين المهزومين وتكشف عن أشـ واق غامضـ ة وأجنحة كسيحة، إنهم ليسوا أوغادًا الآن الوغـ د ليسـ ت لـ ه مأساة، أما الشرفاء الحالمون فهم وحدهم الجديرون بالمأسـ اة تمامًا كما سجلتها ريشة لويس عوض المهتزة!

في أكثر من أربعمائة صفحة – هي عدد صفحات الرواية – نلمس من خلال السرد التقليدي أحيانًا والشـ عري أحيانًـ ا أخرى تأثرات عميقـ ة بالفرعونيـ ة والمسـ يحية والإسـ لام

والماركسية والسريالية والتروتسكية. ففي طقس أشبه بطقس التعميد تغسل مونا وجه وجسد حسن مفتاح بالبراندي وتلبسه جورب أحمر وتمزج دموعها بدموعه، وفي أحلام حسن مفتاح وكوابيسه تتجلي أسطورة أوزوريس بكل أبعادها الروحية والإنسانية، فهو يرتضي التجزأ ويحلم بالتوحد ولن يعيده إلى «الكل في واحد» غير الحب. والحب مرادف للموت والخلاص في حياة حسن مفتاح، والحب لا مكان له في قلب سكرتير عام الحزب الشيوعي، لأن الشعب وحده فقط هو الجدير بالحب، وعندما يهتز حسن مفتاح أمام مونا فهو مرتد للفردية المطلقة، وهو عذاب لا يحتمله حسن مفتاح ولا يقوى على مقاومته، إنها المأساة تنشب أظفارها في قلب ومشاعر البطل التراجيدي ولن يعيده إلى سيرته الأولى غير الحب المطلق، إنها مونا الأم والحبيبة أول المصدقات وآخرهن، أمامها وحدها يركع حسن مفتاح الذي لا يعرف الخوف، وعلى ركبتيها يزرف الدموع وفوق شفتيها يعرف الموت، إنها تفهم سره ولا تعرفه!

إن حسن مفتاح هو تجسيد لثقافة عصر بأكمله، وهو خليط هادر من أفكار ورؤى وفلسفات عصره، وما كان لها أن

تجتمع متعارضة ومتصادمة وملتفة ومشـ تبكة إلا فـ ي روح وجسد سكرتير الحزب الشيوعي: المثقف الضائع والمتصدع أبدًا، المحشو بالرماد والملح، هو منا وفينا لحن مر وقصـ يدة مرتدة وموجة ثكلتها الشواطئ، إنه كالممالك والثـ روات لـ ـه تاريخ، وفي الوقت نفسه يجاهد أن يكون إنسانًا وظل عنقـ اء شاردة لا يعرف لروحه جسدًا ولا يعرف لجسده روحًا!

لقد برع لويس في هتك أقنعة حسن مفتـ اح كمـ ا نـ رى الحقيقة عارية، تلك الحقيقة التي تأخرت عشرين عامًا بتعبير توفيق الحكيم، والتي لو أطلت برأسها من شرفة حسن مفتاح المظلمة لأضاءت تاريخ الرواية العربية بحق.

صلاح جاهين

صلاح جاهين..
عاش الهزيمة قبل وقوعها في ١٩٦٧

وأنا اللي مليان بالجروح

مقدرش أقول

مقدرش أبوح

والسهم يسكن قلبي مقدرش أنزعه

هكذا عاش صلاح جاهين جريحًا خائفًا ثائرًا معتذرًا ع ن خيانة الحلم.

عاش «يعجن أسطورته من همه اليومي، ولا يتوقف عنه إلا لينكسر، يوزع نفسه في نفوس كثيرة وينتشر في كل ف ن ليعثر على الشعر في اللا شعر» كما يصفه الشاعر محم ود درويش.

رسامًا يمد خطوطه على سطح الوجع، فتشتعل الأعصاب وتنشأ المعارك!

حائرًا «ولما يجيء النور وأشوف الدروب أحتار زي ادة أيهم أسلكه»

تائهًا (إيه اللي وصلني هنا أنا صاحب البيت ولا ضيف»

رافضًا «اقلع غماك يا تور وارفض تلف»

ثائرًا «..ولآخر مدى. ثوّار ثوّار».

خائفًا «ولكن خوفي مني أنا»

متمردًا «الطير ماهوش ملزوم بالزقزقة».

عاشقًا لحريته حتى لو كانت في الجحيم «أوصيك يا ربي لما أموت والنبي متودنيش الجنة للجنة سور».

يائسًا «لا شفت فرق ما بين جبال أو بحـ ـور. ولا شـ ـفت فرق ما بين عذاب أو هنا»

فيلسوفًا «ما حد يقدر يبقى على كل شيء مع أن – عجبي – كل شيء موجود»

شاعرًا منتميًا «وأنا شعري بيصور كفاح أمـ ـة العـ ـرب. عشان الجمال والحب والإنسان».

إنه صلاح جاهين.. الشاعر.. الفنان.

ولد في عام ١٩٣٠، ونشأ في بيت ينتمي إلـ ـى الحـ ـزب الوطني، وكان أول ما وقعت عليه عيناه صور محمد فريـ ـد ومصطفى كامل.. وبين أب يعمل فـ ـي سـ ـلك القضـ ـاء وأم

متعلمة ومثقفة.. وجد يعمل بالصحافة هو الراحل أحمد حلمي (سمي باسمه الميدان الشهير بالقاهرة).. تربى وكبر صـ ـلاح جاهين.

وفي عام ١٩٤٦ – كان عمره ستة عشر عامً ا – تف تح وجدانه على أحداث ضخمة حيث «وقفت البلاد على حاف ة الثورة» – كما يقول د. لويس عوض.

ففي ذلك العام تشكلت اللجن ة الوطني ة العلي ا للعم ال والطلبة، وضـ مت بـ ين صـ فوفها الشـ يوعيين والوفـ ديين والوطنيين الديمقراطيين في مواجهة حكومة صدقي ومشروع معاهدته «صـ دقي – بـ يفن» وانتهـ ت بسـ قوط الحكومـ ة والمشروع معًا. وعرف أعضاؤها الطريق إلـ ى السـ جون والمعتقلات.

في تلك الفترة، اختمر وجدان صلاح جاهين الوطني، ولم يكن صعبًا عليه أن يلتقي بهؤلاء الشباب الذين شاركوا فـ ي أحداث هـ ذا العـ ام. ماركسـ يين واشـ تراكيين وثـ وريين ديمقراطيين.

وفي تلك السنوات، تعرّف صلاح جاهين على فؤاد حداد – الشاعر الماركسي آنذاك وكان هذا اللقاء تحولاً في حياتـ ه

حيث راح يقرأ معه أشعار المقاومة الفرنسية، وساعده كما يقول صلاح – «على فهم معاني الكلمات».

في الوقت الذي كان فيه الرائد الكبير بورقيبة يواصل عطاءه المتميز – كان صلاح جاهين يبحث عن شكل مختلف لقصيدته – بعد أن أعجبته «طريقة فؤاد حداد الخاصة في نظم العامية» لأنه النظم – يستمد منطقه من نفسه.

لم تكن الصحف والمجلات تنشر بالشعر في تلك الفترة – كما يقول صلاح جاهين – حتى جاءت الفرصة ونشر قصيدة في مجلة «روزاليوسف» عام ١٩٥٢ بعنوان «الشاي باللبن».

ولنقف قليلاً عند هذه القصيدة – البداية – فمنها انطلق صلاح جاهين شاعرًا لأول مرة بعد أن كان رسامًا فقط. ومنها أدرك الناس موهبته الشعرية.

تقول القصيدة:

أربع إيدين على الفطار

أربع شفايف يشربوا الشاي باللبن

ويبوسوا بعض ويحضنوا نور النهار

بين صدرها وصدره.. وبين البسمتين

ويحضنوا الحب اللي جمعهم سوا

على الفطار..

نجد أننا أمام صور شعرية جديدة تمامً ا ف ي خيالها ا. ومفرداتها.. وأوزانها العروضية صورة نش هدها – ونح ن نقرأ – وهي تتحرك وتنطق – فنكاد نسمع رش ف الش اي وصوت القبلات. صورة تختلف كثيرًا عن تلك التي رس مها الشاعر كيتس عندما يناجي صورة عاشقين على قنينة الخمر، يمدان كفيهما متعانقين في سكون:

أيها العاشقان

سوف تظلان – هكذا – متعانقين ومتحابين أبدًا!

وتمضي القصيدة «ويحضنوا الشمس اللي بتهز الس تار. وتخش من بين الخيوط وبعضها مع الهواء لـ لأوده ترس م نفسها على أرض ها. عل ى البس اط الل ي اش تروه م ع الجهاز.**على الغرام اللي اشتروه من غي ر تم ن.. وعل ى القزاز»**

لنتأمل هذه المفردات – الستار – الخي وط – الجه از – الأوده –القراز لنعرف أنها نادرة الاستخدام – في ذلك الوقت

– لغرابتها، لكنها عندما تدخل في نسيج الصـ ورة الشـ عرية تتبدد هذه الغرابة، ونشعر أنها ضرورية لاكتمـ ال الصـ ورة فنحن نحسن باهتزاز الستائر عندما يلمسها الهواء. ونبـ تهج عندما ترسم الشمس نفسها على بساط الغرفة وزجاجها فيتولد فينا ذلك الحنين العذب لأن نكون هذا العاشق أو تلك العاشقة

بهذه البداية القوية.. أخذ صلاح جاهين طريقه إلى عـ الم الشعر؛ حيث راح يصوّر حياة العمال وشقاءهم «دموع وراء البرقع» و «الزباين» و «أوضاع الفلاحين» وعيدان نحيلـ ة جدرها بيآكل في طين».

في تلك الفترة كان صلاح جاهين ينتمي للأفكار اليسارية إلا أنه لم يكن ماركسيًا كان تقدميًا بحسه الإنساني الخالص.

ورغم المباشرة التي اتسمت بها قصائد وأشعار صلاح في تلك الفترة إلا أن نزعات التجديد ظلت متقـ دة فـ ي صـ وره ومفرداته.

ففي قصيدة «ناصية الشـ ارع» يقـ ول: «**بالأسـ برين.. والسكاكين وبالمسدس مقتولين على أعمـ دة كـ ل الجرايـ د مصلوبين.. شباب صغار**» ثم تمضي القصيدة على هذا النحو الصادم «**ع المشرحة إنسان نحيف. بشنب خفيـ ف أصـ فر**

لطيف» لنكتشف أننا أمام رسام يصور الأشياء بدقة: «**خدوده من قيمة يومين مش محلوقين.. صوابعه من شرب السجائر محروقين**».

رسام يستخدم الألوان والظلال: «لابس قميص مربع ات وبنطلون وفي رجله صندل من زمان ملهش لون». وعند ما ينتهي من رسم صورته بكافة تفاصيلها ينطقها شعرًا فلا ندري إن كنا نقرأ.. أم نرى الصور في حركتها وانعتاقها!

جمع صلاح هذه القصائد في ديوانه الأول «كلمة سلام» عام ١٩٥٥ معلنًا انحيازه «للشقيانين والعرقانين».. ومبشرًا فيه بالغد المشرق «بكره أجمل من النهارده». وسرعان ما تتوالى الأحداث وتقع معارك القنال عام ١٩٥٦. فيطلق موال الجميل «موال عشان القنال» يحكي فيه قصة مقاومة الشعب المصري وبطولاته عبر التاريخ.. مؤكدًا ولاءه للزعيم جمال عبد الناصر لتبدأ مرحلة جديدة في حياته وشعره.

آمن صلاح جاهين بثورة يوليو إيمانًا صادقًا واندمج فيها إلى أن أصبح شاعرها ومغنيها... فراح يصوغ شعاراتها في قصائد وأغان «إحنا الشعب – والله زمان يا سلاحي –ح نحارب – احكم يا شعب».

وعندما تعلو شعارات الوحدة الوطنية، يحتضنها صـ ـلاح ويكتب «راية العرب و «الوحدة».. ويغني لكـ ـل الشـ ـعوب العربية.

«فيه لسه ركن فـ قلبي عاوز يبتسم.. أرض الجزائر لسه تحت الاحتلال»

كما يغني لفلسطين «**دلوقتي فـ ـي البسـ ـاتين أوان عطـ ـر الزهور.. لهفي عليه وهناك مفيش مين يعشقه**».

ويبلغ توحد صلاح جاهين بشخصية عبد الناصر مـ ـداه.. حيث يلتقط كلماته وشعاراته ليصنع منها أناشيده، ويفاجئنـ ـا بكلمات ومفردات غريبة على الشعر «التصـ ـنيع التقيـ ـل – المسئولية – الميثاق – الاتحاد الاشتراكي العربـ ـي– حريـ ـة اشتراكية وحدة – اللجنة الأساسية». تمامًا مثلما كان يفعـ ـل الشاعر السوفيتي الكبير مايا كوفسكي فـ ـي بدايـ ـة الثـ ـورة الاشتراكية.. لكنه سرعان ما تراجع عن هذا الاتجاه الشعري وانتحر في بداية الثلاثينيات!

وما أشبه البداية والنهاية.. فقد ظل ضمير صلاح جاهين يؤرقه على هذه القصائد.. رغم دفئها وصدقها وعـ ـذوبتها.. لأنه بإحساسه المرهف كان يستشـ ـعر الكارثـ ـة وراء هـ ـذا

الصخب الدعائي الفج – ويود لو يعبر عنه. ففي عام ١٩٦٢– ذروة المد الناصري – يكتب صلاح قصيدته الحزينة "شوف قد إيه" يتمنى فيها لو يبوح بسره «**يا بخت مين يقدر يقول.. واللي في ضميره يطلعه.. يا بخت مين يقدر يفضفض بالكلام.. وكل واحد يسمعه.. يقف فوسط الناس ويصرخ: آه يا ناس.. ولا ملام**»

ويستبد الحزن بأعماقه.. فها هي الثورة التي يعانقها تسجن أصدقاءه الشيوعيين، وتعذبهم حتى القتل، وتلقى بهم في غياهب الصحراء، دون جريرة سوى الحلم بعد مشرق، وعشق لا حدود له لتراب هذا الوطن، ويزداد تمزقه، فيكتب لهم معتذرًا.. لاعنًا الصمت والخوف: «ملعون في كل كتاب يا داء السكوت.. ملعون في كل كتاب يا داء الخرس».

ثم يخاطبهم في سجنهم «**اللي بلا لبلاب.. ولا ياسمين**».

«**يا قلبي يا مليان.. قول للي في البيت الصفيح.. افتحوا.. صاحبكم الغايب رجع.. صحصحوا.. صاحبكم أتلطم كتير. اصفحوا**».

ويعلو نشيج الندم.. وتجهش الكلمات بالدموع والفجيعة: **«لكني بحلف لكم. وبا أقول الدنيا كدب في كدب وانتوا بصحيح»**

لقد استيقظ الشاعر إذن – ولم يعد أمامه سوى التمرد.. لكن كيف ذلك وماضيه يشده ويوثق وثاقه، كيف ذلك وقد صدقه الناس وأصبحت كلماته وعاء للحلم، وأفئدة للغد القادم لا محالة، فيتسع الجرح، وتشتد المحنة، فلجأ إلى الكتابة السرية.. معبرًا فيها عن سخطه وغضبه واحتقاره لكل شيء.

ففي قصيدة «الجرايد». وهي قصيدة لم تنشر قط – يندد فيها صلاح جاهين بكل الصحف الرسمية، ويسخر منها لأنها ليست حرة.. وليست صادقة. ولا تصلح سوى «قراطيس لب».. كما يعلن احتقاره لها وللرقيب الذي يراقبها: **«قول للجرايد.. يا جرايد ورق.. بيبيعوا فيكي اللب ع الأرصفة قول للجرايد يا جرايد كلام.. شكله وحش.. ريحته كريهة وكئيب. مطرح ما لغوص فيه صباح الرقيب. خليكي ساكتة ده انتي حبلة حرام. مالك ومال الحر لما انسجن. الصوت مجلجل بس عاري البدن. قول للجرايد أنه راجع قريب»**.

وفي عام ١٩٦٣ يكتب صلاح جاهين رباعياته الشهيرة. كاشفة عجزه وخوفه وخبرته وألمه وحزنه.. عاكسه تمزقه وضياعه في صور شعرية جميلة وصافية.. متحسسًا وجهه الحقيقي الذي ضاع منه «**يا مرايتي يا اللي بترسمي ضحكتي، يا هلتري ده وش ولا قناع**» ويمرض الشاعر وتقعده البلوى «**رحت لطبيب وأكتر لقى بلوتي. إن اللي جوه القلب مش ع اللسان**»

وتمضي الرباعيات.. أكثر من مائه رباعية (مائة وإحدى عشرة). كما يقول الناقد فاروق عبد القادر، تمثل كل منها بلورة صغيرة مضيئة، وتنسك معًا لتنتظم عقدًا فريد الحبات كريم الجوهر، بحيث إنك إن فرغت من الطواف بهذا العالم متعدد الألوان والدرجات، طالعك وجه صلاح جاهين ذاته، ووقعت معه في نفس حيرته، بين الكفر والإيمان، بين التشاؤم والتفاؤل، بين السخرية من المصير والخوف من المصير، بين الانغماس في الحس والتسامي بالروح. أنت في قلب بهو من المرايا المسحورة، أينما تلفت فثم وجهك، لكنك لا تراه أبدًا هو هو مرتين متتاليتين».

وفي عام ١٩٦٥، يصدر صلاح جاهين ديوانه الخامس «قصاقيص ورق».

ويعد هذا الديوان من أنضج ما كتب الشاعر من قصائد وأغان. فلم يعد الصمت ممكناً.. ولم يعد يستطيع قلبه تحمل كل هذا الألم.. فيصرخ: «**اتكلموا.. اتكلموا.. اتكلموا.. محلا الكلام.. ما ألزمه، وما أعظمه. وفي البدء كانت كلمة الرب الإله، خلقت حياه، والخلق منها اتعلموا.. فاتكلوا**» وفي الوقت الذي تصخب فيه الألوان والشعارات، وتتربع فيه الدولة الناصرية على مجدها.. ينتابه الفزع على مصير الوطن، ولا يشعر سوى بالليل والضياع «**وكنت ماشي لوحدي في الشارع، معرفش رايح فين لكن ماشي. والليل عليا وع البلد غاشي، ليل إنما ليل أسود الأخلاق.. ليل إنما عملاق.. أسود سواد خناق**».

وفي الوقت الذي «تنعب» فيه (الراديوهات)، تسقط العيون من سمائها، وينطفئ النور: «**قمري لقيته محاق. وعنيا وقعوا م السماع الأرض، والأرض برضه محاق. قهاوي سودة من الهباب والهذر، والراديوهات تنعب نعيب الجنون.. ياليلة من غير قمر.. يا كحل من غير عيون**».

وبالفعل تقع الهزيمة في عام ١٩٦٧، فتكشف الغطاء عن الجرح، غائرًا.. عميقًا ويقع فريسة الاكتئاب اللعين. ويسافر أكثر من مرة للعلاج في الخارج لكن مـ ـا جـ ـدوى العـ ـلاج وأسباب الداء قائمة.

ففي قصيدته إلى الشاعر بابلو نيرودا، يتعجـ ـب صـ ـلاح جاهين من الشرور الإنسانية وقبحها «**فيه لسه ناس ماسكه بندقية.. ومصوباها للأبريـ ـاء للحـ ـب؟ للحلـ ـم؟ للحقيقـ ـة؟ للنقاء**».

تلك هي المأساة.. ولم يعد أمامه سوى الحلم.. والكلمة.. لم يعد" **غير أننا عند افتراق الطريق.. نبض قدامنا.. علـ ـى شمس أحلامنا**".

ويشرع صلاح في كتابة قصيدته التي لم تكتب «**في يـ ـوم من الأيام راح أكتب قصيدة عن السماء عـ ـن وردة، عـ ـن رأس فهد، عن قطتي عن الكمنجة الشديدة، عـ ـن نخلتـ ـين فوق العلالي السعيدة، عن عيش بيتفتت في أوده بعيدة، عن مروحة مـ ـ الورق، عن بنت فايرة من بنـ ـات الـ ـزنـج، عـ ـن السفنـج، عن العنب، عن الهدوم الجديدة، عن حدايات شبرا، عن الشطرنـج، عن كوبري للمشنقة، عن برطمان أقـ ـراص**

منومة، عن مهر واثب من على سور حديد وف بطنه داخله الحديدة، عن طفل بقميص نوم، عن قوس قزح بعد الصلاة في العيد، عن طرطشات البحر أكتب يـ ـوم، ح أكتـ ـب يـ ـوم قصيدة»

ترى هل كتب صلاح جاهين قصيدته التي كان يحلم بها؟

سعدي يوسف

الشاعر سعدي يوسف

أكتب القصيدة من زاوية الحواس فقط.. وليس الإدراك

ما الفائدة؟

سعدي يوسف يكتب منذ ثلاثين عامً ا يج رب، يحتق ر الحكام..

ما فائدة ذلك؟

تذكرت مقطعًا من قصيدته وأنا أعانقه في صالة الفن دق، بشعره الأبيض الكثيف وملامحه المنحوتة.

هذا هو سعدي يوسف إذن.

هادئًا.. مرتبكًا.. وحيدًا.. منتظرًا دائمًا!

قلت له: «لا فائدة» انفجر ضاحكًا:

هل غيرتك السنون، فأصبحت متشائمًا!

أجابني في حيرة: التوحد هو ضرورة فني ة واجتماعي ة للمبدع، لأن المدخل إلى العملية الفنية هو شخص ذاتي.

أحيانًا يمضي المرء في استقبال التوحد إلى مداه الأبعد بحيث تبدو النتائج مختلفة عن اختيار فلسفي معهود أنا لا أري خطرًا هنا. أرى الخطر في وضع عقبات أو كوالج إزاء عملية الاستقبال، لكن من الصعب أن أوافقك على أنني متشائم.

قلت: ليس لنا أن ننادي كارل ماركس: يا أول الهيبيين.. ماذا يعني ذلك؟

آه.. أنت تتذكر قصائدي. نعم قلت ذلك يا أخي لقد حيرنا هؤلاء المعادون.. لقد تركوا كتاب كارل ماركس وحاسبوه على أخطاء لم يرتكبها. لقد دعا كارل ماركس في ديوان «رأس المال» إلى تحرير الروح الإنسانية من الاغتراب، أليس هذا ما كتبه كارل ماركس لتسقط إذن عشرات الأنظمة الفاسدة.. ماذا يضير ماركس في ذلك؟!

ثلاثون عامًا من الحنين

كان سعدي ينظر في اتجاه النيل، ويتساءل: هل تصدق أنني لم أر النيل منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. يا للحنين؟!

قلت: من أين تأتي القصيدة إذن يا سعدي؟!

أنا أضع أمامي اشتراطات كثيرة وصعبة في معظمها.. من ضمن هذه الاشتراطات أنني لا أبدأ القصيدة من زاوية الإدراك. أنا أحاول تمامًا أن أكون دقيقًا في أن تتناولي القصيدة هو من زاوية الحواس فقط، وأشدد على حاسة البصر ثم حاسة السمع.

أحيانًا أطمح إلى استخدام حاسة الشم، وهي شديدة الصعوبة.. كم أحلم بقصيدة أستطيع فيها أن أشم ما أكتبه!!

قلت لسعدي: ليت النساء الحزينات حول الضريح يودعنني قبل أن أدخل السجن.

أنت لا تحب المرأة يا سعدي.. أليس كذلك؟

كان يضحك وأنا أردد أشعاره ويصيح: ربما أرادني استخدم المرأة استخدامًا مغرضًا (باعتبارها موديل)!

إنها علاقة مربكة ومرتبكة في آن.. هي حاضرة في قصائدي.. وأنا وحيد معها، لكن عزائي أن المبدع حين يكون وحيدًا.. يكون جديدًا!

قلت: العراقيون لا يرون في تجربة الشعر المصرية ما تستحقه من تقدير.. فهل أنت عراقي على هذا النحو؟

لا يزال سعدي يضحك..

يا أخي الشخصية العراقية انعزالية بطبعها!

فالتفاعل الثقافي العربي لم يكن عميقًا في العراق، رغ م دعاوى الخطاب السياسي!

ربما كان ذلك سببًا في قلة الاهتمام بمسيرة الشعر الجديد ليس في مصر فقط بل حتى في لبنان وسوريا!

لكنني أرى غير ذلك.

فأنا لا أستطيع تجاهل النفوذ العميق لصلاح عبد الصبور.

إن فضيلة صلاح أنه أعطى مثلاً لكيفية أن يتطور شاعر تطورًا بطيئًا لكنه صاعد باس تمرار. فب ين ديوان ه الأول «الناس في بلادي» وبين «شجر الليل» فترة جديرة بالمتابعة حتى يمكن أن نتلمس كيف توصل صلاح عبد الصبور إل ى التغلب على عقبات كثيرة والوصول في «شجر الليل» تحديدًا إلى ما أعتبره أنا شعرًا صافيًا.

أمل دنقل لم يقطع رحلة صلاح عبد الصبور!

أمل كان إلى جانب أحمد عبد المعطي حجازي، في الأقل من ناحية البيان، ونصاعة اللغة، ثم إن مذ ابع أم ل دنق ل الشعرية لم تكن مصرية خالصة مثل صلاح عبد الصبور.

أما تجربة أحمد عبد المعطي حجازي، فهو الآن يتـ ولى مراجعتها، إنه شاعر يتمتـ ع بحاسـ ة نقديـ ة عاليـ ة حتـ ى لنصوصه!

وأعتقد أن الموهبة الحادة لدى حجازي جعلته يبـ دأ منـ ذ ثلاث سنوات مرحلة جديدة في مسيرته الشعرية.. كم سعدت بديوانه «أشجار الأسمنت» وأعتبره خطـ وة واسـ عة علـ ى طريق المراجعة.

ثم ماذا...؟

إذا كان للنيزك اسمان.

هل تبرق المسألة؟!

آه من هؤلاء المصريين الدافئين.. لننطلق إذن في شوارع القاهرة، فلم يبق غير العناق. هيا بنا.

هيا.

(الأهالي: ١٩٩٩/١/٢٤)

نقوش مسروقة من
جدارية سعدي يوسف

«أيام جئنا نزرع الطرقات فكرنا بأن الليل أقصـ ر مـ ن مقدمة ابن خلدون».

هذا المقطع الجميل كتبه الشاعر العراقي سعدي يوسـ ف، وعندما التقينا في الأسبوع الماضي أسـ معته مقـ اطع مـ ن قصيدته فابتسم وعانقني.

واتفقنا على إجراء حديث صحفي، ولم يكن متحمسًا وأنـ ا أيضًا لم أكن كذلك!

وقبل أربع سنوات أجريت حديثًا مع سعدي ونشرته فـ ي «الأهالي».. وغضب سعدي فلم أنشر كل ما قاله على مدى أكثر من خمس ساعات، كنت مشغولاً بملامح وجهه وشعره الفضي الكثيف، ورحت أرسم ملامحه ونسيت أن أكتب!

وسعدي من الشعراء القلائل الذين جمعوا بـ ين الحـ زب والقصيدة في فنية نادرة، فقد التزم بالحزب الشيوعي وكتـ ب أجمل القصائد وأرقها، وإذا تعارض الاثنان، ينتصـ ر دائمًـ ا للقصيدة.

وهو يرسم صوره الشعرية قبل أن يكتبها، فهو رسام يعشق الألوان المائية، ويرسم الوجوه، والمناظر الطبيعية.

انظر إلى هذه القصيدة القصيرة وهو يصطاد اللحظة الشعرية:

«ربما كنت طوقت خصرك

ذلك النحيل جهارًا

ونحن إلى لوحة ننتظر

ربما كنت أنت انتظرت

يدي كي تمر على كل تلك القرى

قد تكون أردتك في لحظة

غير أني أقاوم

أعرف أن العزيز من الناس بيني وبينك

لكنني ما مددت يدي وأنا الآن ما زلت في حسرة أنتظر».

وفي السياسة – كما في الحب – يعلو سعدي ويخفض ويثور كالبركان يقول:

«نحن أسلمنا لحانا

مجد آشور، إلى من ليس يعرف كيف ينتفها

نعم: «كم كان اليساريون مبتدئين»!

وعندما يصف الواقع السياسي في العراق وكثافته، يُذهلك بشاعريته.

«قوميون لم يستنطقوا التاريخ إلا في قطار الموت، بعثيون في بحبوحة التعذيب يقتاتون بالمليون ممن قتلوا.

كان الشيوعيين معصوبين مشدوهين وحين تُشدّ مفارز الإعدام تشتد الأغاني.

وسعدي مترجم كبير يتقن أكثر من لغة، ترجم أنشودة هنري ميللر الرائعة «رامبو وزمن القتلة» عن الشاعر الفرنسي الهادر رامبو، كما ترجم قصائد الشاعر اليوناني الكبير ريتسوس بالإضافة إلى عشرات الكتب والدراسات الأدبية.

وهو الآن يعيش في باريس ويقول في قصيدة له: «كل شيء في باريس يدخل حجرته الريح، والموند، والسهروردي».

وقد عاش أكثر من عشرين عامًا منفيًا خارج بلاده بين موسكو وبرلين وقبرص وعدن وبيروت ومراكش، وأخيرًا باريس.

ويعتبر سعدي من الشعراء الساخرين، أو بمعنى آخر من ذوي «الفكاهة الأسيانة» بلغة صلاح عبد الصبور..

يقول سعدي:

«ليس لنا أن ينادي كارل ماركس: يا أول الهيبيين».

وفي قصيدة أخرى يقول:

«حرس سعودي

لماري أنطوانيت

وهي تحرس بيت مال المسلمين»

ويقول عن منفاه:

«بعد أن دُرت في الأرض

عشرين عامًا وعامين

لم تدُر الأرض!

هذي المدائن أمشي إليها

ولم تمش يومًا إليَّ».

وعندما يعتذر «للبلاد التي بين نهرين» يقول:

«مضى زمن كانت

الأرض فيه تدور على نفسها وأتي زمن العاشقين الـ ذين إذا دارت الأرض ماتوا.. أو اجترحوا الرفض

كي يوقفوها».

وسعدي شاعر اللوعة والأحلام المغرورة، والآلام الهائلة، وعندما ينادي بلاده يخلع قلبك، ويوجع ضميرك

«أيها المقبلون على

أرض دارين

إن لنا إخوة

حينما يخطئون نموت

وحين يصيبون نشتم

يا وطني صفقة نتبادل

فيك المواقع

كن مرة حكمًا لا تكن حاكمًا».

هكذا سعدي.. يكويك بدموعه.. ويجلدك بصوت غربته.

والآن أترك سعدي على شاطئ النيل مستسلمًا.

إنه «يبكي طلقة حتى ولو صدئت»!

(الأهالي: ١٠/١١/١٩٩٣)

شادي عبد السلام

شادي عبد السلام

طارت الزهرة في الريح وظلّت عبقًا

ولك الآن في دمنا سجدة، ولنا فيك م ا تمنح ه الش مس لأبنائها، لك ما تبقى في خاصرة هذه الوطن من درع وقوس وحروف وموسيقى تحت بوابة النصر، قلت لي: م ن هذ ا يدخل الغرباء. وفي شارع «الدراسة» قلت لي: هذ ا ع اش عبد الرحمن بن خلدون ول م يكت ب كلم ة واح دة ع ن الأهرامات، كأنه لم يرها! كنت غاضبًا.

نبوءة

في مطعم ليدو، الذي تحبه، كنا نجلس: أذ ت وصـ لاح ومرعي وأنا، وفجأة قلت لنا: سأموت في الثالثة والخمس ين من عمري، وقد كان، وإن كان شادي قد عاش بعد هذا العمر بثلاث سنوات أخرى إضافية.

لا زلت أتذكر هذا المطعم الفريد، لم يك ن ش ادي عب د السلام مجرد مصمم مناظر أو مهندس ديكور أو حتى مخرج سينمائي، لكنه كان مزعجًا مصريًا غريبًا ونادرًا. كان ملكيًا في السياسة! يؤمن بالاستقرار والعم ران ولا تعن ي كلم ة

«الثورة» بالنسبة له سوى «المعرفة». يحتقر الجهل، ويمقت التعصب، ويكره الصوت العالي! مرة واحدة ارتفع صـ وته ونحن في مكتبه، كان يتساءل غاضبًا: ما الذي منحنا إياه هذا المسمى «بعصر النهضة»؟ ربما منحني جهاز الكاسيت لكي أستمع إلى بيتهوفن، لكنه رغم ذلك يبقى أكذوبة كبرى!

ما زال المعلم يتحدث في السياسة: الصهيونية هي امتداد الهكسوس، وهي نتاج التعصب والخرافة، إنها فكرة صـ لعاء لا تنتمي للحضارة ولا تنسب للإنسانية، مجرد فكرة إجرامية!

ولك الآن أن تنام في حقول النعناع، تقول: في المنيا كانت والدتي مريضة، وعندما زرتها أهديتها باقـ ة مـ ن النعنـ اع فابتسمت ونهضت من فراشها.

حـ . وار

على مائدة العشاء يجلـ س المخـ رج الإيطـ الي الكبيـ ر زيفاريللي وبجواره شادي عبد السلام – أي كتاب عن مصر دفعك إلى زيارتها وإخراج فيلم عن ملوكها ياسير زيفاريللي؟

- ليس هناك كتاب محدد لكنها بعض قراءات:
- أنت لم تعرفنا إذن. إنني قرأت أكثر من خمسـ ين كتابًا عن إيطاليا ولم أفكر في عمل عن دافنشي!

ع . زف

كانت الظلمة تكسو وجه الأرض وأنت وحدك في معبدك المضيء تخط برديتك:

أقم العدل

ولا تدع الميزان ويهتز

فالأرض التي سكنتها الآلهة سوف

تهجرها السنابل

إذا ما جاع الناس

وارتجف الحق

وسكت الحاكم

سـ ر

- هل أقول لك سرًا؟
- يا ريت
- هل تعلم أنني صممت أول بدلة رق ص مصـ رية لتحية كاريوكا، هذه السمراء الجميلة أحـ س فيهـ ا بأصالة تمتد إلى قرون الماضي وزهوه.

حـ . زن

بعد رحلة إلى اليابان يقول المعلم: أزعجتني البنايات الأمريكية الطراز.. إنها خيانة للمعمار الياباني القديم، كم سوف يحزن كيراساوا على هذا القبح!

لقـ . اء

في حضرة شيخ البنائين حسن فتحي يدور الحوار:

- نعم قرأت بحثك.. «القاهرة مخالفة كبرى» وأحسست أنها بالفعل مخالفة كبرى، ويسأله حسن فتحي ضاحكًا: من أين أتيت بهذه الترجمة لعنوان البحث؟

أليس هذا ما تقصده؟ لقد فكرت في ترجمته لكني لم أشرع في ذلك فيكره الناس بيوتهم.. فهل أصبحنا بهذا القبح وهذا التشوه.

إنني خائف على مستقبل هؤلاء الذين يسكنون العشش والزنازين الحجرية المسماة بالعمارات الحديثة.

يصمت حسن فتحي، ويطرق في حزن: وماذا عن فيلمك يا شادي؟

- جاءني عرض تمويل فرنسي وآخر جزائري، أما المأساة فقد فوجئت بعرض إسرائيلي؟
- وماذا فعلت؟
- لا شيء.. رفضتهم جميعًا! كل بلاد الدنيا عرضت تمويل «إخناتون» إلا مصر.

حاشية

كان شادي يرى أن الحضارات تـ دور ولا تنتهـ ي، وأن الانقطاع لا يعني القطيعة مع الماضي. وكان يرى أن فجـ ر الضمير الذي اندلع من هذه الأرض تغشاه الآن سحابة سوف ترحل ذات صحوة، وكان يرى أن الحضارة الغربية قـ دمت «التقنية» ولم تقدم الفكر الإنساني بمعناه كان يرى أن «الفكر الإنساني» ينهض على دعامتين «العدل» و «التسامح» وقـ د خلا الفكر الأوروبي من هاتين الدعامتين، مصر وحدها هي مهد هذا الفكر وتربته، انظر إلى هؤلاء الملـ وك وتمـ اثيلهم وكنوزهم الجميلة. أي فكر عملاق وراء هذا الجمال النافـ ذ، وكان يحلم ببعث الحضارة المصرية القديمة، ووصـ ل مـ ا انقطع بينهما وبين الأجيال الحالية. لذلك كتب فـ وق أفلامـ ه

التسجيلية «أفلام تعليمية» فهو يريد أن يتعلم الناس ما عرفه آباؤهم.

موسيقى

في حجرة مكتبه ذات الضوء الخافت، يصمت الجميع لنستمع إلى تسجيل «الحضرة الدندراوية».. حلقة ذكر لمدة ساعتين تعتمد على «الصقفة» والهمهمة. إيقاعات غريبة ومتفردة... وكان المعلم قد سمعها في قرية دندرة، بمحافظة قنا أثناء تصوير «الحصن» عن معبد «إدفو» الرهيب.

يقول المعلم: تأملوا هذا الهارموني البديع وتعالوا نقارن بينه وبين موسيقى فاجنر الهادرة في «بارسيفال»، لقد جاء التوزيع الموسيقي في «الحضرة» عفويًا ومقنعًا في أن بينما يختلف الأمر لدى فاجنر فهذه النبضات الحية التي تنبض بها « الحركة » هي نبضات قلب فاجنر نفسه ما أشبه فاجنر بالديداروية!

دفـ . . ـاع

في حديقة منزل الفنان محيي الدين حسين يدور جدل حول الشخصية المصرية ويتهمها أحد الفنانين الموجـ ودين بـ . . «السلبية» و «الخنوع» منذ عهد الفراعنة!

وينتفض المعلم من هول الاتهام.. من قال لك إن الفراعنة كانوا يعلمون الناس الخنوع؟ إنني أتحدى أن يخاطب رجـ ل من عامة الناس الحاكم كما خاطب المصري الفصيح حاكمه. أتحدى أن يضم تراث أية أمة مثل هذه الصفحات العظيمة..

يقول المصري الفصيح لحاكمه:

انظر

لقد عينوك لكي تكون سدًا

يمنع الناس من الغرق

ولكن....

انظر

انظر

لقد أصبحت البحر الذي يغرق فيه الناس

إن سلة من الفاكهة تفسد قضاتك!

ولا تزال الذاكرة محشوة بالصور والحكايات عن المعلم العظيم شادي عبد السلام، ولا يزال كثير منها غائرًا ولكن طول الجرح يغري بالتناسي.

واعلم أنه: طارت الزهرة في الريح وظلت عبقًا.

(مجلة القاهرة: ٣٧ – فبراير ١٩٩٦)

حسن فتحي

حسن فتحي
فيلسوف العمارة وشاعرها

ومات حسن فتحي.. أحد المصريين العظماء.

رفيق سيد درويش ومحمود مختار وسلامة موسى وط ه حسين ومحمود سعيد وعبد القادر المازني وحس ين ف وزي وغيرهم من رحيق ثورة ١٩١٩، ومفجري الوعي القومي.

عاشق برامز، وعازف الكمان، حيث تتلمذ على يد أستاذه ساندي روزدون عازف الكمان الأول في أوركس ترا فيين ا عندما جاء إلى القاهرة للعلاج في الثلاثينيات!

مؤسس قرية (القرنة) وباريس بالواحات الخارجية، ومنقذ بيوت النوبة الطينية، وصاحب أول ميث اق لتعمي ر العـ الم الثالث من خلال كتابه الفذ «عمارة الفقراء».

ابن الأرستقراطية المصرية الذي أحب الفق راء، وظ ل يعمل ويحلم من أجلهم تسعين عامًا!

هجر حياة القصور، وأقام في درب اللبانة، في بيت بن اه الأمير المملوكي «ملطيلي» منذ ثلاثمائة ع ام م ن القب اب والحجر.

حصل على أرفع الأوسمة والجوائز العالمية، في بيت بناه الأمير المملوكي «ملطيلي» منذ ثلاثمائة عام من القباب والحجر.

حصل على أرفع الأوسمة والجوائز العالمية، وقال عنها «مجرد خيبة فلست في حاجة إلى جوائز، بل أريد أن أعمل في وطني»!

عرضت عليه أنديرا غاندي الجنسية الهندية- كنوع من التكريم – إلا أنه رفض شاكرًا لاعتزازه بمصريته التي لا تقبل شريكًا!

عمارة الفقراء

في عام ١٩٢٥ سوف يرى حسن فتحي أول قرية في حياته بمركز طخا: «رأيت أول قرية، وكان منظرًا بشعًا! وبدأت أفكر في أمر آخر كيف نبني قرى أفضل».

وكان لا بد من التعرف على أسباب هذا البؤس وعلاقته بهذه الحظائر التي يعيش فيها الفلاحون.. لم تكن بيوتًا!

تساءلت: لقد شهد الريف عمارة جميلة في عصور ماضية مثل مدينة رشيد التي احتفظت بطابعها الإسلامي، وقرية نقادة في صعيد مصر التي احترف أهلها صناعة النسيج،

وفي النوبة كان الناس يبنون بيوتهم بأيديهم من الطين، وهو ما نسميه بالنظام التعاوني في البناء! فماذا جرى؟!

جاء محمد علي، وانتزع الأرض من الفلاحين، فأصبحوا أجراء وحدث تغيير هائل (اقتصادي واجتماعي) فذهبت الحرف، ودخلت عمليات البناء في النظام النقدي، ودخلت المواد الصناعية مثل الخرسانة المسلحة وحلت محل الطين والطفلة الحجر. وهكذا لم يعد المالك هو الذي يبني بيته بيديه، ويعاونه أهله، بل أصبح المقاول هو الذي يفعل ذلك، ولم يعد للمستأجر رأي في اختيار شكل وهندسة المنزل.

وبذلك دخل الإسكان في نظام الاستثمار وأصبح سلعة رأسمالية يتم تداولها في الأسواق، ومن هنا بدأ الانهيار والتشويه.

إنهم لا يقيمون بيوتًا، بل علبًا من الأسمنت الساخن!

العمارة شخصية مصر!

وصفه «ريفيور» أستاذ العمارة بجامعة أريزونا قائلاً: «حسن فتحي شاعر العمارة الإنسانية وفيلسوفها».

فالعمارة لدى حسن فتحي ليست مجرد بيوت يعيش فيها الناس.

لكنها – كما يقول في كتابه «عمارة الفقـ راء»:«تجلي ات لثقافة الشعب وخصوصيته فهي مكون من مكونات الشخصية الوطنية، وملمح أساسي من ملامحها».

ويروي حسن فتحي في حديث طويل مع الكاتب الكبيـ ر محمد عودة:

كان المعماري في مصر القديمة أحد أعمـ دة الحضـ ارة والمدنية المصرية، وكانت المعرفة الكاملة لأسـ رار الكـ ون والطبيعة شرطًا لا بد من توافره لكي يصبح مهندسًا يسند إليه تصميم معبد أو قصر.

وبهذه المعرفة الكاملة وصل الثلاثة الكبار من المعماريين القدامى وهم: «أمحوتب معمار زوسر.. سـ نحوت معمـ ار الدير البحري.. امنحتب ابن هابو معمار الأقصر» إلى مرتبة القداسة كحملة أسرار الكون، فمصر ليست خالدة لمجرد بقاء أحجارها وأبنيتها، لكنها خالدة للتراث الحي الذي تحمله هـ ذه الأحجار، وستظل تحمله.

رؤية أم نزوة معمارية!

إن فردًا واحدًا لا يستطيع بناء بيت واحد، لكـ ن عشـ رة أفراد يستطيعون بناء عشرة بيوت.

كان هذا هو شعار حسن فتحي، إنه العودة للنظام التعاوني حيث يشارك صاحب البيت في البناء ويساعد «المعلم» وذلك باستخدام المواد المحلية مثل الطين والطفلة وليس الأسمنت أو الخرسانة.

وبالفعل، اصطحب حسن فتحي عام ١٩٤٣ معلمًا واحدًا و ٤٦ صبيًا وقاموا ببناء قرية القرنة، وهنا تنبه المقاولون للخطر الجديد، فقاموا بإغراق القرية ثلاث مرات، وراحوا يسبون حسن فتحي، ويتهمون أفكاره بأنها «نزوات معمارية» ونجحوا في عرقلة مشروعاته ففر إلى اليونان مهزومًا وأقام بها خمس سنوات، ولم يستطع البقاء أكثر من ذلك فغلبه الحنين وعاد ليكتب كتابه «قصة قريتين»!

منزل عمي سام

في رواية القلعة للأديب الفرنسي أنطوان دي سانت كزوبيري يقول أحد أمراء المغرب: هنا منزل أبي الذي فيه كل خطوة لها معنى.

ويقول حسن فتحي ساخرًا: نحن أدرنا ظهورنا لمنزل أبي هذا، لم يعد منزل أبي، وإنما منزل عمي سام الذي كان كل خطوة وراءها دولار!

فالعمارة الأمريكاني هي النمط السائد الآن، بحيث أصبح البيت غربيًا.. والإنسان غربيًا.

لذلك تركت خطيبتي!

في نهاية العشرينيات يخطب حسن فتحي فتاة مصرية، لكن سرعان ما تفشل الخطوبة بسبب العمارة!

لقد أرادت الفتاة أن تؤسس بيتها على الطراز الأوروبي، لكنه أبى واستنكر!

فقد خشي فتحي أن يشب أولاده في هذه الفوضى المعمارية، لأن البيوت والأثاث تشكل وعي الطفل وشخصيته القومية.

ولعل ذلك الخوف كان وراء عزوفه عن الزواج والإنجاب طيلة حياته، واكتفى بالعيش مع ١٥ قطة.

يقول حسن فتحي: «عندما انقطعنا عن تراثنا حدثت الفوضى، فالإنسان المصري العربي لونه أسمر، وشعره أسود، وعيناه سوداوان.. إلا أن ابنته لون شعرها أصفر وعيناها زرقاوان، فمن أين ذلك؟ إنه التأثر بالبيئات الغريبة والانقطاع عن التقاليد الثقافية والحضارية، لقد فعل الاستعمار

بنا ما لم يفعله في أي بلد آخر، فقد ترك لنا مسخًا مشوهاً من الأفكار وطرائق الحياة.

الموت بالخرسانة!

ولقد مات الأطفال في كوم أمبو عندما تم استخدام الخرسانة المسلحة في البناء، لأن العمارة ليست نابعة من البيئة.

فالأبحاث أكدت أن الحرارة الداخلية في المساكن الخرسانية أعلى بعشرين مرة من الحرارة الخارجية، لذلك كان لا بد من استخدام الحجر أو الطفلة باعتبارها مواد البيئة السائدة، ولا بد في التصميم من مراعاة مسألة الحرارة حتى لا يموت الأطفال.

لو تركوني أعمل!

لماذا يفر المصريون من بيوتهم؟ ولماذا يعانون جميعًا قلقًا عصبيًا في داخلها؟

يجيب حسن فتحي:

لأن هندسة البيت المصري في المدينة لم تبن لمصريين ولم تكن ملائمة حتى تسكن إليها أرواحهم.

انظر إلى هذه الأبنية القبيحة، إنها تشويه معماري وثقافي، وخيانة لتراثنا وحضارتنا المصرية.

آه لو تركنا المقاولون ومهندسو الحظائر والجراجات لنبني قرانا ومدننا المصرية بمواد مصرية خ الص عل ى ط رز مصرية وعصرية خالصة لو تركنا هؤلاء الخونة لنوقظ في أصبع الفلاحين عبقرية البناء المتوارثة.. لو.. لو..

إن أفكاري تفضح خي انتهم ل ذلك ح رص المق اولون والمستوردون تجار الحديد والأسمنت على محاصرتها حت ى لا ترى النور.

وللأسف نجحوا في ذلك.

حسن فتحي:

- **ولد في ٢٣ مارس ١٩٠٠**

تخرج في مدرسة المهندس خانة عام ١٩٢٥

- حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٧
- كتب كتابه «عمارة الفقراء» بالإنجليزية وت رجم إلى ١٣ لغة أجنبية.

- قدّم ثلاثين مشروعًا ولم ينفذ إلا ثلث هذا العدد في أمريكا، والسعودية، والعراق وصعيد مصر.
- نال جائزة «الرئيس» من الأغاخان للعمارة ع ام ١٩٨٠

(الأهالي: ١٩٨٩/١٢/٦)

حسن سليمان

الفنان حسن سليمان

سأقول عنك دائمًا.. إنك لص!

حائط قديم

يقضم الزمن نوافذه بلا أسنان

ألوانه متهدلة

فمن أين تأتي رائحة الحناء؟

على مقربة من هذا الحائط يقف الفنان الشاهق حسن سليمان ممسكًا ريشته، معانقًا قاهرته القديمة.

يقف حسن سليمان على شفا حفرة من التناقض الآثم.

قاهرة السحر في الثلاثينات، وقبح الحاضر وما جرى لقاهرته القديمة.

بين لوحاته بقاعة اكسترا بالزمالك، تطل عليك القاهرة بمآذنها، وعجلاتها الكبيرة، بأسواقها ومناديلها الممزقة.

بأقواسها وبواباتها المقشورة، بمناورها وباحاتها المعتمة، ببلاط أزقتها المسموح، بعطرها ومباخرها ومسابحها المفروطة.

لا تدري من أين يأتي الماضـ ـي، وأي ضـ ـوء يخمـ ـش أصباغه الواهنة؟

وكيف فعل الحاضر فعلته الشنعاء؟

كيف أصبحت القاهرة مدينة بلا فراغ؟

ها هو حسن سليمان يخترق كـ ـابوس الحاضـ ـر ممسـ ـكًا شعلته، مسقطًا حزمة الضوء فعلا يختفي الظل تمامًا.

إنها ليست لعبة الضوء والظل، ليست رقصـ ـة الشـ ـروق والمغيب، ليست هزة الإيقاع ورجع الإيقـ ـاع.. كـ ـلا إنهـ ـا ارتعاشة الفنان بين أكثر من صوت وأكثر من تناقض.

إنها قصيدته القاسية في حركتها وانعتاقهـ ـا مـ ـن أغـ ـلال الوزن واللون والإيقاع.

ريشة عاصية تطوّق النيل وترمي نداءاتها كالشراع.

ريشة ترد العذارى إلى حافـ ـة النهـ ـر والشـ ـمس تشـ ـكو مخالبها، هل تعود المراكب مبتلة، فتحـ ـل ضـ ـفائرها وتنـ ـام البنات الشهيات يحملن أسـ ـرارهن وحسـ ـن سـ ـليمان بـ ـين خاصرتين..

ما الذي تعرفه عنهن أيها الفنان المراهق؟

وكيف أخرج الآن من بين هذه اللوحات لأكتب قصيدتي؟ سوف تتعب كثيرًا أيها الشاعر وأنت تمر بين أقواس الماضي وبوابات الحاضر المقفلة.

سوف يلتهمك الزحام وأنت تبحث عن فراغ يحوطه حسن سليمان بريشته وحنينه القديم، سوف تشم رائحة الكمون من نافذة مجدوعة الألوان والمفاصل، سترى القاهرة القديمة تحت ركام الفوضى ومآقي الزحام.

من أين أتى حسن سليمان بكل هذا الضوء والزقاق معتم، والفوانيس مطفأة، والمآذن غارقة في الظلام!

من أين أتى بهذه الأجساد الراغبة والمرغوبة بسؤال آخر: كيف تمضي بعيدًا وهناك قاهرة أخرى تسكن القلب لا يدلنا عليها سوى حسن سليمان.

أيها القاهري الساحر سأقول عنك دائمًا إنك لص يعرف كيف يسرقنا إلى الحاضر وجهًا لوجه!

(الأهالي ٣٦/١٠/١٩٩٦)

مقابلة على درج اللون

تترنح الألوان فجأة، ليبدأ حسن سليمان رحلته في ضبط الإيقاع.

كان الضوء غائمًا وحسن سليمان معتكر المزاج. يقرأ قصيدة لإليوت ويتحدث كثيرًا عن عدم الانحناء بين يدي المرأة. أعرف أنه يكذب! فهو لا يكف عن الالتفاف والتودد والاقتراب غير المحسوب!

يتحدث كثيرًا عن الحب ثم يغرق في ألوانه ويكف عن الكلام. لقد عرف المرأة ولم يعرف الحب!

عرف الشبق، والشهوة، والرغبة المستبدة، والولع والهوس، والعبث بجسد المرأة حتى الجرح، وظلت روحه خارجة البرواز.

حسن سليمان – ذلك الفنان – الذي لم يتقن درسًا واحدًا في حياته سوى الرسم.

على حافة القرى سوف يمضي وقتًا طويلاً قبل أن يشرع في رسم أهم وأعظم لوحاته:

الحقول، والفلاحون والملاءات السوداء، والحيوانات الجميلة وطلوع الشمس ورقرقة الماء ضربة فرشاة ينتقل بعدها إلى الطبقة المتوسطة: ماكينة الخياطة، والرموش المتآكلة والنظرات الحسية والأجساد الظامئة.

هل يكتفي حسن سليمان بحرائق اللون واشتعال الخطوط فوق السطح واتزان الفراغ في القلب الممتلوء باللوعة والشبق؟

لا.. سوف يكتب حسن سليمان رسائله وبياناته، وسوف يحيل الخطوط والألوان إلى مجنونة، مسئولة، جامحة، حرية محكوم على صاحبها بالانفراط فوق السطح الأبيض.

هل تعذب حسن سليمان حقًا؟

نعم.. فقد داهمته العزلة منذ صباه، وراح يبحث عن وشائج وصلات غير مرئية محسوسة غالبًا – وراح يمد أجنحته إلى أبعد قارئ فيمسك بيده ويقف به شاخصًا أمام الرسم ويعلمه «كيف يقرأ لوحة».

في الضوء الشاحب سوف تطلع زهور حسن سليمان الرمادية، وعند بوابة النصر سينتظر حسن سليمان تحت

مصابيح الحارة المطفأة فالدكاكين مغلقة والنواف ذ مس دودة والضوء قليل والمارة في نهر الحارة متعبون فارون أبدا.

اللص حسن سليمان عرف كيف يدخل إلى عوالم العتم ة ويصافح هؤلاء المتعبين.

لقد تسلل عبر الضوء الشاحب ملفوفً ا ب ألوان غريب ة غامضة (كانت البالتة خالية من الألوان).

ضربة فرشاة موازية يقفز بعدها إل ى البح ر. الموج ة العذراء لم تنجح أبدًا في تضفير شعر أختها في وحشة المساء كما وعدنا الشاعر عبد الوهاب البياتي.

هنا على الساحل غير المغسول سينقض حس ن س ليمان على الموجة البعيدة ويلقي القبض على البح ر تاركً ا رذاذه ويوده ورمله الناعم في جنبات اللوحة.

مرة أخرى يخرج حسن سليمان على الق انون ويم ارس فعلاً من أفعال اللصوصية. إنه يتسلق الموج ويلقي بض فائر تحت البرواز الداكن بخيوط زرقاء اللا ون (ليس ت زرق اء تمامًا) ثم يفضي بآلامه في الساحل الخالي. لقد تعب حس ن ونام على الشاطئ.

في المقهى البارد يجلس حسن سـ ليمان وحيـ دًا مرتـ ديًا إيشاربًا ذهبيًا ويكتب رسالة لامرأة عذبته طويلاً.

يتذكر عشيقة مودلياني وكيف تحملته رغم قسوته وغلظته وقلة أدبه، ويتذكر عشيقان الماضي وروائحهن وذكرياتهم في مرسمه المضيء برسالة واحدة سيكتب حسن سليمان تجربته النادرة «ذلك الجانب الآخر».

يروي فيه قصته مع العناد والتطرف والعصبية والجنود. عواطف مشتعلة وأحاسيس كاوية ومشاعر سوف تستحيل في آخر الليل إلى مشانق، عذاب هائـ ل ولكنـ ه لـ يس العـ ذاب الأخير.

على درج اللون ينتفض حسن سليمان فجـ أة، لقـ د بلـ غ السبعين وفاجأه العمر من يعلم حسن سليمان الحب الآن؟

ومن سوف يكتب له الرسائل في وحدته؟

يرسم الكمثري والأواني الفخاريـ ة والـ ورود الشـ احبة والبحر الذي فر مع العمر ومناظر الغيوم الطبيعية.

نعم هناك وقت، فحسن لا يزال مرتديًا معطفـ ه يحتسـ ي قهوته في السابعة صباحًا، يبدأ العمل في مرسـ مه وحيـ دًا، رافضًا متمردًا غاضبًا ساخطًا.

لن تعرف الدموع طريقها إلى خديه فالبالتة ممتلئ ـة هـ ـذه المرة والحب لا يزال حُلما في الرسائل المترجمة والرسـ ـائل المرتبكة إلى المرأة التي لا ترد. حسن سليمان شـ ـيء منـ ـا وشيء فينا نحسه في ضعفنا وخوفنا ورفضنا، إنـ ـه صـ ـليبنا المعلق غير الملون، وكلامنا الذي لم نقله لحبيباتنا.

إننا نحن جميعًا نحبه ونخشاه، نقترب منه ونبتعـ ـد، نـ ـراه ونتوارى، ولكننا لا نكف أبدًا عن البحث عنه.

حسن سليمان كل عام وأنتم بيننا.

(مجلة أدب ونقد ديسمبر ١٩٩٨)

حجازي

بدون مناسبة.. كلام عن حجازي

قال ديستوفيسكي: «لا يحق لك أن تف رح حت ى تغم ر الأرض بالدموع عمق قدم».

وعلى الرغم من أن فنان الكاريكاتير الكبير «حج ازي» غمر أرض الصحافة بالدموع ضحكة.. ضحكة.. إلا أنه ل م يفرح بعد!

فمن أين يأتي الفرح ودماء مائة ألف عربي – بين عراقي وسعودي ومصري وقطري – «تغمر» الصحراء مقابل دماء ١٤٠ جنديًا فقط من قوات التحالف (هكذا أعلنت المنظم ات الشرعية)!

ومن أين يأتي الفرح وحدائق بابل المعلقة لم تعد ك ذلك، وخنادق المدنيين صارت أهدافًا عسكرية لإع ادة الش رعية الدولية!

بالأمس.. كانت بغداد مرجعية التضامن العربي، وبالاتحاد الرباعي «حزام» الأمن والدفاع المشترك!

اليوم صار العراقيون أعداء الأمة العربية وخارجين على الأسرة الدولية (هكذا أعلن التليفزيون المصري وشبكات الـ «سي. إن. إن)

هل أنت مرتبك أمام هذا «النظام الدولي الجديد»؟

هل أصبح الواقع أكثر سخرية من الكاريكاتير؟

تعال إذن لنكتب مرثية للعظمة – عظمة الماضي المجيد، الذي أصبح مخجلاً في افتتاحيات الصحف الوقورة!

في الماضي.. كنت تمد الخطوط على غير راسد تقامتها لتتلامس وتصبح وردة وأرجوحة وامرأة.

كنت ترسم أحلامًا وخطايا.. ترسم قبلاً وحافلات مزدحمة، وبنات خائفات في زوايا الحدائق العامة، ترسم منا وترسم المسئولين من حولنا يلوكون التصريحات الكاذبة!

كان ذلك في الماضي الجميل.

اليوم.. أصبحت الصحف أكثر قومية مما كانت عليه من قبل – وعلى صفحاتها أصبحت مظاهرات الطلاب المتوحشين الذين أطلقوا النار على رجال الأمن (هكذا قال وزير الداخلية)!

لماذا لا تضحك؟

سأمنحك ديكتاتورًا لكي ترسمه من شاربه وتزيل عنه النياشين بالحبر الشيني.

وسأمنحك استمارة عضوية في الحزب الحاكم لكي تصبح حاكمًا.. لا محكومًا!

وسأمنحك إجازة بدون مرتب لكي تموت جوعًا!

حجازي.. يا صديقي الطيب.. تقول: إننا نعيش أكثر من حزن.. كيف تقول ذلك ومعركة الألف يوم ماضية في تحرير الاقتصاد المصري؟

كيف تلقي بريشتك.. وهناك يقف تشيني يحرس بيت مال المسلمين؟

تقول إنني حائر ومرتبك ولن أرسم ثانية.. لا بأس إذن من أن تعود إلى قريتك سيرًا على الأقدام، وتؤسس شركة لتوظيف الأموال، واحذر الورقة المالية فئة العشرة قروش، فقد ألغاها البنك المركزي، أما أنا فسوف أتحول إلى رسام كاريكاتير، وسأرسمك غارقًا في أوراق البنكنوت، وسأرسم المثقفين في الندوات الفكرية (شهدت القاهرة «٣١٢» ندوة طوال أيام حرب الخليج طبقًا لبيانات منظمة حقوق الإنسان).

أعرف مفكرًا كان يؤيد العراقيين في الصباح ويذهب إلى مركز الإعلام الكويتي في المساء ليلعن العراقيين، وهكذا أصبح ثريًا ومنهجيًا أيضًا!

لماذا لا تبتسم؟

قرأت قصة عن رجل لا يبرح غرفته، وظل يرسم واقعًا مغايرًا لواقعه.. وفي آخر القصة اكتشف أنه رسم واقعًا شبيهًا بواقعه!

ألا تذكرك لوحات فان جوخ بأشعار بودلير.. لقد كتبت مقالاً عن العلاقة بينهما.. وفي ختام المقال اكتشفت عدم وجود أية علاقة!

تقول: وما جدوى المقاومة؟

أقول: لكي يكون استسلامنا كاملاً وقانطًا!

فنحن لا نذهب إلى الله ببراءتنا.. بل نذهب إليه بخطاياها ولوحاتنا.

حجازي.. يا شهيق الألوان. تقول: إن الجرح يشبه الابتسامة، وعمر الحزن أطول من عمر الضحكة.. فماذا نفعل إذا كان للضحك معنى واحد هو ما كتبه ابن منظور في «لسان العرب»!

ويقول أوسكار وايلد: إن الإحساس بالألوان أكثر أهمي ة من الإحساس بالصواب والخطأ في تطور الفرد!

ربما كنت في حاجة إلى حبر آخر، فلنحاول إذن ونرس م «النظام الدولي الجديد» في لوحة:

ها هو شوارزكوف يخلع خوذته ويدس في قلب «النظ ام القديم» رصاصة حية.

أما المحرر بوش فسوف يهبط بطائرت ه عن د الح دود الجديدة، وسوف يصافح الأطف ال العائ دين إل ى ال وطن، ويمنحهم قلادة المسيسيبي!

أما أنت.. فسوف نرسمك جنرالاً دوليًا أيضًا. يحكم ب ين الأطراف الجديدة فيما شجر بينهم مستقبلاً.

أليس ذلك أفضل من شركة توظي ف الأم وال المزم ع تأسيسها.. وحتى يكون لك مكان في النظام الدولي الجديد؟!

(الأهالي: ١٣/٣/١٩٩١)

كعكة لأعشاب العمر

كيف آتيك بوردة – وأنت لست رومانتيكيًا إلى هذا الحد؟

وبأي لون أرسم عينيك الغائرتين، وشعرك الفضي؟

هل أكتب لك برقية؟

أم أكتب ما أعرفه؟

أم أكتب ما أحسه بك؟

عطشًا، وألوانًا مسافرة،

وخصرًا، وارتعاشات

ونقشًا يدفع الغرباء

آنية من الحناء،

مئذنة تعرت

وصبابات، وشالاً

قشرة ثكلي، ونعناعًا

يغالب قبضة فركته.

***

غندرة الصبايا

والتماعات الهوى

أنت مزدحم

بأسواق تفيض بصمتها

كيف أكون واضحًا وليس لي بساطتك، ولغتك المراوغة؟

كيف أخاطبك وأنت واحد.. وعلى وجهي أكثر من وجه وأكثر من قناع تحذير:

احترس – وأنت في حضرة حجازي – أن تكذب أو تستعرض أو تخاتل.. سوف يكشفك.

محاولة ثانية للكتابة

طاقية شبيكة – ومنديل محلاوي – وبنطلون جيوبه للخارج – ومحفظة فارغة – وطبلية ولمبة جاز نمرة خمسة – ونفق – وموظف يعبر الشارع – وطابور جمعية – وبالوعة – وقميص نوم ممزق – وحرامي يمشي على شاطئ النيل – وملاءة لف – ومنديل بأويه.

وحروب في جميع أنحاء العالم: في البوسنة والهرسك – وفي الشيشان – وحدود كوريا – وتيجالي – والصومال – وبوروندي – ولبنان – والعراق – واليمن.

كل ذلك وحجازي يبتسم في حسرة ويقول: «وعهد الله ما أنا فاهم حاجة».

محاولة ثالثة

حجازي مواليد برج الثور، يحـ ـب الكوتشـ ينة، ويعشـ ق الموسيقى العربية، ويستيقظ مبكرًا، ويستقبل أصـ ـدقاءه فـ ي مواعيد محددة، ويرسم للكبار والصـ غار، وإذا حاولـ ت أن تعرف أكثر من ذلك فلن تنجح!

الآن ترسم وشوشات

العاشقين..

عرائس حبلى

وأكواب مبعثرة

بنات لا يخفن الله

أرصفة وتجار

تكايا واستدارات خدود

صناديق نذور

وسريرٌ من نحاس

الآن ترسم وجه

من ناموا على الطرقات

أطفالاً مغضنة

وأحصنة بلا سرج

وأجسادًا تنادي

من تحت ملاءات الرغبة.

لن تجد فنانًا يصطاد المفارقة.

ويمسك بأطراف التناقض كما يفعل حجازي

لا شيء يمر: لا الصحافة، ولا التليفزيون ولا الحكومة، ولا الأحزاب دون أن يرشقها حجازي بريشته، ويقصفها بألوانه وخطوطه.

في مواجهة البسطاء ترق الخطوط وتستحيل إلى غلالة شفافة، لا تراها ولا تلمسها.. فقط تحس بها.

إنه حجازي.. صائد البسمة، وقناص المفارقة.

في الستين تترقرق الألوان، وتزخر حدائق العمر بأطيب الثمار.

في الستين.. لا يبوح الأزرق بحيرته ويظل الأبيض مرتجفًا.

في الستين.. تمثل الألوان حدودًا لوطن تعرفه وتحمل ملامحه، وتخبئه تحت جلدك المحترق..

وطن لك وفيك وبك

وطن لا يسكنه الانتهازيون، ولا التجار، ولا اللصوص، ولا سارقو الفرح.

وطن يضيء لك شمعتك، ويطفئ مصابيح الخونة والقتلة والسفاحين من رعاته.

وطن يزدان بلوحاتك وثباتك ولوعتك.

وطن لك وبك وفيك.

تمنحه العمر والحب واللون والأمل ولا يمنحك شيئًا.

تنتظره ولا ينتظرك.

تعشقه فيهيم بغيرك

وترسم وجهه.. فينكرك

ولكنه يعرفك ولا ينساك.

***

في الستين أيها الكهل العفي

ترسم سقفًا لبلادك

فلا تلمس غير العراء

وتفتح له نافذة

فتفاجئك العتمة

وترسم أعلامًا ووجوهًا

لكي لا ننسي.

فإذا كان «الليث بضعة خراف مهضومة» – كما يقول فيرلين – فقد فعلت نفس الشيء وهضمت كل التواريخ والمدارس الفنية من الفرعونية إلى الهيلينية إلى القبطية إلى الإسلامية.

كل هذه العصور محتشدة في فنك.

أيها الليث العجوز.

كل سنة وأنت طيب.

(الأهالي: ١٩٩٦/٥/٢٢)

سلفادور دالـي

سلفادور دالي في القاهرة:
عدم الرضا الجليل!

ساعات رخوة، وأربطة لها شكل الميادين.

«همل ت» مش غول بأحزان ه السوداء عن سرير «أفروديت»!

وبقايا قصيدة للملك الذي ينام بدون ملابسه الملكية!

في تلك الساعة يطلع الأزرق من جمجمة رمادية، ويطفئ الأحمر آخر ما تبقى من عظام.

معذرة.. فالهذيان لا يليق بجريدة يسارية، لكننا في حضرة «سلفادور دالي» الذي يطل علينا من خلال مائتي لوحة تمنح وجهها للنيل بقاعة إخناتون بالزمالك.

هنا تنفتح «الكوميديا الإلهية» لدانتي لتشعل النار في جوارب الآلهة القديمة والعصاة.

أما «دون كيشوت» الماكر فلا يكف عن محاولة اصطياد المدن الملونة، وكرات الدم الزرقاء، وينسى أن ينام بدون وسادة إضافية لأحلامه.

في القاعة العسراء عقد ذهبي مصـ لوب علـ ى أرضـ ية سوداء، تراقبه «الليدي ماكبث» هي تتسكع على درج اللـ ون وتحلم واقفة!!

الرماد وحـ ده لا ينبغـ ي أن يتمـ ـدد بعيـ دًا عـ ن أقـ دام «أفروديت».

وعاشقات «دالي» عاريات، الثياب والعظـ ام، يتحسـ س أعضاءهن ويبادين آلهة الجنس بصوت مرسوم.

دالي يُخاصم ما يراه ويرفع أحلامه عن جسده.

دالي يلتهم «جالا» وكأنه يمضغ نساء الدنيا كلها، ويعيدهن أدراجًا مغلقة يسميها دالي أثداء!

دالي يعرف الدموع فكيف يرسم الصـ يف دون «جارثيـ ا لوركا»؟

كيف ينهض بباريس التي يحبها من سـ طور «مارسـ يل بروست» اليائسة؟

كيف يدفع بالدم الجنسي في شرايين أوفيليا؟

متعب دالي هذه الليلة، فالأحلام هادئة الصخب، والهلوسة لها إيقاع.

ما أبعد أسبانيا عن براويزها المشتهاة، وما أبعد البحر عن كف «جالا» الخرافي تمضي مراكب أوفيلي ا باحث ة ع ن شواطئ هملت.. هل كان نداء الموت وح ده وراء اهت زاز الستار؟

لو لم تكن هناك نافذة لما نجح شكسبير المخادع في الأمير المعذب إلى هذا المصير!

هكذا رأى، وبكى، ونام.

هكذا جاء دالي ولا يزال يجيء.. فردًا موغلاً في فرديته، ذات تحمل آلام الدنيا ولا معقوليتها. ساعات الرخوة تئن على حوائط من شعاع ورغبة، وعشقه للوثوب والتم رد ص نع طريقًا في عالم اللون، له لون دالي وحركته.

دالي.. ما كان له أن يفعل ما فعل لولا عدم الرضا الجليل من جانبه عن عالمنا المرتجف.

معذرة.. لم أتحدث عن سيريالية دالي، وكيف ح اول أن يرسم ردف لينين بطول ٩ أقدام ولذلك طرده بريت ون م ن جماعته الأثيرة.

ولم نتحدث عن ماكس إرنست وانتحاره على مذبح اللون والماركسية.

معذرة.. نحن لا نستطيع أن نفعل ذلك كله في لوحة واحدة!

(الأهالي ١٩٩٥/٥/٣١)

أروى صالح

الاعتراف الأخير

من الطابق الحادي عشر

أعرف أن الفتيات الوحيدات – وحـ دهن – يقفـ زن مـ ن شرفات الملل.

فماذا دهاك؟

ولماذا جاء الارتطام بالأرض خاليًا من الرومانتيكية؟

هل كان ديستويفسكي مخادعًا عندما صوّر الدناءة علـ ى نحو جميل وعبقري؟

كيف نجح هذا الشيطان الروائي في محو المسـ افة بـ ين القسوة والجمال؟

هل كان عبقريًا فقط؟

ما أعمق الفجوة بين شخصيات ديستويفسكي ورواد مقهى الحرية!

حكاية مُبتسرة

كان المثقف العاشق يجلس في زاوية المقهى بصحبة فتاة تفيض عذوبة وثورية!

تحدث المثقف عن العدل والحرية وعيناه تخترقان البلوزة الشفافة الغالية الثمن.

وكان يدخن في عصبية مفتعلة، كانت تصغي لنداءات الحرية في أعماقها.

كان مشغولاً بإيقاعها في شباكه وحبائله المتقنة الصنع، وكانت مشغولة بتمردها على الشقاء واللا معنى.

وصدقته.. فالحرية أن تتجرد من المسئولية الشخصية القيود الزائفة.

الحرية أن نمضي معًا ونخلع التقاليد المتزمتة والأعراف المصنوعة، أن تخلع كل شيء وأي شيء.

ووقعت الواقعة بعد أن خلعت الفتاة المتمردة كل شيء إلا كلماته الثائرة.

أما المثقف الوغد فقد خلعها هي أيضًا، وراح يبحث في زوايا المقهى عن فتاة مستها روح التمرد ليعاود اللعبة من جديد.

هذا «الكيتش» الملعون يطلق النداءات المقدسة ويخفي رغباته الدنيئة تحت الشعارات والأناشيد الجريحة.

إنه المثقف الذئب الـ ذي لا يعـ رف الحـ ب ولا تؤرقـ ه صرخات الضمير.

صورة

مثله مثل الكائن الذي لا تُحتمل خفته، جريء كنداء، ناعم كجريمة.

كان كتاب «الشياطين» لديستويفسكي مفتوحًا ينـ ام علـ ى وجهه، وكان صلاح جاهين يبحث عن برطمـ ان أقـ راص منومة!

أما الكيتش اليساري الذي تتمثل فيه المقدسات والشعارات والأحلام والنوافذ والدناءات والخيبات وكل أشكال التناقض.. هذا «الكيتش» المدرب على إخفاء مـ ا يريـ د، لا يمـ نح إلا جسده.. أما روحه العالية المركبة فهو لا يمنحهـ ا إلا للمثـ ل العليا، وهتافات الشعب من خلفه!

فلماذا تبكين على أيقونات الماضي، وتمائم التاريخ؟

ألم يخبرك ديستوفسكي عن «شياطينه» وكيـ ف حلمـ وا بالقتل والدم والثورة؟

كانوا عصابة تغتصب الروح وتشيع الرعب والخواء.

من يغنيك النشيد الأمامي الآن؟!

بطاقة

أروى صالح

خصلة من ثياب الوطن

موجة ثكلتها الشواطئ

أغنية تتمدد خارج التوتة

في حشرجات الموسيقى

رفسة في جبين «الكيتش»

أرجوحة بين موت وموت

لؤلؤة عاكستها المرايا

مريلة للطفولة في سلم الأربعين

خنجر يقطع النوم فوق سرير القراصنة المُجرمين

أروى صالح

عار من مروا على لحمها

واستباحوا الندى

مناديلها الآن مشرعةٌ

ستدل عليهم

في الجحور المغطاة

في ظلمة الغرف المقبضة

في فناجين قسوتهم

في تباديل أسمائهم

فوق سطوح الكلام

وتحت الملاءات

تحت صرير المعاجم

في أركولوجيا الأكاذيب

في أنطولوجيا الشعارات

والمدن الميتة

تقاطع

متعبُ أنا يا سيدتي أروى

متعب حتى الطابق الحادي عشر

متعب حتى الاعتراف

متعب حتى الارتداد

متعب حتى الخيانة

متعب حتى «المبتسرون»

متعب حتى العمى.

برقية عزاء من هملت

لو عاد إلينا رجل من الآخرة

وأخبرنا عن معنى الموت وحقيقته

لما صبرنا على ظلم الظالم

وبغي الباغي

واستبداد المستبد

وتباطؤ العدالة

وإساءات العامة

وجرائم «المبتسرون».

نقد ذاتي جدًا

ليس لنا أن نسمى أنفسنا بالاشتراكيين

ليس لنا أن نتحدث عن مساواتية

أو بوابات قصر الشتاء

ليس لنا أن ننادي كارل ماركس:

«يا أول الهيبيين».

هذا ما قاله الشاعر العراقي سعدي يوسف. أما أروى صالح فقد نادت كارل ماركس:

«يا أكبر الحالمين».

كانت تبحث عن حلمها الكبير، وراحت تقفز فوق سلالمه حتى الطابق الحادي عشر، فجاء العناق فاجعًا، ولما تعرف أن ملامسة الحلم لا تعني سوى الارتطام بالأرض!

سيدتي.. ماذا بقى!

بقعة من الدم ليست تجف رغم ارتباك الفصول.

ماذا تبقى؟

قبضة مشهرة في وجوه الشياطين.

ملصق يغطى وجه الفضاء لمعنى الحرية

أروى صالح... إلى اللقاء.

قليل من التواضع

نشرت إحدى الصحف العربية حوارًا مع الأديب السوداني الطيب صالح، وعندما سأله الصحفي عن رأيه في المتغيرات

العالمية والدولية وتجليات العولمة، وملامح النظام العالمي الجديد، ضحك الأديب الكبير طويلاً وقال للصحفي: هل تظن أنني قادر على الإجابة عن كل هذه الأسئلة الكبيرة لمجرد أنني كتبت رواية جيدة؟

هذه الإجابة المتواضعة والجميلة من الطيب صالح تفتح أمامنا موضعًا مثيرًا للمناقشة.

فلو تأملت الحوارات التي تجريها الصحف والمجلات العربية مع الأدباء والشعراء لضحكت طويلاً مثلما ضحك الطيب صالح. فهذا أديب يقول عن نفسه: «أنا لا أكتب الرواية ولكنها تكتبني!».

وهذا شاعر يقول: «إن قصيدتي أوسع من الفضاء، وما الكون إلا جزء منها!».

أما الفنان التشكيلي الحائز على جائزة الدولة، فيقول عن لوحاته: «أنها تصور العالم في أعقد حالاته وأكثر أشكاله تجردًا ورهبة!».

وهكذا وبلا تواضع يتعامل الأدباء والفنانون مع الصحافة، وهكذا أيضًا يقدمون أنفسهم للقراء وللمشاهدين.

تُرى هل نصدقهم في هذه الإجابات الغريبة؟

أم نُعيد النظر في إنتاجهم الأدبي والفني بالجملة؟

إن ثمة عطبًا، إما في الأديب أو في إنتاجه، وإلا فكيف يستقيم أن تكتب الرواية الأديب وليس العكس.

وهذا الشاعر الذي يتضاءل الكون في ركن من قصيدته!

لقد سُئل الشاعر العظيم «ت.س.إليوت» في حديث إذاعي عن قصائده، ومدى تأثيرها. فأجاب بكل تواضع: «أنا لم أكتب سوى ثلاثة أبيات من الشعر طيلة حياتي!».

إنه تواضع الموهبة. وآلام الكبار، وعذاب الفنان الصادق، فهو مؤرق بإبداعه، حائر في مدى شاعريته، قلق، متوتر، خائف، مرتع، لا يثق بشيء حتى بذاته الكبيرة، وعبقريته الفذة.

أما أدباؤنا.. فأين إليوت وأبياته الثلاثة من فضائهم الروائي والشعري؟

(الأهالي: ١٩٩٧/٧/٦)

مكرم عبيد

مكرم عبيد:

أكبر انتحار سياسي في التاريخ

في السياسة– كما في الحب – أولها ليس كآخرها.

هي دورة الورد، وإيقاع الفصول، و «حركة» الدراما!

وهذا ما جرى لواحد من أكثر الشخصيات السياسية في بلادنا بزوغًا ولمعانًا ودرامية!

محام وسليل الأسر الكبيرة في جنوب الوادي والنائب البرلماني المحنك. درس القانون في أرقى جامعات الدنيا، وحفظ القرآن وهو مسيحي الديانة، وانضم لحزب الوفد فأصبح أعجوبة في الوطنية وأطلقوا عليه «ابن سعد»!

هو مكرم عبيد وزير المالية، وسكرتير عام حزب الوفد، وصاحب أكبر انشقاق عرفه الحزب!

في البرلمان سوف يقف كثيرًا وهو وزير ليتحدث عن معاناة الفلاحين وحياتهم البائسة، فيهتز البرلمان، ويفزع كبار الملاك من «الثورة القادمة» التي يحذر منها هذا الثائر الماكر!

وفي ساحات المحاكم تمتلئ القاعات بعشاق مرافعاته وتظل مرافعاته «خالدة» لما تحمله من ذكاء وفطنة وحسن تصرف.

في إحدى الجلسات يتدخل المدعي العمومي أثناء مرافعة مكرم ويقاطعه قائلاً «ولكن التقرير يذكر عكس ما تقول».. فيرد مكرم غاضبًا «اتْلِهِ»!

وتهتز المحكمة، فهذه إهانة للنيابة العامة ولهيئة القضاء ويحتج المدعي.

وبسرعة يقول مكرم: اتْلِهِ أي «اقرأه»، من تلا يتلو، وهكذا يفلت المحامي الذكي من المطب.

وفي جلسة أخرى كان يترافع عن أحد الصحفيين بتهمة الإساءة أو العيب في الذات الملكية، وراح يدافع عن موكله مستشهدًا بالآية الكريمة «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم» وهنا يسأله المستشار رئيس المحكمة «أتؤمن بما تقول؟»

ويجيب مكرم بسرعة غريبة: «بلى» أقول بما تؤمنون به!

والقارئ لسيرة مكرم يعرف أنه كان من عشاق الموسيقى، وفي صالون بيته عزف الفنان محمد عبد الوهاب

على البيانو الخاص بمكرم، ويروي عبد الوهاب في المقـ ـال الوحيد الذي كتبه في حياته عن مكرم عبيد وكيف كان يدفعه إلى التجديد الموسيقي، وكيف ظل عبد الوهاب يسـ ـتفيد مـ ـن ملاحظات مكرم الذكية وثقافته الموسيقية.

ويظل مكرم نجمًا في عالم السياسة، ويحتل مكانة فريـ ـدة في قلوب المصريين حين كان تجسيدًا وطنيًا عبقريًا للوحـ ـدة الوطنية، وبلغت مقولته الفذة «نحن مسلمون وطنًا مسيحيون دينًا» مبلغًا آثرًا في أفئدة المصريين.

وفي أعلى نقطة من هذا المجد يقع شـ ـقاق بـ ـين مكـ ـرم والنحاس، وينتهز خصوم الوفد الفرصة وينفثـ ـون سـ ـمومهم ليبلغ الشقاق مداه ويستحيل «انشقاقًا» فيخرج مكرم ويؤسـ ـس حزب «الكتلة» ويصدر صحيفة وينهال على الوفد وزعيمـ ـه ويدفع في اتجاه النيل من النحـ ـاس ويقـ ـف وراء «الكتـ ـاب الأسود».

ويعقد حلفًا مشبوهًا مع الملك ضد الوفد. وبذلك يكون قـ ـد أقدم على أكبر عملية "انتحار سياسي" فـ ـي تاريخـ ـه، فهـ ـذه النهاية لم تكن أبدًا تتفق مع البدايات الوطنية الواعـ ـدة لهـ ـذا السياسي الفذ.

وهكذا ينتهي مكرم عبيد خصمًا لحزب الشعب وحليفًا لعدو الشعب لتكتمل المأساة ويفقد مكرم كل ما ربحه من حب واعتزاز شعبي بوطنيته.

إنها لعبة السياسة تمامًا كما في الحب أوله ورد وآخره علقم.

(الأهالي ١٢/٧/١٩٩٥)

الجزء الثاني

أمَّاهُم

متى يبُلغُ البُنيان يومًا تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يَهدمُ

بشار بن برد

أمَّا هم..!

يزعمون القطيعة مع الماضي أو القديم، ويدعون أنهم يؤسسون لكتابة جديدة.. فهل هذا صحيح؟!

أبدًا.. فالقطيعة التي يزعمونها لا تعني سوى الجهل بالقديم. أما الكتابة الأخرى أو الجديدة فهي «المسخرة» بعينها!

إن التمرد على الواقع لا يعني نفيه أو تغييبه أو مسخه، فالتمرد غير الفوضى وعندما سُئل سلفادور دالي عن معنى السريالية أجاب: «إنها إتقان فن الرسم أولاً»!

أما هؤلاء فماذا يتقنون؟

وقبل أن نجيب نسأل من هؤلاء الذين نعنيهم؟

إنهم – كما يطلقون على أنفسهم – «فقهاء اللذة» وحراس «الكتابة الشهوانية» وسدنة «الفعل الشعري» و«الجراد» الذي يأكل الأخضر واليابس.

هذه الأصوات الشعرية والقصصية التي تحلو لها الكتابة عن أعضائها الجنسية، وعلاقاتها بالمحارم، وكسر التابو بالعلاقات المثلية.

هؤلاء هم الذين نقصدهم ونجردهم من أية لمسة فن أو إبداع. إنهم استعراضيون، مفتعلون، بلا هم أو قضية.. إنهم إرهابيون أيضًا!

فلو انتقدت إحدى قصائدهم، فأنت ضد الجديد والتجديد والحداثة، بل أنت من حملة الجنازير ومُشعلي النار في الكنائس! (كذا)!

والطريف أنهم يطالبون بـ «الحرية المطلقة» وينكرونها على معارضيهم ومنتقديهم.

يقولون: هذا شعر جديد.

ونقول: معاذ الشعر.. ما هذا شعرًا ولا نثرًا إن هو إلا لغو مبين.

ورغم ذلك فإننا لا ندعو لمصادرتهم أو منعهم من الكتابة والنشر، بل ندعوهم للحوار حول الشعر والفن والإبداع.

ولنبدأ بشاعر دأب على الحديث عن أعضائه الجنسية، وعلاقته بكل أنواع المحارم، وهو الشاعر «أمجد ريان» أو «ماسورة الشعر» كما أطلق عليه الناقد «رجاء النقاش».

يقول أمجد ريان في إحدى قصائده:

صدري رهج

و(.....) كبير

كبير كبير كبير

والقصيدة تسير على هذا المنوال في استعراض أعضائه وأطرافه ومفاصله وبعيدًا عن التأثيم الأخلاقي نسأل.

ما الشعر في هذا؟

إنها مجرد استعراضات فارغة، يلفت بها الشاعر نظرنا، حتى يبدو مثيرًا ومختلفًا فما الجمال في هذه الكتابة؟ وما هي المتعة الحسية التي تثيرها هذه التداعيات المبتورة؟ أي وعي مغاير توقظه هذه التراكيب وهذا الهذيان الفج؟ أية نشوة تحملنا إليها هذه الصور النثرية؟ وأي فضاء تفتحه كتابة الشاعر أمام مشاعرنا وأحاسيسنا؟

ربما يقولون: إنها تعبير عن ذ داءات الجسد وأشـ واق الشاعر وتحرُّقه وظمأه.

ونقول: إن طرائق التعبير يجب أن تبتعد عـ ن الفجاجـ ة والمباشرة والتصريح الفاحش.

فهذا شاعر معاصر هو «مريد البرغوثي» يناجي حبيبتـ ه في قصيدة معاصرة وحداثية أيضًا:

«تعالي وادخلي جسدي

وليس برفق من يتجنب الأشواك

حين يداعب الزهرة

ولكن مثل عاصفة الصنوبر

في الشتاء

أو كتنقُّل النيران في الحطب

تعالى وادخلي جسدي»

إن الفن موارا‌ة والتقاط لزوايا غير مألوفة، وهذا لم يتحقق في قصيدة «أمجد ريان». فهو واحد من فقهاء اللذة، فأية لذة في هذه الصور المباشرة العقيمة؟

وقبل أكثر من ربع قرن سخر شاعرنا الراحل صلاح عبد الصبور من هؤلاء «الفقهاء» قائلاً:

«إنك تغزونا

بلطائف فطنتك الفقهية»

والآن.. لماذا هذا الشعر؟ وما الهدف من ورائه؟

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية والحرب، على م دارس الواقعية في الفنون والآداب مستعرة. ففي ٢٢ أكتوبر ١٩٩٥ نشرت صحيفة «إندبندنت» البريطانية اعترافات ضابط كبير بالمخابرات المركزية الأمريكية يدعي دونالد جيمسون ق ال فيها: إن جهاز المخابرات المركزية الأمريكية دفع ملاي ين الدولارات لتدعيم الفنون التجريدية لمواجهة فنون الواقعي ة الاشتراكية التي سادت طوال الخمسينيات والستينيات، وق ال الضابط الكبير: إن الهدف كان «صـ رف» الفن انين ع ن الاهتمام بـ واقعهم ومشـ كلاتهم، وكـ ان تغيي ب الواق ع و «تجريده» ومسخه من الأهداف الرئيسية لجهاز المخـ ابرات في مواجهة إيقاظ الضمير الاجتماعي.

ولا نتهم زملاءنا وأصدقاءنا لكن فقط ننبه إلى أن تسـ ييد الاتجاهات العديمة في الفنون والإبداع هدف قديم لأعـ دائنا،

فمن غير المعقول أن «ننصرف» عن واقع «ملغم» بالمشكلات والآلام والأمية والجوع والعراء ونذهب للبحث في «فقه اللذة» و «بوح الجسد» و «تفجير اللغة»، وليت هذا يتم بطرائق إبداعية بل على نحو صريح وفج ومباشر.

لقد صدر أخيرًا في بريطانيا كتاب جيد يتناول حياة «جورج أورويل»، أراد كاتبه أن يرد الاعتبار لرواية «مزرعة الحيوانات» بوصفها دفاعًا حقيقيًا وعميقًا عن الاشتراكية، بل كانت نبوءة في حينها لما جرى بعد أكثر من خمسين عامًا من نشرها، لولا الدعاية الغربية التي صورت الرواية على أنها «اتهام» للاشتراكية وإدانة لأهدافها. يقول الكاتب:

«إن الرواية قصدت التنبيه لسياسة الجهل والتطبيق المنحرف، ولهذا تنبه الغرب لأهميتها، فلو كان الاشتراكيون قد تعاملوا مع الرواية بوصفها سلاحًا معهم، وليست حربًا عليهم، لأمكن إنقاذ بعض مما انهار، ولأمكن تجنب دفع ملايين الدولارات من خزانة الشعب الروسي لمواجهة أثر هذه الرواية الرهيبة».

إنها أهمية الأدب ودوره ورسالته ومسئوليته، ولقد كان اليسار في طليعة المدافعين عن الأدب، من أجل الحياة ورفعة الإنسان والتحذير من الانبهار بتقاليع الغرب وما وراءها من أجهزة واستخبارات.

هل هي مصادفة أن يهتم المركز الثقافي الفرنسي بترجمة الروايات التي تتناول علاقات المحارم وعمليات الختان و «الاحتكاك» في الموالد الشعبية حتى إذا قرأت هذه الروايات أحسست أننا أمة من المهووسين بالشعوذة والسحر. هل نحن كذلك؟

وقد كان صلاح عبد الصبور نبيًا في سخريته وتهكمه من هؤلاء الكُتاب والشعراء عندما قال:

«جرذان الشعراء
أقعُوا في صحن المعبد
مثل الدببة
حكُّوا أقفيتهم وتلاغوا
كذباب الحانات
لا يعرف أحدهم من أمر الكلمات

إلا تأتأة، أوثأثأة، أو شأشأة أو فأفأة

أو هسهسة أو ما شابه ذلك

من أصوات

ألقوا ببقايا قيئهمُ العنين

في رحم الحق

في رحم العدل

في رحم الحرية

هذا ما خط مساء الأمس الأول.

وهذا ما كان»

مرة ثانية لسنا ضد هذه الكتابات بالمعنى العام، فهم أحرار فيما يكتبون وينشرون ونحن أحرار في نقد هذه الكتابات، ولا يحق لأحد أن يطالب بمصادرتها أو وضع قيـ ـود عليهـ ـا، أو ابتسارها من أجل أهداف تشريعية فقط، نحاورهم ونختلـ ـف معهم، وهذا هو المعنى الحقيقي للديمقراطية الثقافيـ ـة التـ ـي ننشدها.

شهر الفقد

«أبريل أقسى شهور السنة»

لم أكن أعرف معنى لهذا البيت الغريب الذي كتبه «ت ي. إس. إليوت» في رائعته «الأرض الخراب» إلا بعد رحيل صلاح جاهين.

لقد رحل صلاح في أبريل، وفي الشهر نفسه رحل شادي عبد السلام وجمال حمدان، وبذلك أصبح أبريل هو شهر الفقد وليس الربيع.

كان صلاح شاعرًا «حداثيًا» من طراز نادر، فهو ينسج صوره ويغزل زفراته وآلامه بخيوط من نار ورقة، فالصورة الشعرية عنده لوحة ناطقة بالألوان والأنغام والموسيقى.. يقول صلاح:

«في يوم من الأيام

راح أكتب قصيدة

عن مهر واثب

من على سور حديد

في بطنه داخله الحديدة»

صورة عملاقة تثير الرهبة والفزع والجمـال والأسـى. صورة لا تفارقك بعد أن تقرأها وتظل مشدودًا إليها بمسامير دقها صلاح جاهين في عينيك وقلبك. وعندما يتحـدث عـن اغترابه ووحشته فإنه يلفك بحزنه، ويضمك لجرحه:

«إحنا النهارده إيه

في أيام السنة

شتا ولا صيف

وفين أنا

إيه اللي وصلني هنا

أنا صاحب البيت ولا ضيف».

حزن مُصفى وعذاب مُقطر وروح شـاعرة تـدب فـي أوصالك وأطرافك، وكأنه يعبر عنك وليس عنه، يقرؤك أنت ويغوص في شراييناك أذ ـت. أذ ـت المسـتوحش المطـارد المغترب الخائف.

وإذا أراد لك البهجة فإنك ترقص معـه، وتمـرح معـه، وتقفز في الهواء معه:

«أنا اللي بالأمر المحال اغتوى

شفت القمر نطيت لفوق في الهواء

طلته ما طلتوش إيه أنا يهمني

وليه ما دام بالنشوة قلبي ارتوى».

إنه الشاعر الذي يوقظ فيك كل ما يحسه ويعانيه. الشاعر الذي يجعلك تكف عن الكلام والحركة، فقد فعل ذلـ ـك نيابـ ـة عنك.

لم يكتب صلاح صورة فجة أو مباشرة ولم يلجـ ـأ طـ ـوال شعره إلى لفظة نابية أو جارحة، فهو ثري بمشاعره ولغتـ ـه وتراكيبه وصوره وثقافته.

كان رافضًا، متمردًا شجاعًا، حزينًا، مهزومًا ومنتصـ ـرًا في آن.

وفي أبريل أضع باقة ورد على ضـ ـريحه ولا أضـ ـع أي ديوان شعر من أشعار هؤلاء الطلقاء الداعين للحرية المطلقة وينكرونها علينا إذا قلنا لهم معاذ الفن.. ما هذا شعرا.

(الأهالي: ١٩٩٧/٤/٩)

أنا والإمبراطور العاري

انفجرت فضيحة الحداثة في أوروبا وأمريكا وبلغت حـ دًا غير مسبوق في «الإساءة» إلى الفلسفة والعلـ وم الإنسـ انية والعقل البشري كله!

بدأت الفضيحة عام ١٩٩٦ عندما أرسل الكاتب والأسـ تاذ بجامعة نيويورك «آلان سوكال» مقـ الاً لمجلـ ة «سوشـ يال تكست» الحداثية الشهيرة، والمقال عبارة عن تجميـ ع لعـ دة فقرات غامضة غير مفهومة التقطها «سوكال» من مقـ الات حداثية شهيرة وربطها ببعضها ربطًـ ا «حـ داثيًا» خادعًـ ا، ونشرته المجلة الحداثية بصفته مقالاً مدافعًا عن الحداثة!

وبعد نشر المقال كشف «سوكال» عن اللعبة فـ ي مقـ ال آخر وأرسل به إلى مجلات أوروبا وأمريكا وكانت الكارثة، فقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» في صـ در صـ فحتها الأولى مقال «سوكال» الثاني، وأفردت صـ فحاتها لمقـ الات التأييد من أساتذة وباحثين غير حـ داثيين، حتـ ى أن طالبًـ ا بالجامعة أرسل للصحيفة يقول: إنه أنفق خمس سنوات مـ ن

العمر والمال على دراسة الحداثة، والآن اكتشف أنه أنفقه ا على ثياب إمبراطور تبين أنه عار تمامًا!

وتوالت ردود الأفعال في الأوس اط الأكاديمي ة وغي ر الأكاديمية، وسارع «سوكال» مع صديق له فرنسي ي دعي «جون بريكمونت» وأصدر كتابًا بعنوان «خ داع ثق افي.. إساءات فلاسفة ما بعد الحداثة للعلم» يضم تفاصيل الفضيحة وكشف: «إن أش هر المثقف ين م ن أمث ال «لا ك ان» و «كرستييفا» و «بودريلار» و «دولوز» قد أساءوا بص ورة متكررة للمفاهيم العلمية ولمصطلحاتها: باس تعمال الأفك ار العلمية خارج سياقها تمامًا، دون إعطاء أدنى تبرير لذلك، أو إلقاء اللغة الاصطلاحية المبهمة المتعالية هك ذا ف ي وج ه قرائهم غير المختص ين دون إش ارة لعائ ديتها أو ش رح لمعانيها».

كان الكتابُ لطمة حقيقية دفعت كاتبًا حداثيًا م ن عي ار «دريدا» إلى وصفه ب . «اللا رحمة»

والمعنى الواضح لهذه الفض يحة أن الكتاب ات الحداثي ة المعنى في التعقيد والغموض، لا تنطوي إلا عل ى الخ واء بعينه.

وأن هؤلاء الكتاب لا يحملون همًا حقيقيًا أو معنى حقيقيًا للفن والأدب. لقد هزت الفضيحة أوروبا بأسرها، والمؤسف أن كُتاب الحداثة في بلادنا لم يهتزوا، فقد أنفقنا نحن أبناء الشعب المصري ملايين الجنيهات على مدى أكثر من عشرين عامًا لإصدار مجلات وكتب حداثية مليئة بالإشارات والأسهم والدوائر والحروف الدالة وغير الدالة، وفقه الدلالة وفقه الإشارة وبرزت أسماء نقاد و «حواريين حداثيين» وبلغ الإرهاب مداه، فأنت متهم بالجهل والتقليدية والسطحية، لأنك لا تفهم المعان والاستدلالات الشبقية، ناهيك عن المستويات الشهوانية في النص!

وعندما حاول أستاذ جامعي هو الدكتور «عبد العزيز حمودة» أن يرد مدارس الحداثة وتياراتها إلى أصولها وجذورها في كتابه المهم والواضح «المرايا المحدبة» تصدى الدكتور «جابر عصفور» الناقد الحداثي الكبير، وشهدت الساحة الثقافية في بلادنا معركة غريبة وعجيبة كشفت عن كارثة الترجمة وأثرها في البلبلة والارتباك اللذين صحبا مجمع الكتابات الحداثية، وكأن القضية هي الانتصار

للغموض والتعقيد واللا معني، وليست الانتصار للوضوح والاستقامة الفكرية وسلامة الوجدان!

وكنا نتمنى أن نستفيد نحن معشر القراء غير الحداثيين من معركة «حمودة» و«عصفور» لو لا تدهور مستوى الحوار وتدني لغة الشجار الفكري بينهما. وعلى الرغم من وضوح ومتانة كتاب «د. حمودة».

والسؤال الآن: ماذا يريد هؤلاء الحداثيون الجدد؟

لقد نفضت أوروبا يدها بعد فضيحة «آلان سوكال» من هذا «الضباب» الفكري.

كان يجب على أساتذة الحداثة أن يتطهروا من هذه الفاجعة ولو ببيان يقولون فيه إنهم دأبوا على تضليلنا أكثر من ربع قرن، ويعلنون استقالاتهم من المؤسسات الأكاديمية الرفيعة التي ينتمون إليها.

كنا نود لو فعل «د. جابر عصفور» و «د. صلاح فضل» وغيرهما من مُشعلي حرائق الحداثة في بلادنا، واعتذروا للأجيال.

فمن غير المعقول أن تتولى الإصدارات تلو الإصـ ـدارات بأموال دافعي الضرائب عن هذا اللغو الفارغ، لنكتشف بعـ ـد ذلك أننا أنفقناها على ثياب إمبراطور عارٍ تمامًا!

وكنا نود لو أطل علينا الكاتب الكبير إدوار الخراط مـ ـن شرفته «الحداثية» ويقول لنا في بيان واضح هذه المـ ـرة إن أربعين عامًا من الرطانة والتوليد وتفجير اللغة وتمزيق النمط وتهشيم «التابو» وتفتيت النص وتفكيك المعنى، ليس سـ ـوى ألاعيب وضحك على العقول، واستخفاف بكل ما هو واضح ومستقيم ومحدد.

هل من المعقول أن نفهم «تي.إس. إليـ ـوت» فـ ـي لغتـ ـه الإنجليزية ولا نفهم «الخراط» و «عصفور» و «فضـ ـل» و «أبو ديب» في لغتنا العربية؟!

لقد كان النقد الأدبي فعلاً ممتعًا فـ ـي نصـ ـوص «لـ ـويس عوض» و «غنيمي هلال» و «محمد مندور» و«عبد العزيز الأهواني» و «عبد القادر القط»، فماذا جرى؟!

نقلة حداثية

..... ومازلنا ندور حول الإمبراطور العاري.

فقد تبدت الحداثة في صورها التشكيلية وأخذت أشكالاً وأحجامًا ومجسمات لا صلة لها بالفن، وراح منظّروا الحداثة التشكيلية في فرض هذا التيار «العضلي» بالقوة، فالجوائز باتت حكرًا على الحداثيين، وكذلك المقتنيات والمراكز الثقافية الرفيعة، وأصبحت حياتنا التشكيلية «سركًا» تقفز من براويزه أكياس الزبالة وروبابيكيا المنازل وعلب الصفيح حتى أذلك أصبحت تخاف على ملابسك ووجهك وأنت تشاهد معرضًا تشكيليًا!

أما الشعر فقد استباحه الحداثيون وأصبح مجرد استعراض للأعضاء والإفرازات الجنسية والتطاول على كل ما هو مقدس بدعوى عدم وجود مقدس أصلاً، فما من قصيدة تخلو من هذا السعار الحداثي وما من أبيات لا تنطوي على نباح وقذائف، وإذا اعترضنا – مجرد اعتراض – اتهمونا بالتقليدية والسلفية والإرهاب (كذا!).

فإذا قلنا إننا نفهم شعر «صلاح عبد الصبور» ونتذوق «صلاح جاهين» اتهمونا بوثنية الذائقة، وإذا ذكرنا «المتنبي» وأشعاره فنحن موغلون في التخلف ووحل البداوة!

فما حيلتنا مع هؤلاء الحداثيين؟! في عام ١٩٩٠ أقام فنان تشكيلي كبير دعوى قضائية لأنني نشرت تقريرًا صادرًا عن مؤسسة «لويدز» الشهيرة، رفضت فيه التأمين على مجموعة من اللوحات التجريدية التي رسمها الفنان الكبير، وكان قد باعها لمليونير مصري يعيش في لندن. وجاء في التقرير أن اللوحات لا تستحق التأمين، وأن التأمين على الملاءق والشوك والسكاكين، أهم وأضمن للمؤسسة من التأمين على هذه اللوحات. وخسر الفنان القضية، وانتظرت أن يعتذر على صفحات الجريدة القومية الكبرى التي ينتمي إليها، لكنه لم يفعل، وظل سادرًا كإمبراطور غير عار إلا من الألوان المزركشة التي لا معنى لها.

والهدف من هذه الحكاية أن هؤلاء الحداثيين يعرفون جيدًا ماذا يفعلون وماذا يرسمون وماذا يكتبون. فهذه الممارسات الحداثية تنأي بهم عن معترك الصراع الحقيقي وتدفع بهم إلى أعلى السلم الثقافي في بلادنا المنكوبة، وقبل أربع سنوات نشرت صحيفة «اندبندنت» البريطانية الشهيرة، شهادة لضابط مخابرات أمريكي يدعي «دونالد جيسون» يعترف فيها أن المخابرات المركزية الأمريكية دفعت عن طريقه

ملايين الدولارات لإحدى قاعات العرض التي تعني بالترويج للفن التجريدي، حتى يمكن مواجهة تيار الواقعية الاشتراكية في منتصف الستينيات!

كانت الشهادة صادمة، ولم تستطع المخابرات المركزية تكذيبها. وكان السؤال الذي طرحته الصحيفة: ما هي مصلحة المخابرات المركزية الأمريكية في ترويج الفنون الحداثية غير المفهومة؟ ولماذا الخوف، بل الهلع من الواقعية؟

والإجابة ببساطة إنه الهروب من الضمير الاجتماعي، فالفن الحقيقي يسهم إسهامًا بالغًا في تغيير الواقع والحياة، ومن ثم، لا بد من مواجهته بهذه الأشكال الحداثية الغامضة الغربية الموغلة في الضياع والتجريد.

تصوروا لو تخلى نجيب محفوظ عن واقعيته وتشخيصيته وراح يحدثنا عن سراويل «رامبو» وأعضاء السيد أحمد عبد الجواد الجنسية، لو فعل نجيب محفوظ ذلك لما ظفرنا بما أبدعته موهبته من صروح ومعمار وفن، ولكن غياب الضمير النقدي وظهور جماعات المنتفعين بالحداثة، وإهالة التراب على كل ما هو جميل في حياتنا، هؤلاء وغيرهم من الميليشيات كانوا جميعًا وراء استفحال ظاهرة الحداثة في

بلادنا. لقد نجحت وزارة الثقافة في احتواء رموز الحياة الثقافية وحشرهم في مجالس ولجان الأجهزة الثقافية بحيث لم يعد أحدهم يرى أدنى انفصال بين ما يجري على أرض الواقع وما تطرحه المؤسسة الثقافية من رؤى وأفكار وتخريب ثقافي هائل!

إنها محنة المثقف الذي يعي دوره ويخون رسالته في آن. إنهم يكتبون عن «الورود» اليانعة في حديقة حياتنا المعاصرة، وكان «نيرودا» الشاعر الشيوعي العظيم يقول:

«إذا فتحت النافذة في الصباح ورأيت قتيلاً ورأيت وردة، أليس من المخجل أن أكتب شعرًا في الوردة»!

(جريدة الجيل: ١٩٩٩/١/١٧)

كل منا يقتل من يُحب

الجبان بقُبلة

والشجاعُ بنصل.

أوسكاروايلد

ثلاثة عيدان كبريت لحرق الدم والقلب والقصيدة

في الحب، تتنافر دماؤنا رعشةٌ ورعدةٌ وقصيدة.

وفي الحب، يتمزق الفنـ ـان وتتشـ ـظى ألواذ ـه وحروف ـه ونداءاته الغامضة.

فالمرأة تُريد الفنان كله: رجولته وحريته وكبرياءه، تريـ ـد امتلاكه وانتزاع روحه!

والفنان – ذلك المتوحش الحسي – يـ ـرفض الاستسـ ـلام، ويتمسك بحريته وكبريائه، فكيف ينادي بالحرية وهو فاقدها؟ وما الذي يتبقى له لو خلع كبرياءه وأراق كرامته بين يـ ـدي امرأة؟

إنها لعبة الحب بين الفنان والمرأة، لعبة الحياة والمـ ـوت، البقاء والترك، الضوء والظل.

يقول الفنان: «إذا أردت قطيعة فلتكن الآن».

وتقول المرأة: لقد ضيعتني؟

فالأمان بالنسبة لها هو تخلي الفنان عن التزاماته.

والأمان بالنسبة له هو أن تبقى على تخ وم القصـ يدة أو اللوحة.. إنها الدفء الذي يدب في أوصال الفنان وعروقه.

إنها اللحظة التي يعلن فيها الفنان الحرب على العدم، لكنها لا تفهمه.

هي تريد الثبات والاستقرار في حدود الزمان والمسـ افة، وهو يريد تجاوز الزمان والمسافة هو معها ممزق حائر بين التزامه كفنان ومشاعره كرجل، وهي معه خائفـ ة متـ رددة مسكونة بالشك.

تريد أن تعرف ما وراءه، تريد أن تهتك غموضه علبـ ة وراء علبة حتى تعثر على تلك الفراشة الشاحبة.. إنها روح الفنان.

يا إلهي.. كيف التواصل مع امرأة؟

هكذا يهتف الفنان المبدع حسن سليمان في كتابه الجديد «ذلك الجانب الآخر.. محاولة لفهم الموسيقى الباطنية للشعر والفن» والذي صدر في دمشق في الشهر الماضي.

عاريًا حسن سليمان إلا من الصدق يقطع بنا الرحلة المأهولة بين ما يريده الفنان وما تريده المرأة.

هو ينشد المطلق والمجرد، وهي تسعى للاستقرار النسبي.

وما من تواصل!

إنه يعيش الجحيم مرتين: مرة معها ومرة بدونها!

هي تحبه مجردًا من الفن، وهو يريدها اتحادًا عضويًا ضد القبح والموت والعدم.

إن الحياة الإنسانية لا تحتمل أكثر من «بودلير» واحد بكل تناقضاته وعذابه، لذلك يحسد حسن سليمان «موديلياني» على المرأة التي أحبته.

إنها «جان هيبرون».. تلك المرأة الغربية التعسة التي تحملت إهاناته وخياناته، وبعد رحيله انتحرت وهي حامل في الشهر التاسع.. لم تحتمل الحياة بدون موديلياني رغم الثروة التي كانت تنتظرها.

لم يكن موديلياني رسام العرى.. بل أراد الاتحاد بـ الكون عبر المرأة فجاءت لوحاته عناقًا واحتفالاً بالجسد والروح والقلب.

لم يكتف حسن سليمان بتقديم تجربته الإنسانية بكامل أبعادها، بل قدّم نماذج من الشعر ترجمها بنفسه لإيلوار، ومايكوفسكي، وبريفير، وأوسكار وايلد وغيرهم من شعراء الإنجليز واليونانيين.

ترجمها حتى لا يرفع سماعة التليفون ويضعف أمام المرأة التي تركته وحيدًا في مرسمه.

وراح يصغى لموسيقى الشعر من داخله.

لقد كشف حسن سليمان عن وجود أعمق للقصيدة.. تمامًا كاللوحة.

فالقصيدة لها سطح وملمس وإيقاع ونغم.

فالشاعر هو كقصيدته – تمامًا مثلما رسم «مايتس» تفاحته باللون الأزرق، لقد أرادها كذلك.

إنها تفاحته ولا يجب أن نسأل: لماذا فعل ذلك؟

انظر إلى هذه القصيدة التي كتبها «جاك بريفير» عن باريس في المساء أثناء الاحتلال النازي:

ثلاثة عيدان كبريت، تشتعل في الليل واحدًا فواحدًا:

الأول كي أرى وجهك كاملاً

والثاني كي أرى عينيك

والأخير كي أرى فمك

... والظلمة الكاملة

كي تذكرني وحسب.

كم هو جميل.

أن تكوني بين ذراعي.

لقد أراد الشاعر أن يقول لحبيبته إن ظلام النازية وإطفاء الأنوار لم يمنعه من الحب.

لقد أصبحت الحبيبة رمزًا للوطن، ومعادلاً للوحشية، ومكافئًا للحياة ضد الموت.

والآن.. لماذا صدر هذا الكتاب في دمشق وليس القاهرة؟

ولنُجب بصراحة: لأن هيئة الكتاب المصرية لا تنشر لكبار كتابنا وفنانينا!

ولننظر لإصدارات الهيئة في الآونة الأخيرة.

لقد أصدرت الهيئة أعمال المؤلف الشاب عمـ ـرو الليثـ ـي نجل السيد ممدوح الليثي!

كما أصدرت الأعمال الكاملة للمذيعـ ـة جـ ـيلان حمـ ـزة، والأعمال المتميزة للكاتبة الجزائرية الشابة حبيبـ ـة محمـ ـدي بعنوان «كسور الوجه» على ورق فاخر!

وتسعى الهيئة للتعاقد مع الفنانة رغـ ـدة لنشـ ـر مؤلفاتهـ ـا الشعرية الكاملة، كما صرحت الفنانة للصحف والمجلات!

في الوقت الذي امتنعت فيه الهيئة عن نشر كتـ ـاب عـ ـن حياة «برتراند راسل» الذي ترجمه د. رمسيس عوض، مما اضطره – المترجم – لطبع الكتاب على نفقته الخاصة!

إن رئيس الهيئة مشغول بكتابات أهم وأعمـ ـق للمـ ـذيعين والمذيعات والصحفيين والصحفيات.

فأين كتابات حسن سليمان من رئيس الهيئة ومشاغله؟!

وإلى متى تستمر هذه الفوضى الثقافية على أيـ ـدي هـ ـذه القيادات؟!

أنا لا أحب مصر!

إذا سألت أي ممثلة مما تفعله، أجابتك بطريقة مصطنعة: «لقد فعلت ذلك من أجل مصر»!

فالممثلات المدعيات تحب «مصر» والممثلون السطحيون يحبون «مصر» وعبد الوهاب الحباك أعاد بعض أمواله من الخارج « من أجل مصر» والريان استولى على أموال الناس من أجل «مصر» – كما أكد محاميه العجوز. أما المذيعات فلا ينمن الليل من أجل «مصر»!

وهذا مطرب فاشل يصرِّح بالتليفزيون: «أنا لا مع اليمين ولا مع اليسار، أنا مع مصر».

لم تُبتذل كلمة في حياتنا كما ابتُذلت هذه الكلمة «المقدسة». مصر.

وكأن مصر مجرد شعار استهلاكي يمضغه هؤلاء الأفّاقون، أو كأنها لافتة يرفعونها لستر فضائحهم وسطحيتهم ولصوصيتهم.

فإذا انتقد فنان عربي طريقة عزف إحدى الفرق الموسيقية فاجأتنا نقابة الموسيقيين ببيان يتهم الفنان العربي بالإساءة «لسمعة مصر»!

وإذا انتقد شاعر عربي زميله فاروق جويدة أو فاروق شوشة، أو أي فاروق يكتب الشعر، ثار الشعراء واتهموا الشاعر العربي بـ «التطاول» على مصر!

وإذا كانت مصر هي هؤلاء الممثلات والممثلين، والمذيعات والمذيعين، إذا كانت مصر هي الحباك والريان وغيرهما من اللصوص الذين يرفعون شعار كلمة مصر – وإذا كان هؤلاء الشعراء والمطربون والعازفون هم مصر – فأنا – أيها السادة – لا أحب مصر!

حتى والإعلانات تتغنى بحب مصر مع الصابون والسمنة والبطاطين الساخنة!

إن مصر ليست مجرد مفردة تلوكها الألسن، أو علامة تجارية نلصقها على البضائع والسلع الرخيصة.

لقد فُزعت عندما شاهدت مذيعة التليفزيون وهي تسأل ممثلاً يؤدي دورًا في برنامج «الكاميرا الخفية» عن «البهدلة» التي يلاقيها من الجمهور أثناء عمله، وإذا به يقول لها مبتسمًا:

«كله يهون من أجل مصر»!

بقى ده كلام!!

المتنبي ضاحكًا

كان المتنبي طريفًا في توسلاته، رغم اعتداده بنفسه، وإيمانه العميق بموهبته.

ألم يقل: «واقفًا تحت إخمصيّ الأنام؟».

ورغم ذلك – كان يريد أن يصبح واليًا أو حاكمًا مما اضطره لمدح الأمراء والولاة والحكام.

يقول المتنبي لكافور مصر:

«إذا لم تعطني ضيعة أو ولاية

فجودك يكسوني وشغلك يسلب».

هو يريد أن يكون واليًا أو صاحب ضيعة، ولكن «كافور» لم يعطه ما يريد، فراح يتوسل بطريقةٍ «مبدعة» يحاول فيها التوازن بين طموحاته وكبريائه.

يقول المتنبي لكافور:

« وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أمّلت منه حجاب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي عنها دعوة وخطاب»

ولم يستجب كافور لطريقة المتنبي في طلب الولاية، لأنه يعلم أن الفنان لا يصلح للحكم. فالفنان، يحب ويكره، يميل ويغضب، يثور ويهدأ. أما السياسة فلا قلب لها ولا مشاعر.

وهكذا تعذب المتنبي ولم يحصل على ما يريد، فانقلب على كافور وعلى نفسه، وعلى مصر كلها!

يقول المتنبي في هجاء كافور:

«أريك الرضى لو أخفت النفس خافيًا

وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيًا

تظن ابتساماتي رجاءٌ وغبطةٌ

وما أنا إلا ضاحكٌ من رجائيا»

لقد كان المتنبي يضحك على كافور، ويسخر من أحلامه وأمانيه.

إنها فلسفته الغربية التي ظن أنه قادر على خداع الحاكم واحتوائهم، وظن أنه يستطيع إخفاء ما يريد لكي يحصل عليه، ولكن طبيعته كفنان فضحت أساريره ومراميه.

إنها فلسفته اللعينة التي أودت به فكان ما كان.

والآن. لماذا المتنبي؟

ولماذا أكتب هذه الحكاية الطريفة؟

إذا تأملنا واقعنا الثقافي والفكري من حولنا لعلمنا أننا خسرنا الكثير من النقاد والشعراء والفنانين بسبب هذا الطموح الوظيفي المدمر.

فهذا ناقد كبير اعتلي منصبًا قياديًا في وزارة الثقافة، وراح يكيل المديح للحكام، ويُدبّج الخُطب والمقالات السمجة في وصف «خصالهم»، وهجر النقد الأدبي، وتفرغ لطموحاته الوظيفية.

لقد تحول من مثقف إلى بهلوان يصبغ وجهه، وحنجرته، ومقالاته بكل ألوان الرياء والنفاق.

والمحزن أنه لن ينال شيئًا.

لقد مات المتنبي ولم يصبح واليًا أو أميرًا، ولكن موهبته الكبيرة حفظت لنا أرفع تراث في الشعر العربي.

أما الناقد القيادي فلن يصبح وزيرًا ولن يبقى منه شيء.

(الأهالي: ١٩٩٦/١٢/١١)

أنا والسجون وهواك!

ليس هذا حديثًا مأساويًا، لأنك سوف تضحك بعد عدة سطور!

فالسجن عالم فسيح وليس كل ما يجري في زنازينه قاتمًا وحزينًا، ثمة ما يبعث على الضحك، وعلى مدى عشرين عامًا منذ خروجي والكتابة عن السجن تراودني ولا أستطيع ارتكابها، فالآلام مستيقظة، والجروح لا تزال ممتلئة بالملح، فمن أين تأتي الابتسامة؟ يقول ديستويفسكي:

«لا يحق لك أن تفرح حتى تملأ الأرض بالدموع عمق قدم» لقد رويتها أقدامًا وظلت الدموع عصية متحجرة فأين الضحك الذي وعدتنا به؟!

أيام جئنا نزرع الطرقات فكرنا بأن الليل أقصر من مقدمة ابن خلدون!

كم كان اليساريون مبتدئين هذا بالضبط ما جرى، لقد كانت الأحلام شاهقة والإمكانات مكتوفة، فما حيلتنا؟!

كان ذلك في عام ١٩٧٧، وبالتحديد في ليلة الرابع والعشرين من يناير، حيث «جرني الخفراء من ساقي» وألقوا

بي سنوات طويلة بين معتقل القلعة الرهيب وسجن استئناف القاهرة، وبين ليمان أبو زعبل وسجن القناطر.

سياسيون ومحامون وصحفيون ولصوص وقتلة وهجامون وقوادون وتجار مخدرات ونصابون ومحتالون، بشر عاديون ألقت بهم الحياة في تجارب هائلة ونادرة ومرت بهم أحـ داث أكثر سيريالية وعبثية من أبطال بيكيت ويونسـ كو وجـ يمس جويس، قديسون خرجوا لتوهم من لوحات الجريكو ووجـ وه طالعة من روايات ديستويفسكي ويوسف إدريس.

عندما التقيت بالزعيم الديني شكري مصطفى لأول مـ رة في ردهات سجن القلعة، أذهلتني عيناه القويتان المتحـ ديتان الدامعتان. كنت حذرًا وكان مبتسمًا ابتسـ امة مقلقـ ة تبادلنـ ا التحية وكان يعرف أنني من الشيوعيين المحبوسين انفراديًا. كانت لغته العربية صحيحة وتراثية. وبعد أن ارتحت قلـ يلاً لعينيه النافذتين علمت أنه شاعر ورسـ ام، وعرفـ ت قصـ ة جماعته المسماة «زمنيًا» «التكفير والهجرة» واسمها الأصلي «جماعة المسلمين» كان يرسم أشرعة بلـ ون الـ دم ويكتـ ب شعرًا غريبًا ملتزمًا بالوزن والقافية، ومـ ن بـ ين قصـ ائده الغامضة قصيدة بعنوان «أبتاه» يقول فيها:

«أبتاه أغرقني ظلام الكون وضلت خطوتي

أبتاه أظلمت الطريق وشاخ ت غربت . ي

أبتاه هذا الفجر مخنوق فما هي حيلت . ي».

قصيدة غريبة على رجل ممتلئ باليقين حتى القتل. رجل يقرأ في كتاب الأمير لمكيافيللي ويجتهد في عل م مصـ طلح الحديث، ويكتب «التوسمات» وهي رسالته إل ى جماعت ه: جملة من الاستشهادات والبحث في مهجور الحديث وخل يط من الاستنتاجات المدهشة والأحكام القاطعة.

وأحسست أن شكري مصطفى وعالمه ينتميان إلى الف ن والإبداع والخيال أكثر من انتمائهما لواق ع الحي اة، وك ان طبيعيًا أن يصعد درج المقصلة، وهذا ما جرى.

وتشاء الأحداث أن أكون موجودًا في سـ جن الاسـ تئناف وقت شنقه. وكانت لحظات مخيفة وأنا أسمع فتح المشنقة من تحت قدميه ليتدلى مع أربعة من رفاقه، كنت غاضبًا حزينًا. وبعد انتهاء عملية الإعدام فتحوا الأبـ واب، وأسـ رعنا إل ى غرفة الإعدام، وألقيت نظرة الوداع على وجه ه الغريـ ب، وبكيته في زنزانتي زمنًا.

مضت سطور طويلة ولم أفِ بما وعدت به ابتسامات في ليمان أبى زعبل، وفي القسم السياسي منه أمضيت عامين كاملين بين المجرمين والسياسيين.

وتعرفت على شباب متهم بالنصب، وقضت المحكمة بسجنه سبع سنوات، كان وسيماً محتالاً ظريفًا، يهوى ارتداء بدلة الضباط، وفي كل مرة يقع في أيدي الشرطة، لأن وسيلته لا تتغير، كان يغسل لي ملابسي مقابل بضعة سجائر، وكان يروي لي ما جرى في حياته المثيرة وعن غبائه في عدم تجديد وسائل النصب، وفجأة أصابته حالة من التطهر، وطلب مني كتابة رسالة مني إلى الفنان نور الشريف.

فقد نشأت بينهما صداقة بعد أن صدقه الفنان نور الشريف وصدّق أنه نقيب شرطة، وطلب مني في الرسالة أن أكتب اعترافًا منه بأنه مجرد نصاب، وأنه حزين لذلك وكتبت له الرسالة ولم يرد نور الشريف بالطبع، فكتبت رسالة أخرى وهكذا توالت الرسائل والاعترافات ونور الشريف لا يرد.

والغريب أن صديقي النصاب لم يعتذر لأية ضحية من ضحاياه حتى بينه وبيني، والوحيد الذي أراد أن يتعرى أمامه هو نور الشريف.

والطريف أيضًا أن صديقي النصاب كان رحيمًا بالفنـ ـان نور الشريف فلم يؤذه أو يحتال عليه، بل كان شـ ـهمًا معـ ـه، الأمر الذي عذّبه طويلاً، وكثيرًا ما كان يتمرد عليَّ ويمتنـ ـع عن غسل ملابسي وإعداد المياه الساخنة في الشتاء، فأهـ ـدده بعدم كتابة الرسائل لنور الشريف وهنا ينتابه الفزع ويعـ ـود صاغرًا لغسل الملابس وتسخين المياه!

وفي سجن القناطر أمضيت صيفًا قائظًا «بالتأديب»،هـ ـي زنازين انفرادية تم إعدادها للخارجين على النظـ ـام داخـ ـل السجن، وهناك التقيت بالرجل الثاني فـ ـي جماعـ ـة شـ ـكري مصطفى، محمد عبد السلام المحكوم عليه بالأشغال الشـ ـاقة المؤبدة، والمنشق على الجماعة بعد رحيـ ـل شـ ـكري ممـ ـا عرّض حياته للخطر، فرأت إدارة السجن أن تضعه في مكان آمن، وجاءت به ليعيش بين الشيوعيين.

شاب مقامر تخرّج في كلية الصيدلة جامعة أسيوط، وقبلها انضم للحزب الشيوعي الأردني وسرعان ما خـ ـرج عليـ ـه وانضم لحزب التحرير الإسلامي لمؤسسه الرهيـ ـب «تقـ ـي الدين نبهاني»، واشتغل فترة من حياته في تجارة السـ ـلاح، كان في الثلاثين وقت لقائي به، قلق النظرات، متعب الوجه،

إلا أنه كان على يقين لا يتزحزح بصواب رأيه وسداد اجتهاداته، عاصفة من التطرف حتى في صراعه مع الجماعة، لم يخش على حياته لحظة واحدة.

قرأت معه فصولاً من كتاب «الكامل» للمبرد، وأهداني تفسير الواحدي وأهديته مذكرات شاعر تشيلي الشيوعي العظيم «بابلونيرودا».

وروى لي كيف التقي لأول مرة بشكري مصطفى في جامعة أسيوط عام ١٩٧١، وكان شكري قد خرج لتوه من السجن وذهب ليحصل على بكالوريوس الزراعة، كان محمد عبد السلام يائسًا من كل المنظمات اليسارية والدينية، وكان شكري مهزومًا حزيناً بعد مساجلاته مع المستشار الهضيبي.

فعندما أرسل شكري توسماته للمرشد العام في ليمان طره، رد عليه برسالة بعنوان «دعاة لا قضاة» لقد توسم شكري بأن المجتمع الذي يهلل للحاكم الكافر، إنما هو مجتمع على شيء من الكفر، وجاء رد المرشد العام قاطعًا بأنه لا يجوز تكفير الناس ورجمهم بالباطل، كان شكري قلقًا شديد أنه في ذلك شأن محمد عبد السلام. واجتمع الرجلان وثالثهما

الشاب الصغير ماهر بكري ابن شقيقه شكري، وهكذا اجتمع الثلاثة طبقًا للحديث الشريف، وولّوا من بينهم شكري أميرًا.

الغريب أن شكري لم يكن في نيته إعلان الحرب على المجتمع، بل كان مؤمنًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾

فالهجرة كانت هدف الجماعة وليس القتال أو إعلان الحرب، لكن شاءت الظروف أن تقتال الجماعة «الشيخ الذهبي» على غير إرادة الأمير، فما كان له أن يخالف عقيدة الحرب ويترك الجماعة.

وفي السجن انقسمت الجماعة على نفسها، وخرجت أصوات تنادي بأن شكري لم يمت وأنه سوف يعود مرة ثانية، وتصدى لهم محمد عبد السلام بأن شكري لم يكن نبيًا بل داعية، وحتى الأنبياء يتعرضون للموت والقتال «فريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون».

كان محمد عبد السلام غامضًا بالنسبة لي، كان مسلمًا حريصًا على الصلوات، لكن أحلامه تتجاوز قضبان السجن، وهكذا راح يفكر في الهروب، ويرسم الخط ويدرس الأحوال بصمت وصبر، وأنا أراقبه في حالته الغريبة، حتى غادرته بعد وداع دامع بيننا.

وفي سجن الاستئناف – وهو سجن تراحيل مفتوح الأبواب والحمامات – تعرّفت على الشاويش الجابري، كان بالنسبة لي شخصًا خارقًا! فهو المسئول الأول عن دخول كل الممنوعات السجن: الأموال، والمخدرات، والأقراص المخدرة بأنواعها، وكل شيء.

وفي الصباح يدخل الجابري حاملاً في مكان حساس من جسده ما يسمى بالرفاس، وهو أنبوب معدني يحمل فيه الأموال والمخدرات، وكان الجابري يضع أكثر من رفاس في هذا المكان الحساس ويمشي به مسافات طويلة، وعندما يدخل السجن يهلل له الجميع وينزل الرفاس تلو الرفاس ليبدأ الغسيل وتوزيع الغنائم!

وهناك تعرفت أيضًا على أحد الهجامين الذين احترفوا صناعة «التوتو» وهي علبة من الصفيح تطلع منها لفافات

قطنية ويمتلئ بالزيت ليصبح مصدرًا للوقود، حيث تمنع لائحة السجن استخدام أي مصادر للوقود، وقد اخترعه جاسوس ألماني كان موجودًا في السجن في الخمسينيات.

وعند استخدامه يقف أحد المساجين يراقب الشاويش، فإذا اقترب من الزنزانة صاح: «تاوى.. تاوى.. وهكذا لقب بالتوتو.

ورغم دخول السخانات كمصدر جديد للوقود، إلا أن التوتو ظل محتفظًا بمكانته في سجون مصر العامرة.

أما صديقي رفعت، وهو نشال محترف بمنطقة الجيزة، فكان يتحايل على حياته في السجن والحصول على السجائر مقابل روايته للمساجين عن الأفلام الأجنبية التي يحفظها عن ظهر قلب وهو يجلس بين المساجين ويروي فيلمًا ابتداء من «طبعت الترجمة بمعامل أنيس عبيد» حتى كلمة «إند» إي النهاية.

وكثيرًا ما كان يراجعه المستمعون في بعض المشاهد الجنسية خاصة، فيستفيض وصف القبلات والأحضان، وذات مرة اعتدى عليه أحد المستمعين لأنه يغشهم ويروي لهم نفس

الفيلم بعنوان آخر، ولم ينقذه سوى زميل له عرض عليه أن يحميه من المستمعين مقابل نصف دخله من السجائر.

وهكذا راح رفعت يتحرك بين الزنازين وهو آمن ويروي الفيلم الواحد بألف عنوان وهو ما يعني مزيدًا من السجائر!

عالم غريب وواضح: اللص لص، والنصاب نصاب، والقاتل قاتل، لا أقنعة ولا ماكياج، بل هي الحقيقة بكل قسوتها وعريها.

عام كامل قضيته في سجن القلعة منفردًا في زنزانة رقم ٥، أذكر منه الليلة الأولى، فلم تمر لحظات على إلقائي بأرض الزنزانة حتى غبت في نوم عميق.

ولا أدري كم عدد الساعات التي استغرقتها، وبعد أن استيقظت تذكرت كلمات ناظم حكمت الحزينة – الشاعر التركي الشيوعي الذي قضى أكثر من عشرين عامًا في سجون تركيا – يقول ناظم:

«إن طبيعتنا تتغير حسب مكان إقامتنا

وهنا أحببت النوم

يأتيني كصديق

لم أر نفسي في الحلم سجينًا قط».

والغريب أنني كنت أحفظ هـ ذه الكلمـ ات دون معرفـ ة بمعناها. كنت أرددها دون فهم ودون وعي، حتـ ى تعلمـ ت معناها بين حوائط الزنزانة رقم ٥ فنقشتها بأظافري وفرحت باكتشافاتي الإبداعية.

ويضم سجن القلعة أربعين زنزانة فقط، تحولت بعد ذلـ ك إلى حجرات متحفية، ولم يكن تابعًا لمصلحة السـ جون، بـ ل خاضعًا لإشراف مباحث أمن الدولة وفيه تتم أبشع عمليـ ات التعذيب الجسدي.

ولم أتعذب بالإصابات التي اخترقت جسدي في الشـ هور الأولى.. لكن عملية واحدة لا زلت أذكر تفاصيلها هي التـ ي أوقعتني في هوة الانهيـ ار، كـ ان الشـ تاء قارصًـ ا عنـ دما أخرجوني عاريًا تمامًا معصوب العينين في ردهـ ة السـ جن البادرة، وتركوني واقفًا مرتعدًا انتظر الاعتداء في كل لحظة، ووقع الأقدام من حولي يسرع حينًا ويبطئ أحيانًا، فجأة تجمد الزمن وأحسست أن الأرض تميد من تحتي وأننـ ي أتـ داعى كعامود من الملح ما أن لامس الأرض حتى تناثرت ذراتـ ه. لحظة لم أشعر فيها بشيء، تجمدت أطرافي وتوقف النـ بض

تمامًا، لم يلمسني أحد، ولكن ما جرى كان مروعً ا، وف ي المحكمة رويت للمستشار مصطفى عب د الوه اب رئ يس المحكمة ما جرى، وهناك عرفت لأول مرة أن التعذيب ف ي التشريع المصري مجرد جنح ة ول يس جناي ة، واكتف ى المستشار باعتماد الجروح المثبتة في تقرير الطبيب الشرعي ولم يلتفت لعمليات سحق الروح والبدن التي تتم في معتق ل القلعة.

لذلك قضت المحكمة بتعويضي خمسة آلاف جنيه ع ن أربعة عشرة إصابة بدنية، ورفضت تسلمها، وما زلت مصرًا على أن ما رأيته في شتاء يناير كان هولاً، ولا زلت أط ارد الضباط بالقضايا تلو القضايا حتى أن أحدهم – الض باط – قال لي بالحرف الواحد: «نحن لم نلمسك، لذا نح ن آمن ون أبرياء أمام القانون».

وقد سعدت برسالة ماجستير قدمها وكيل ن ادي القض اة يطلب فيها تعديل التشريعات الخاصة بمعاقبة الضباط الـ ذين يعتدون كل يوم على النزلاء، ويطلب توقيع أقصى العقوب ة على كل من يعبث بالجسد الإنساني وحرمته.

عشرون عامًا قطعت بيني وبين سنوات سجني، رغم ذلك لا تزال هناك فصول موجعة لم يحن أوانها، فالسجن ليس قضبانًا من الحديد، إنه حالة من العجز والإهانة، حالة من الألم الذي لا يهدأ، ويظل الإنسان يحمله وكأنه سنوات إضافية لعمره الحزين.

أما الأكثر إيلامًا، فهو الوقوع في تجربة أكبر منك ومن واقعك ومن ثم جاءت المفارقة. لقد قلت للمستشار مصطفى عبد الوهاب بالحرف الواحد:

«ظننت في نفسي يا سيدي أنني شاعر يستطيع أن يدافع عن قضية شعب حتى جاءت اللحظة التي لم أستطع فيها الدفاع عن كرامة جسدي».

وهنا فقط تكمن المأساة ولا تنتهي.

(جريدة الجيل: ١٩٩٨/١١/٢٢)

ومن عجب الأيام أن اجتنابها

رشاد وأني لا أطيق التجنُّبا

بشار بن برد

شراشيب مُتناثرة من شجرة الميلاد

لم ينته عام ٩٦ تمامًا، فأنا لم أنته بعد من ملاحقة عبد ربه التائه في الحانات، والأطراف الموحشة، والليالي النزقة!

لا يزال عبد ربه التائه يعظ نجيب محفوظ في شرح محنتنا: «إذا خرجنا منها سالمين فهي الرحمة، وإذا خرجنا منها هالكين فهو العدل!».

أي عدل يا شيخنا المطعون؟ أي عدل؟!

تردُّدات

لم ينته العام!

فأنا لم أفرغ من قراءة كتاب شيخنا الجليل محمود شاكر «نمط صعب ونمط مخيف».

وكيف أفرغ منه وأنا معتقل «في خمرته، معصوب» عن غيره؟

كيف أستطيع العيش بين لحيتين: لحية لمحمـ ـود شـ ـاكر، وأخرى لكارل ماركس؟!

صورة

قبل عشرين عامًا

رأيت صلاح عيسى في ساحة ليمان أبي زعبـ ـل مرتـ ـديًا قميصه الصيفي وحاملاً تاريخ بلاده من زنزانة إلى زنزانة.

هكسوس وبطالمة وأتراك ومماليك وغـ ـزاة ومغـ ـامرون وقراصنة من كل لون وأرض، راح صلاح عيسى يطاردهم في آبار التاريخ العميقة، ويروي ما فعلوه بنـ ـا مـ ـن مـ ـذابح ومجازر.

قبل عشرين عامًا كتب صلاح عيسى:

«آه.. يلهون بالسكاكين ولا يدرون أي قلبٍ تصيب»!

وأصيب القلب بطعنات اللهو والمطاردة.

خمسة شرايين حملت كـ ـل هـ ـذه الخيبـ ـات والثـ ـورات والهزائم.

وفي انجلترا – ويالللمفارقة – نبش الإنجليز قلبه كما نبش هو في تاريخ مظالمهم!

لم يعثروا إلا على قبابٍ وأجراس وأسبلة صدئة!

لم يعثروا إلا على أناشيد مبتـ ـورة وذ ـداءات مجروحـ ـة وتواريخ مكذوبة، وأسماء شهداء لم يولدوا بعد.

أيها المقريزي الساذج.. ألم تتعلم في الحزب الشيوعي أن القلب ليس مكاناً لإخفاء الحب؟!!

لوعة

لا يزال عبد ربه التائه هائمًا، وما زلت مقتفيً ـا كلماتـ ـه: «الحاضر ضوء خافت بين ظلمتين».

لقد عاش نجيب محفوظ في قلب الحاضر وضوئه، وعاش المتعصبون في ظلمة الماضي.. فهل سكن الشيوعيون فـ ـي ظلمة المستقبل؟!

كاريكاتير

حجازي الرسام لا يحب شجرة الميلاد، ولا يتعـ ـاطى إلا الحمص والحلاوة السمسمية.

وفي عيد الميلاد تمنيت لو عرفت أيـ ـن يخفـ ـي أسـ ـرار النساء! وكيف يرسم الشعر الأكرت! ولماذا لم يسمح كـ ـلام

أمه قبل ثلاثين عامًا؟! أعرف أنه بلغ الثلاثين أكثر من مرة، ولم يتزحزح عمره عن هذه السن يومًا واحدًا.

وأعرف أنه لا يزال يلط خ ثياب ه ب الألوان والأحب ار والأحداث اليومية.

ولكنني لم أعرف أبدًا أين يخفي نساءه بعيدًا ع ن دفت ر الرسم، وغرفة الموسيقى؟!

سائل لم تصل أبدًا!

في كل صباح يصعد محمد عودة إلى القلعة، ويسأل ع ن رسائل لم تصل من جمال عبد الناص ر وغاند ي وحس ن فتحي.

وعندما لا يعثر على رسائله يلقى بالبيريه والكوفية ف ي مجرى العيون!

وعند الظهر يتسكع بين الحسين والصليبة.

عودة نصف صوفي ونصف علماني، يقرأ في فهرس ت ابن النديم، ويكتب الرسائل لماوتسي تونج!

وفي المساء يستمع إلى أغنيات «إديف بيف» ولا يرى في ذلك خيانة لسيد درويش!

يحب لوحات محمود سعيد، ويكتب عن رمبرانت وجوب ا وسيزان.

يعلق صورة للجنرال «جياب» بطل المقاومة الفيتنامية – ويكتب معتذرًا لأحمد عرابي على ما فعله السفهاء من أبن اء شعبه!

وفي عيد الميلاد أقدم لعودة بيريه وكوفيه جديدتين لك ي يلقى بهما في مجرى العيون احتجاجًا على رسائل لن تص ل أبدًا!

عزاء متأخر

مصطفي طيبة – عبد المنعم القصاص – أسعد حل يم – عبد المنعم شتلة – شهاب سعد، وغيرهم.

شيوعيون مهزومون منسيون ماتوا ه ذا الع ام ت اركين أحلامهم وقيودهم وزنازينهم لمن يأتي بعدهم.

أحبوا وطنًا لم يعرفهم، ورسموا خرائط لمستقبل لم يهدوه، وتمردوا على حاضر ملعون كلما حاولوا تغيي ره، انفتح ت أبواب السجن والمعتقلات لتبتلعهم.

ماتوا ناقصين عمرًا وفرحًا، ولهم أضيء شمعة وأضع باقة ورد على ضريحهم ولا أرتدي ثوب الحداد، لأنهم لم يحبوا اللون الأسود.

العدد السادس

ومن ظلمة الليل

وأغلال الصمت

من رماد النسيان

وارتداد الذاكرة

سوف تبعث من جديد

هذا ما جرى لأنور كامل، مؤسس جماعة «الفن والحرية» وصاحب مجلة «التطور» التي أصدر منها سبعة أعداد فقط من يناير إلى أغسطس ١٩٤٠.

سبعة أعداد حملت أصوات، وأفكار، ورسوم، وقصائد، وترجمات جورج حنين – رمسيس يونان – كامل التلمساني – فؤاد كامل – عبد الحميد الحديدي، وغيرهم من شموع التطور.

وبعد الملاحقة والمطاردة، والسجن، غابت «التطور» في ظلمة الماضي، وبقيت شعلتها خابية!

وجاء شاعر شاب، متمرد، دءوب، راح يبحث عن أعداد التطور، ويبعثها من جديد.

وينجح في إيقاد جذوتها، وجمعها عدا العدد السادس.

ربما كان يرقد هذا العدد في خزائن وزارة الداخلية، وربما في مكتبة قديمة. المهم أن صديقنا الشاعر «هشام قشطة» لم يعثر عليه فأصدر باقي الأعداد في مجلد واحد.

ثروة ثمينة، وصفحات لا تبلى من تاريخنا الوطني والثقافي.

إلى أنور كامل وإلى هشام قشطة وإلى أنصار الفن والحرية في كل العصور، إليهم جميعًا.. باقة ورد في عيد الميلاد.

بيكاسو

مهرج القرن ونحيبه!

عبقري وخائن!

شره لا يعرف الحب!

وعاشق «مفتون» بالرذيلة!

هو بابلو بيكاسو.

عندما وقف السفير الألماني أمام لوحته الخالدة «جيرنيكا» ارتعدت قدماه، وراح يسأل بيكاسو:

«هل أنت الذي فعلت هذا؟».

أجاب بيكاسو محتدًا: «بل أنت!».

لم يعرف القرن فنانًا شغل الدنيا، وأثار الناس مثل بيكاسو.

وفي القاهرة، شاهدنا فيلمًا عن حياته الصاخبة، وقام بتمثيل دوره الممثل المهول «أنتوني هويكنز» الحائز على لقب «سير».

يعود هويكنز ليسحرنا من جديد بعد فيلمه «صمت الحملان».

يعود مُجسدًا أغرب، وأهم، وأعظم شخصية عاشت في زماننا.

بيكاسو بألوانه، وهذيانه، وغرامه، جاء تعبير هويكنز عنه معجزًا تمامًا مثل بيكاسو إنه الفن الخالد.

إنه السحر المجرد.

إنه الاعتذار عن شرور الإنسان وآثامه.

الخطأ واجب!

لم ينته العام بعد.

فأنا ما زلت أقرأ في ديوان «بشّار بن برد» فهو يمنحني دائمًا مبررات مقنعة لأخطائي! بشار.. ذلك الضرير السليط، الجامع، هو الوحيد الذي أشعر معه بفضيلة الخطأ!

يقول بشار:

«ومن عجب الأيام

إن اجتنابها رشاد

وأني لا أطيق التجنبا»

أرأيتم كيف يدفعني بشار إلى «عدم الرشاد».

وكيف يحرضني على العصيان، والجريمة؟

فكيف نتجنب الأيام؟

وكيف نبقى معزولين، مبعدين، فرادى؟ إذن فالخطأ مشروع، وعدم الرشاد واجب، والخطيئة حق، ليس للشاعر وحده ولكن لكل واحد فينا.

وهكذا أراني دائمًا مذنبًا في حق الجميع، ولكن بشّار خلّصني من الإحساس بالذنب.

إنها المتعة الحقيقية أن تخطئ فقط، تخطئ دومًا، إحساس بالإثم، أو شعور بجدوى الاعتذار.

آه.. يا سيد الخاطئين، لم يعد لنا مكان في عالم بريء، فالعالم مجنون ومجرم! وأنا أيضًا مجنون، ومجرم.

بروفيل شخصي

لم ينته العام بعد.

فأنا مازلت أقرأ في «مقامات» محمد ناجي.

ومازلت واقفًا أمام لوحات حسن سليمان مغمورًا بألوانه، وأحزانه، وحرائقه!

مازلت أبحث عن أمي!

ما زلت أعشق امرأة تخطئ في اسمي!

مازلت أرسم طيورًا مبصرة رغم أني مطفأ العينين!

ما زلت في الثلاثين من عمري، رغم أنف فنان الكاريكاتير حجازي!

(الأهالي: ١٩٩٧/١/٢٩)

كيف تسمعونني؟ إنني أتكلم من بعيد

رينيه شار

اعترافات ليس هذا أوانها!

لا أحب كلمة «إشكالية»!

ويملأني الشك كلما قرأت كلمات مثل «الخطاب» و«الآليات» و «المصداقية».

كلمات كلها جديدة ووافدة على مقالاتنا وتحليلاتنا، وأصبح الجميع يلوكونها: الصحفيون والسياسيون والمتحذلقون، حتى صغار الموظفين في وزارتي الإعلام والثقافة.

فإذا حضرت ندوة أو مؤتمرًا أو حلقة مناقشة، فسوف تسمع كلمة «فعاليات» وهي مفردة أكثر غرابة من سابقاتها.

ويتزامن ظهور هذه الكلمات الغريبة مع ظهور كلمات أغرب على لسان الطبقات الجديدة مثل «نحتاجه» و «ميه ميه» و«كده» مصحوبة بإشارة من الخنصر.

ولأن الشعر يجب أن يكون مواكبًا «للحياة اليومية» فقد جاءت قصائد الحداثة حافلة بالكلمات والمعاني العجيبة!

فالشعراء يتحدثون عن «المرأة الكونية» و «اعتقال الفراغ» و «العنزة» التي ترقص و «رامبو والسكران» وغيرها من المعاني الفاسدة والتراكيب التي تعكس الخواء والسطحية وكل ألوان الادّعاء والتصنع.

ولم يقتصر الأمر على الشعر وحده، بل امتد إلى ساحة الرسم، وامتلأت اللوحات بالأجسام الغريبة والمعلقة على السطح والألوان المتناثرة تحت شعار «التجريد» فإذا سألت الفنان المحدث عن معنى هذه الهذيان اللوني يقول لك بلهجة متكلفة: «إنها صراعات الإنسان المعاصر تتفجر ألوانًا بلا غاية ولا ترتيب».

فإذا كنت على معرفة ما بفن الرسم فسوف تصمت لأن الجهل «منطق مفحم» وكان شيخ المعرة يقول:

لما رأيت الجهل في الناس فاشيًا

تجاهلت حتى ظُن أني جاهلُ

وإذا كنت سيء الحظ – مثلي – وقرأت كتابًا نقديًا لأحد النقاد المعاصرين، فسوف تصاب باكتئاب مزمن لهول ما تقرأ. فهناك «الدلالة الإشارية للفعل المتكرر» وهناك «اختزان اللحظة المكثفة في حرف الحاء». و«انفجارات

اللغة على سفح المدلول» وأخيرًا «شظايا المعنى في التركيب المستتر».

بالإضافة إلى عشرات الرسوم الإيضاحية من دوائر وأسهم وخطوط ماثلة لمعنى «التكرار» و«غياب الفعل» و«انشطار حرف العلة»!

ولأن الأشياء مرتبطة بعضها ببعض – كما يقول الشيوعيون – فإن هذه الطريقة في التعبير النقدي لا تختلف كثيرًا عن طريقة التعبير لدى الحكومة والمسئولين.

فما الفرق بين ما يقوله النقاد وما يقوله أساتذة الاقتصاد وخبراء الموازنة والخصخصة. ألم يقل أحدهم في التليفزيون: «إن الآثار الاحتكارية لعمليات الخصخصة سوف تنعدم عند دوران العجلة وارتفاع حرارة المنافسة وفق آليات جديدة»!

في الوقت الذي كانت فيه المذيعة التعسة تهز رأسها تعبيرًا عن الفهم العميق لكلمات الخبير!

ونصل إلى لغة المشرّعين الجدد وصنّاع القوانين، فقد تأثروا بما أصاب الشعر والرسم والنقد والاقتصاد وراحوا

ينحتون لغة موازية، ولعل قانون الصحافة خير شاهد على هذا التجديد.

انظر إلى كلمات «الازدراء»، «تهديد السلام»، «إثارة المشاعر المعادية». «الحض على الكراهية» «النقل عن الصحف الأجنبية» وغيرها من الإبداعات التي لو صحت لأصبح الصحفيون أمة من الخونة!

ورحم الله زمانًا كان يسافر فيه الفقيه العلامة «السنهوري باشا» إلى شواطئ البحر الأحمر ومعه تلاميذه لانتقاء الكلمات المعبرة عن المعنى حتى تجيء اللغة التشريعية صافية كالبحر، رائعة جميلة، لا يشوبها فساد في المعنى أو غلظة في النطق.

فاللغة روح المعنى، ومن ثم جاءت نصوص السنهوري قطعًا من الشعر المصفي وليس موادًا جامدة ولغة ميتة، كما جاء الحال في قانون اغتيال الصحافة.

لقد كتب الشاعر العظيم «فيتزجرالد» رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها:

«وكيف نسامحهم وقد أهملوا في اللغة»!

أما أنا فلن أسامحهم حتى لو كفوا عن استخدام كلمة «إشكالية»!

اعترافات محاصرة

لا بد أن أكون واضحًا وصريحًا وجريئًا أيضًا.

لا بد أن أكتب عن المرأة التي أحببتها.

ولكن.. كيف نأتمن الأوراق على حقيقة مشاعرنا وأحاسيسنا كما كان يخشى دائمًا ديستويفسكي!

وكيف اعترف بعد هذا العمر، وبعد هذا الزمن الذي هجرته!

فالحب إحساس غائر، وفرح خفي، عناق بين عطشين.

الحب أطول رحلة احتضار في حياة العاشقين، وأشهى طعنة في القلب.

الحب احتلال بالآخر ونفي فيه..

الحب وحشة آمنة، وصمت مزدحم، ولعثمة الأكف والشفاه.

تصدع بغير انهيار، وشوشات هادرة، ونحيب عمر سكنته العاصفة.

الحب.. فوضى الإيقاع، ورفض الممكن، ورائحة اللوعة.

الحب.. أن أسقط من فوق مشابكك الذهبية فـ لا تردد ي أرض.

الحب.. جدار ورغبة.. نداء محش و بالرم اد.. خط وة هجرتها الطريق.

هل أنا واضح وجريء؟

لا أظن.. فأنا خائف من ث لاث: الحكوم ة، والح زب، وجمعيات حقوق الإنسان!

سلام على أصدقائي

لي صديق لا يكف عن زجري وتهـ ذيب سـ لوكي كلم ا أخطأت.. وما أكثر أخطائي!

وهو صديق عمري، ومعه أشعر بالأمان الكامل، والثق ة بالنفس، وحلاوة الصحبة، ومعنى الصداقة.

هو منضبط وأنا فوضوي، هو صادق دائمًا وأن ا أك ذب أحيانًا.

هو حليم وصبور.. وأنا منفعل وطائش.

ورغم هذا جمعتنا صداقة العمر.

يعشق الشعر ويحفظه ولا يكتبه.

ويقرأ بنهم وعمق بالغين.

يحدثك عن هيكل والمتنبي وابن عبد ربه، ويتذوق الموسيقى الشرقية والغربية في آن.

إذا حدثك عن صلاح عبد الصبور حملك إلى عالمه وكأنك لم تقرأه أبدًا.

وإذا حدثك عن فن السينما تشعر وكأنك في أرشيف عامر.

يجيد الإنجليزية ويقرأ بها أحدث الكتب، ويتعامل مع التراث العربي دون وسيط عاشق لأمهات الكتب، ويعرف الفروق بين المحققين.

يحدثك عن محمود شاكر وإبراهيم الإبياري وعبد السلام هارون، ويحني رأسه أمام جهودهم في التحقيق، فلولاهم ما عرفنا الأغاني للأصفهاني، وما قرأنا الجرجاني، ولظل الجاحظ والمبرد وأبو علي القالي مخطوطات منسية في دار الكتب.

يحب إسماعيل ياسين، ويهوى تدخين الشيشة، ويتقن فن عروض الشعر وأوزانه.

ورغم أنه صحفي موهوب، وكاتب يجيد التعبير عما يحسه ويعرفه، إلا أنه يتهيب الكتابة، ولا يرى ضرورة في «ارتكابها» إلا إذا كانت هناك إضافة، ولأنه مثقف من عيار ثقيل، فهو متردد دائمًا بين القراءة والكتاب، فلم يصدر سوى كتاب واحد عن «الجامعة المصرية» على نفقته الخاصة.

ورغم هذه الصفات، إلا أنه قادر على التعامل مع مختلف المستويات الثقافية المتباينة، وهو مولع بالتحليل والغوص في الشخصيات.

أما سخريته فلا حد لها.

إنها لاذعة، موجعة، دامية، أما مع من يحبهم فهي سخرية مرحة، متسامحة، رفيعة وغير جارحة.

وكلما تحدث معي حرضته على الكتابة، وتمنيت لو سجلت أفكاره المتدفقة وتأملاته اللامعة الذكية، لكنه في حالة مقارنة دائمة. ففي رأيه إما أن تكتب الرواية كما كتبها هنري ميللر أو هرمان هسه أو نجيب محفوظ، وإما فلا!

وإذا كتبت الشعر لا بد أن يكون لديك صوتك الخاص وهمومك الحقيقية، مثلما كان الشاعر صلاح عبد الصبور.

وهي نظرة حقيقية لمعنى الكتابة، وقدسية يخلعها على هذا «الفعل» الرهيب.

إنه صديقي الكاتب والصحفي بجريدة «الأهرام» أحمد عبد التواب.

كان في العقد الثاني من عمره عندما شارك في تأسيس الإصدار الأول لجريدتنا «الأهالي» عام ١٩٧٨، ثم شارك في تأسيس الإصدار الثاني لها عام ١٩٨٢. وعندما أحس بأن الصحافة سوف تصرفه عن القراءة، قدم استقالته، وكتب عنه الكاتب الفنان صلاح عيسى مقالاً مشاغبًا ومداعبًا ومودعًا له، وداعًا يليق بكاتب حريص على عقله أكثر من حرصه على لقمة عيشه!

ولا أدري ما الذي دفعني إلى كتابة هذه السطور عن صديقي؟

ربما كان رحيل شهاب سعد.. رفيقنا الذي غادرنا في الأربعين من عمره، أو ربما كان نوعًا من التشبُث بأصدقائي الأحياء، لإحساسنا كجيل أننا دخلنا دائرة الموت.

ربما لهذه الأسباب كتبت عن صديقي العائش.. لأنني لست متأكدا تمامًا من الذي سيبدأ فينا برثاء صاحبه.

فسلام على أصدقائي

وسلام عليكم.

(الأهالي: ٣/٧/١٩٩٦)

إن قوة الضّمير جعلتنا جميعًا جبُناء!

هاملت

ألوان من الحب والوهم والتسكعُ العاطفي

كان الشاعر الرجعي العظيم «ت.س.إليـ وت» يـ رى أن شهر أبريل «أقسى شهور السنة»!

بينما كان صلاح جاهين – شاعرنا التقدمي العظيم أيضً ا – يرى أن «الدنيا من غير الربيع ميتة، ورقة شجر ضعفانه ومفتفته»!

وبين إليوت وصلاح جاهين كنت أنوي الكتابة عن الحب وما فعله بهما وبنا.

كنت أنوي الإصغاء إلى صوت إليوت الخشن وهو يهتف:

«ترفق أيها النهر

حتى أستطيع أن أكمل أغنيتي».

ولم تكن أغنية إليوت سوى نداء غامض للوحش والأرض الخراب وأطياف الماضي الجريح.

عاطفة مشنوقة، وكلمات متصدعة وارتعاشات ثكلى..

فأين الحب؟

أما صلاح جاهين فكان يرى أن الحب بهدلة؟

فقد تعذب بالحب عذابًا أبديًا، وشقيت روحه فلم تهدأ إلا بعد أن تركته جثة.

«أنا اللي مليان بالجروح

مقدرش أقول

مقدرش أبوح

والسهم يسكن صدري

مقدرش أنزعه».

ولأنني مولود في شهر أبريل فقد رحت أفتش عن أحاسيس إليوت في أعماقي وعن عذابات صلاح جاهين التي انتهت في أبريل.. ويالها من مصادفة.

ويبقى السؤال: أين الحب؟

يقول صلاح جاهين:

«إحساس غريب

كأنه سجن

كأنه مخدع لحبيب».

هذا شاعر يرى أن مخدع الحبيب قد صار سـ جنًا، فمـ ا الذي يعنيه الحب إذن؟ وهل تكون الحرية أغلى من الحب؟

وإذا كان الحب قد دفع بإليوت إلى تجـ اويف الماضـ ي، وبُقع الحضارات، فقد فعل الشيء نفسه مع صـ لاح جـ اهين الذي ارتد إلى الغد وقذفه بنفسه من شرفة المسـ تقبل، حتـ ى تهشمت عظامه، وتناثرت قصائده التي لم تكتب.

«في يوم من الأيام

راح اكتب قصيدة

ح اكتبها

وإن ما كتبتهاش

أنا حر

الطير مهوش ملزوم

بالزقزقة».

ولكن.. أليس الحديث عن الحب يعد نوعًا مـ ن الهـ روب؟ ربما.. فأنا لا أريد أن أكتب عن الخصخصة ربيع كل شيء ابتداء من اللوكندات وحتى مجمع الألومنيـ وم، لا أريـ د أن

أتحدث عن البيع، فأنا لست «خبير مثمن» أو «مصفي قضائي».

ولا أريد أن أكتب عن التلوث الإشعاعي الناتج عن المفاعل الإسرائيلي، فالكارثة وقعت ولا مجال لإدانة إسرائيل، وإلا اجتمعت قمة العالم في شرم الشيخ مرة ثانية!

ولا أريد الكتابة عن مرض جنون البقر وعلاقته باللحوم التي نأكلها فأنا أعرف أكثر مما يجب عن عمليات الاستيراد التي تمت في بلادنا.

ولذلك قررت الكتابة عن جنون الحب بدلاً من الكتابة عن جنون البقر.

ولكن كيف تكتب عن الحب وكل هذه الجرائم تجري بين يديك ومن خلفك؟

كيف تقول لامرأة: أحبك ثم تدعوها للعشاء في فندق مباع لتأكل لحم البقر المستورد، فيصيبها الجنون بدلاً من أن تجن بك؟

كيف تقول لامرأة: أحبك وتحدثها دون أن يلاحقك الإرهابيون ودعاة الحسبة وأبناء بعض المسئولين من

السماسرة والفاسدين ووزارة قطاع الأعمال ومذيعات التليفزيون ومسلسلات ممدوح الليثي؟!

سأواصل إذن حديث الحب.

كان قيس بن الملوح عاطلاً متفرغًا لشئون قلبه، يهيم على وجهه ويكتب الشعر فيحفظه الناس.

ولم تكن هناك وزارة الداخلية تمنع «قيس» من إقامة سرادق لإلقاء شعره وتتهمه بإثارة مشاعر الجماهير!

ولم تكن هناك وزارة لقطاع الأعمال تبيع الخيام وتترك الناس في العراء.

أبدًا.. كان العالم جميلاً ومخمليًا...

يقول قيس:

«أقضي نهاري بالحديث وبالمنى

ويجمعني والهمُ بالليل جامعُ

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا

لي الليلُ هزتني إليك المضاجعُ»

شاعر «صايع» لا يفعل شيئًا سوى انتظار الليل لكي يحلم ويشعر:

ويلخص قيس حياته قائلاً:

«فما أشرف الأيفاع

إلا صبابة

ولا أنشدُ الأشعارَ

إلا تداويًا».

هكذا كانت الحال، لقد أسس قيس مدرسة «للبطالة العاطفية» وتبعها أنصاره ومريدوه.

فهذا جميل بن معمر يتفرغ لحب بثينة ويترك قبيلته تحارب الغزاة والمعتدين:

«يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ وأي جهاد غيرهن أريد؟».

فالرجل يجاهد ولكن في اتجاه آخر، وعلى جبهة أخرى، ويرى أن جهاده مقدس، ونذالته استشهاد:

«فكلُّ حديث بينهن بشاعة وكل قتيل عندهن شهيد»

هكذا سار جميل على درب قيس.

ويروي صاحب «الأمالي» حكاية عروة بن حزام مع ابنة عمه عفراء، التي استغرقت ثمانين عامًا من الحب المهلك، وفي آخر أيامه قرر الرحيل إلى حيث تسكن عفراء، وقال

قصيدته وهو فوق ناقته، وهي قصـ يدة طويلـ ة روى فيهـ ا مأساته العاطفية وتمنى فيها الموت لعله يلتقي بعفراء بعد أن فرقت الدنيا بينه وبينها:

«وإني لأهوى الحشر إذ قيل إنني

وعفراء يوم الحشر يلتقيان»

أما الأسباب التي حالت دون زواجه من عفراء فهي:

«يُحملني عمي ثمانين ناقة

ومالي والرحمن غير ثمـ انٍ».

أما حالته العاطفية فيصورها على هذا النحو:

«هوى ناقتي خلفي وقُدامي الهوى

وإنـ . . ي وإياها لمختلفـ ان

كأن قطـ اة علق . . تـ بجناحهـ ا

على كبدي من شدة الخفقان»

حالة مروعة ومخيفة، فلقد عاش الشاعر ثمانين عامًا بهذا الخفقان الفاجع دون إصابة بجلطة فـ ي القلـ ب أو بمـ رض السكر؟

فهل كان يكذب؟

المهم أن عروة بن حزام كان ينتمي لنفس مدرسة البطالة والتسكع العاطفي حول خيام الحبيبة.

ولعل آخر أمراء هذه المدرسة هو الشاعر كامل الشناوي..

فقد ظل الرجل يسهر الليل ويعشق بالنهار حتى مات. وهو الشاعر الوحيد الذي عَرَضَ قلبه في سوق الخصخصة العاطفية. يقول الشاعر:

«أشترى الحب بالعذاب أشتريه فمن يبيع»

لقد كان كامل الشناوي سيئ الحظ، فلم تكن هناك في عصره وزارة لقطاع الأعمال، فقد كان العصر رشد موليًا ولا أحد يجرؤ على البيع.

الوهم.. وأنا

ريجيس دوبرييه كاتب ومفكر وروائي فرنسي كبير.. وقبل ذلك كان الرجل واحدًا من الثوار الأمميين الذين حملوا السلاح في صدر شبابهم وعرفوا السجن في بوليفيا مع الثائر الكوبي تشي جيفارا، وقد كتب دوبرييه كتابًا عن تجربته في السجن وترجمه إلى العربية د. سهيل إدريس بعنوان «مذكرات بورجوازي صغير».

غاص فيه دوبرييه في أعماقه وأعاد اكتشاف ذاته وخلص إلى عدة استخلاصات مذهلة ومبهرة أيضًا.

يقول دوبرييه: «في العشرين من العمر يصبح الإنسـ ـان قويًا بالوهم، وفي الأربعين يصبح أقوى بزوال هذا الوهم».

وقد توقفت طويلاً عند هذا المعنى، وأصبت بحالـ ـة مـ ـن الارتباك والتصدع، فقد بلغت الأربعين ولم أزل بعد واهمً ـا، وعرفت أن السر وراء ذلك يكمن في عدم مصارحتي لذاتي وإخفاء ما يدور في أعماقي.

فأنا لم أكتب بالوضوح الكافي، ولم أعلن معاذ ـاتي عبـ ـر الكتابة أو الرسم.

فإذا كان دوبرييه قد نجح في تعريفه الآخـ ـرين وإداذ ـتهم بنفس القدر الذي عرى وأدان بـ ـه نفسـ ـه وأعماقـ ـه فـ ـإنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

فنحن أبناء ثقافة عشائرية ولن يسمح لـ ـك أحـ ـد بكتابـ ـة الحقيقة.

كتب دوبرييه عن تجربة سجنه ورفاقـ ـه وأخطائـ ـه ولـ ـم يعترض أحد.

وكلما فكرت في الكتابة عما جرى في السجون المصرية طوال سنوات سجني واعتقالي ومحاكمتي وما فعله الرفـ اق بي وبأنفسهم، ارتعدت أعماقي وأصابني الرعب. فقد كانـ ت التجربة أكبر منها، والأخطاء قاتلة، ومراجعة النفس والأفكار عمل يحتاج إلى شجاعة من نوع خاص.

ولأن تجاربنا لم تعد ملكًا لنا منذ أن حملنا الأقلام وعرفنا طريق الكتابة، فلا معنى لكتابتنا وأفكارنا دون مواجهة الذات والآخرين.

لقد مات الشاعر العظيم صـ لاح عبـ د الصـ بور وهـ و يتضرع:

«أنا لا أقدر يا رباه

هل تدعوني أن

أدعو الشر باسمه

والطغيان وتزييف العقل

لا.. لا

أنا لا أقدر

يا رباه».

ومات صلاح.. بعد أن قال كل شيء، وكان يظن أنه لـ م يقل شيئًا.

وهأنذا أحاول أن أبوح دون جدوى.. فكيف تقول لأنـ اس حلموا معك، وأدمتْ معاصمهم القيود مثلك، وطبقت الزنازين الباردة على أجسادهم وأرواحهم مثلما طبقت علـ ى جسـ دك وروحك، كيف تقول لهم بعد ذلك:

كيف تقول لهم مثلما قال أمل دنقل:

«لا تحلموا بالعالم السعيد

فخلف كل قيصر يموت

قيصر جديد».

كيف أقول لهم إننا أسرفنا في الوهم فضاع العمر، وضاع الطريق؟

هل أقول ما قاله تشيكوف:

«أنا أذكى من أن أؤمن بأن الخير سوف ينتصر»!

أم أظل واهمًا ومخدوعًا.

ومنتظرًا أردد ما قاله هملت في حزن:

«إن قوة الضمير جعلتنا جميعًا جبناء».

أليس هذا سببًا كافيًا لعدم الكتابة بوضوح ميتافيزيقي.. أم تراني كتبت مجرد برقية عزاء لقلبي الذي بلغ الأربعين ولا يزال واهمًا.

(الأهالي: ١٠/٤/١٩٩٦)

لو قُلتُ كلَّ ما تُثيره الظنُّون

لَقُلتموا مجنون

صلاح عبد الصبور

صبابات مُرتدّة.. ورسوم على ظهر اللوحة

في ألمانيا، وبالتحديد في مدينة كاسيل، وقف فنان تشكيلي شاب عاريًا تمامًا وسط لوحاته المعروضة بإحدى القاعات، وقد كتب على جسده هذه الكلمات: «لا مكان في لوحة هذا العالم القبيح لريشتي».

والمكان الذي يقصده الفنان العاري هو ألمانيا.. سيدة العالم وصاحبة أقوى اقتصاد وأعلى متوسط دخل للفرد.

فكيف – بالله – لو عاش هذا الفنان في بلادنا، وراح يتأمل لوحة الواقع من حوله؟!

تُرى هل كان سيخلع ملابسه فقط؟!

لنتأمل إذن لوحتنا: بين كعب يسرا العالي، وحكم محكمة النقض بتفريق نصر حامد أبو زيد عن زوجته.

بين موت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها أثناء عملية الختان، وضياع ١٢ مليار جنيه من البنوك التجارية بدون ضمانات.

بين موت أحمد بهاء الدين، وحياة الشيخ يوسف البدري الحافلة بقضايا التفريق والارتداد في عموم محاكم مصر.

بين مقالات عبد المنعم عمارة، وهروب النواب في مجلس الشعب من الخدمة العسكرية.

بين ضياع المستوردين للأغذية واللحوم والأسمنت ومياه الشرب، وبين ارتفاع نسبة المصابين بالكبد الوبائي والفشل الكلوي والسرطان.

بين الأبراج وخيام المشردين في الصعيد، وبين نصائح الشعراوي ونصائح صندوق النقد الدولي.

أي ألوان سيملأ بها هذه الفجوات؟ وأية ريشة تستطيع ملامسة هذا الوجع؟!

عطر، وأرصفة، وسيارات فارهة.

لصوص تقطع الطرقات.

آنية مخضبة.

وميكروباس.

أمام النيابة وقف جندي الحراسة المتهم بترك الخدمة أمام البنك ليشتري بيتزا من المحل المجاور.

س: من أعطاك هذه النقود؟

ج: راجل كريم نزل من سيارته وأعطاني عشرة جنيهات وقال لي «روح كُل» وعندما رجعت لقيت باب البنك مدشوش.

س: وكيف تترك خدمتك وتقبل نقودًا من رجل لا تعرفه؟

ج: كنت جعان.

ونترك الفنان الألماني عاريًا، ونواصل تأمل اللوحة.

جمعيات رجال الأعمال، مقالات ثروت أباظة، افتتاح خمسة سجون جديدة من بينها سجن العقرب، أولاد يبيعون أعضاءهم، وبنات يكتبن أجسادهن، بياناتجبهة علماء المسلمين تطالب برءوس المثقفين، وفتاة تعاشر خالها في الحرام!

إنشاء خمس جامعات خاصة، رئيس الجامعة يسرق رسالة جامعية من زميله ويكتب اسمه عليها، ورغم صدور حكم

محكمة تأديبية يدين رئيس الجامعة، إلا أنه لا يزال يمـ ـارس أستاذيته ويسرق رسائل زملائه.

أبناء المسئولين، مصادرة عشرات الكتب، رئيس حـ ـزب يختلق واقعة اعتداء من الإرهابيين فيفضحه سائقه الخـ ـاص ومحاميه، سرقة منزل مسئول أمني كبير!

هذه لوحتنا وهذه حالنا ولا يزال الفنان الألماني عاريًا بين لوحاته.

نهاية التمرد

نشرت صحيفة «لوموند» الفرنسية بيانًا بتوقيع عدد مـ ـن أكبر شعراء ومفكري وساسة فرنسا، يطالبون فيهـ ـا برفـ ـع الحصار عن الشعب العراقي.

وقد نشروا هذا البيان على نفقتهم الخاصة ونـ ـددوا فيـ ـه بالسياسة الأمريكية «الجاهلة» التي تفرض هيمنتهـ ـا علـ ـى العالم!

وفي أعقاب هذه البيان في الصحيفة الفرنسـ ـية، اقتـ ـرح الكاتبان الكبيران محمد عودة ومحمد سيد أحمد ترجمة البيان وإعادة نشره في صحافتنا، على أن يقوم عـ ـدد مـ ـن كبـ ـار شعرائنا ومفكرينا وكتابنا بالتوقيع عليه.

ورحنا نتحسس الأمر ونستشـ ـعر الاتجاهـ ـات، وفوجئنـ ـا بإعراض الكثيرين عن «التورط» في التوقيع والنشر.

فالكثير من شعرائنا وكتابنا مرتبطون بالكتابة في صحف خليجية وسعودية، وقد يؤثر وجود أسمائهم على مصـ ـالحهم الخاصة.

وبالطبع لم يترجم البيان ولم ينشر في صـ ـحفنا وتـ ـوارت الفكرة وبقى السؤال فاضحًا: ماذا جرى لكتابنا ومثقفينا؟ ومن الذي أطفأ فيهم شعلة التمرد وجعلهم مستسلمين هكذا!

هل يخافون السجن؟! لقد قضى أغلـ ـبهم أجمـ ـل سـ ـنوات العمر بين الزنازين.

هل هي أموال النفط؟

لقد رصد الكاتب برهان غليون في كتابه «بعـ ـد حـ ـرب الخليج» وجود ١٠٤ مراكز بحثية بأموال خليجية نجحت في احتواء خيرة الباحثين والمثقفين «لنفـ ـي الفكـ ـرة القوميـ ـة». وتشييع جثمان الأيديولوجيا إلي «مثواها الأخير» لـ ـ «أفكار الغرب عن نهاية التاريخ وحرية السوق».

لعل هذا هو السبب الذي دفع بمعظم كتابنا ومثقفينا إلـ ـى هذه الحالة اليائسة. فالصحف والمراكز البحثية مملوكة لدول

الخليج والسعودية، وليس مسموحًا لأي كاتب أو مثقف الخوض في قضايا بعينها.

مثلاً.. كيف يتناول كاتب ما قضية الديمقراطية في السعودية وينشر في صحيفة سعودية رأيه في نظام الحكم الملكي العائلي؟

كيف يستقيم ذلك؟ وكيف يكتب كاتب آخر عن حقوق الإنسان في السعودية أو الكويت، أو حتى يشير إلى تقارير هذه الجمعيات في صحيفة خليجية أو سعودية؟

إنها محنة، لكن الكُتاب نجحوا في الابتعاد عن هذه القضايا، وراحوا يكتبون عن «نهاية التاريخ».

قال لي الشاعر الكبير أدونيس: إنه قرر إصدار عدد خاص من مجلته الثقافية «مواقف» التي تصدر في باريس عن حقوق الإنسان في العالم العربي، وطلب من الكُتاب والمثقفين العرب المشاركة وكتابة شهاداتهم على ضياع هذه الحقوق في بلادهم، ورفض الجميع المشاركة، و «كتموا» شهاداتهم في صحف الخليج والسعودية.

وفي لندن تحدث الكاتب جهاد الخازن رئيس تحرير جريدة «الحياة» في أحد الاجتماعات قائلاً، «نحن نتحدى أن

يكون هناك قلم له وزن ولا يكتب في جريدتنا». قال ذلك تبرير خسارة الجريدة المالية، ومعه حق، لقد أراد أن يقول لأصحاب الصحيفة السعوديين: إن احتواء الكُتاب والمثقفين على هذا النحو واستئناسهم بهذه الكيفية، يبرر أي خسارة مادية..

إنها «نهاية التمرد» عند أكثر كُتابنا ومثقفينا شغفًا وولعًا بالحرية، بل قل إنها ثمن دفعته هذه الصحف لهؤلاء الكُتاب لكي ينعموا بديمقراطيتهم الكاذبة وعروشهم الملكية الجائرة.

في الماضي وقف الشيخ علي عبد الرازق في وجه الملك فؤاد، وتم فصله من القضاء، ووقف طه حسين في وجه الجمود والتخلف وتم فصله من الجامعة، ووقف لويس عوض في صف الحرية وتم فصله واعتقاله.

هكذا كان آباؤنا فماذا جرى؟

***

اعتذار متأخر لصلاح عبد الصبور

موقفان أحفظهما للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور:

الأول في عام ١٩٧٦ إثر توليه رئاسة تحرير «الكاتـ ـب» فقد تطاول عليه عدد من شباب الشـ ـعراء وأصـ ـدروا بياناً ـا ضده، وكنت لا أزال طالبًا في كلية الإعلام، وفـ ـي الوقـ ـت نفسه أتدرب على العمل الصحفي بجريدة الكليـ ـة «صـ ـوت الجامعة» وذهبت إلى الشاعر الكبير في مكتبه حاملاً بيـ ـان الشعراء، وطلبت منه تعليقًا لأنشره في جريدتي.

وهنا ابتسم صلاح ابتسامة «أسـ ـيانة» وقـ ـال لـ ـي: «لا تعليق».

قلت: لكنهم يهاجمون موقفـ ـك، فقـ ـال لـ ـي: لا.. إنهـ ـم يشتمونني لكنهم لا يستطيعون إنكاري، أما أنا لـ ـو أنكـ ـرتهم كشعراء فلن تقوم لهم قائمة، إنها معركة غير متكافئة لأننـ ـي الطرف الأقوى ولا يجب على القوي إنكار الضعيف.

وخرجت من مكتب الشاعر الكبير وأنا مشـ ـدوه بموقفـ ـه، فالرجل كبير فعلاً، ولا يليق به مصارعة الصغار، وتذكرت قول المتنبي:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

ضعيـ ـف يقاويني قصير يطاول

أما الموقف الثاني فكان عام ١٩٧٩ وكنت خارجًا لتـ ـوي من السجن، وذهبت إلى دار الأدباء حيث كان الشاعر الكبير يلقى محاضرة عن «عملية السلام»، وتحدث صـ ـلاح عبـ ـد الصبور عن وجهة نظره، في اتفاقيتي كامب ديفيد، وكانـ ـت مثيرة، كان الشاعر الكبير لا يرى خوفًا علـ ـى مصـ ـر مـ ـن عملية السلام، وكان يـ ـرى أن اليونـ ـان المغلوبـ ـة هزمـ ـت الرومان الغالبة لأن الأولى تملك الحضارة والثانيـ ـة تملـ ـك السلاح.

وغضبنا من الشاعر الكبير وهاجمنا وجهة نظره، وكتبت مقالاً بعنوان «عودة الفارس القديم»، وانتقدت موقف الشاعر الكبير، وعندما التقينا قال لي: «أنا أراهن علـ ـى الحضـ ـارة وأنت تراهن على الأيديولوجيا، فلماذا تشتمني وتفترض أنك سوف تكسب الرهان؟». ودعاني إلى مكتبـ ـه فـ ـي «سـ ـراي النصر» وتحدثنا طويلاً وأحببت حديثه وعمق ثقافته وهزتني مشاعره الوطنية، واعتذرت عن بعض الألفاظ الواردة فـ ـي مقالي، وهنا قال لي: «الفاشيون وحدهم هم الذين يحتكـ ـرون الصواب، فهل أنت فاشي؟».

ولم أرد فقد كنت في هذه السنوات أحتكر الصواب واليقين معًا.

والآن.. في ذكرى رحيل شاعرنا الكبير أقول له: «لق د فقدت الصواب واليقين.. ولا زلت فاشيًا».

(الأهالي: ١٩٩٦/٩/٢٥)

متى «تزوجتم» الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

صحوت من نومي – وهي عادة سيئة تتكرر كل يـ ـوم – وفوجئت أن اليوم هو عيد زواجي، وأنه قد تم مرور عشـ ـر سنوات على هذا الحادث الجلل.

ورحت أتأمل سنوات العقوبة هذه، وكيف عشـ ـت زوجًـ ـا صامدًا لا يشق له غبار!

وقررت أن أتمرد على ذلك وأسترد حريتي المسلوبة، كما قررت رفع دعوى قضائية على زوجتي، فجـ ـرائم الـ ـزواج، مثل جرائم التعذيب، لا تسقط بالتقادم.

لكن كيف أعبر عن هذا التمـ ـرد المفـ ـاجئ؟ ومـ ـا هـ ـي الوسيلة؟

قلت لنفسي إنني صحفي ويجب أن يكون التعبير من خلال الصحافة! لكنني أعمل في جريدة حزبية ولن يسمح لي رئيس التحرير أن أنشر بيانات ضد زوجتي على صفحات الجريدة، خاصة أن زوجتي صحفية وعضو مشتغل بنقابة الصـ ـحفيين مما يلزم معه الحصول على إذن خصومة من النقابـ ـة قبـ ـل

النشر، كما أنه لا يليق أن أفرض همـ ومي الخاصـ ة علـ ى القراء من: العمال والفلاحين وأبنـ اء الرأسـ مالية الوطنيـ ة والجنود والمثقفين الذين نخاطبهم ونتوجه إلـ يهم؟ فمـ ا هـ و الحل؟

هنا قررت أن أصدر مجلة حائط في منزلي، وأعلقها على جدران بيتنا، وعلى الفور أحضرت الأوراق والأقلام الملونة وشرعت في إعداد مجلة.

في الافتتاحية وجهت إنذارًا لزوجتي من محاولة استغلال نقاط ضعفي – وهي كثيرة والتي أتقنـ ت معرفتهـ ا طـ وال سنوات العقوبة، ونشرت نصوصًا كاملة من ميثـ اق حقـ وق الإنسان، وكل المواد الدستورية التي تؤكد حرية الفـ رد فـ ي العقيدة والرأي والتحزب والتجمهر والطلاق.

وفي مقال آخر، نددت بالتبعية وآثارهـ ا علـ ى الأزواج، فعلى مدى عشر سنوات لم تستخدم زوجتي من أفعال اللغـ ة سوى فعل الأمر، وأهملت استخدام الفعل الماضـ ي وزميلـ ه المضارع.

فتقول «افعل كذا» و «لا تفعل كذا» وذات مـ رة لفتـ ت نظرها بأدب إلى خطأ إهمال الفعلين الماضي والمضـ ارع،

أبدت امتناعها، وبعد أقل من دقيقة واحدة قالت بلهجة حاسمة: «اسمع» قلت هذا فعل أمر.. فقالت «طيب شوف».. وهكذا توالت أفعال الأمر وفشلت المحاولة.

وتحت عنوان «تجارب مريرة» كتبت عن العظماء عبر التاريخ الذين عانوا من زوجاتهم، وصمدوا مثلي وثابروا وصبروا.

أما تحقيق العدد، فكان عن انهيار الإمبراطوريات العظمى مثل انجلترا والاتحاد السوفيتي وفيه تذكرة وعبرة لمن تعتبر من الزوجات.

وفي قلب المجلة وضعت حكمة العدد: «متى تزوجتم الناس وقد خلقهم الله أحرارًا».

وجاءت زوجتي وقرأت العدد ولطمت على وجهها لأنني شوهت الحائط الأبيض بتعليق المجلة عليه، وصرخت في وجهي قائلة. ماذا تريد إذن؟

قلت: إن زواجنا ضد اتفاقية جنيف لحقوق الإنسان، وأنا أطلب حق تقرير المصير.

قالت: خلاص أتفضل روح في داهية!

وأعددت حقيبتي وشعرت زوجتي بأن المسـ ألة خطيـ رة وأنني عازم على تطبيق اتفاقية جنيف.. وهنا سألتني بصوت مبحوح: «طيب أنت حتروح فين»؟

قلت بصوتي وغير مبحوح: «إما أن أنتحر أو أنضم لحـ زب الأمة»!

أرجوك.. الصمت

في ليمان أبي زعبل عام ١٩٧٨.. التقيـ ت بشـ اب فـ ي حوالي العشرين من العمر ضمن مجموعة شكري مصطفى، الذي كان متهمًا آنذاك بخطف واغتيال الداعيـ ة الإسـ لامي الشيخ محمد الذهبي.

وكان الشاب يدرس الطب البيطري في إحدى الجامعـ ات الإقليمية، وتم تجنيده في تنظيم «التكفير والهجرة». ثم أصبح واحدًا من المجموعة المُنتقاة لتأديب الخارجين على الجماعة وقتلهم!

في تلك الفترة، شهدت الجماعة صراعًا داميًا بين شكري مصطفى وحسن الهلاوي والاعتداء على منزله وأهل بيتـ ه، وتم القبض على المجموعة وألقي بهم في أبي زعبل.

وأثناء وجود المجموعة مع بعضهم حدث نقاش بين الشاب وبين أميره وكان الشاب قد أحس أن ما حدث مع الهلاوي لا يمت لصحيح الدين بصلة. فما ذنب النساء والأطفال في معركة فقهية؟ ولماذا كل هذا العنف في مواجهة المخالفين والمختلفين؟

وقال الشاب للأمير إنه بحديث الرسول «استفت قلبك» وأخبره قلبه بأن ما جرى محض اعتداء والله لا يحب المعتدين.

وهنا أصدر الأمير فتواه بأن الشاب مرتد ويجب قتله.

ولجأ الشاب إلى إدارة السجن فجاءت به إلى زنزانتي لحمايته، وكنت أقيم بمفردي وعاش معي الشاب بضعة أسابيع لا يبرح الزنزانة من شدة الفزع، حاولت أن أهدئ من روعه، وبقيت معه طوال الوقت. قال لي أنه سوف يترك الجماعة لأنه لم يعد يعرف أين الصواب وأين الخطأ، فمن غير المعقول أن يكون الجهاد في سبيل الله مجرد قتل المسلمين!

وقال لي إنه سوف يلتزم بالحديث النبوي: «إذ رأيت الفتنة مشتعلة، فاجعل سيفك من خشب».

وفي نهاية فترة صحبتنا عانقني عناقًا دامعًا وأهداني كتابًا عن حياة الإمام أحمد بن حنبل.

عندما قرأت الكتاب أحسست أن الإمام الجليل لا يزال يعيش بيننا، ولا تزال همومه ممتدة إلى حاضرنا.

ففي عصر الرجل اشتعل الخلاف بين الفرق وجرت دماء المسلمين، غزيرة عزيزة على قلب ابن حنبل.

كان جوهر الصراع حول ما إذا كان القرآن «مخلوق أم أزلي» وكثرت الفتاوى ودخل العامة والصبية والدهماء ساحة الفقه، وراحوا يقتلون من يخالفهم، وألقوا القبض على ابن حنبل وهو في الثمانين من العمر، وراحوا يجلدونه بالسياط لكي يقول رأيه فيما إذا كان القرآن «مخلوق أم أزلي» وامتنع الرجل عن إبداء رأيه أمام هؤلاء الغوغائيين حتى لا يهبط بالقضية فيمنحهم سلاحًا تشهره فرقة ضد أخرى فتزيد الدماء وتظل نيران الفتنة مشتعلة.

ومات ابن حنبل تحت لهيب السياط، وقال الرواة إنه «قضى على الفتنة بصمته».

وكم تمنيت لو أن العالم الشيخ محمد الغزالي يصمت كما فعل الإمام ابن حنبل، فلا يطلق الفتاوى على صفحات

الصحف لتتحول إلى قنابل وجنازير في أيدي العامة والصبية والدهماء.

لقد ذُهل المحقق أمام اعترافات بائع السمك المتهم باغتيال فرج فودة عندما قرر ببساطة أنه لم يقرأ كلمة واحدة للدكتور فرج! وأنه فقط تلقف الفتوى وحوّلها إلى طلقات في قلب رجل لا يعرفه ولا يدري عن إيمانه شيئًا.

تمامًا مثلما حدث مع عبد المجيد حسن قاتل النقراشي باشا في الأربعينيات حينما قرر أنه قتل النقراشي لأنه «كافر» وأن الذي أفتاه بذلك زعيم الجهاز الخاص أي الشيخ حسن البنا.

لكن الشيخ حسن البنا أصدر بيانًا عقب حادث الاغتيال بعنوان «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين»، استنكر فيه قتل النقراشي ووصف عبد المجيد وزملاءه بأنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين» وانهار عبد المجيد وبكي لأنه قتل رجلاً مسلمًا بغير ذنب، وراح يصرخ في قفص الاتهام ويتوعد الشيخ حسن البنا.

إنها السياسة إذن، فالله لم يأمر بقتل أحد، لكن الأمير أو الإمام هو الذي يأمر بذلك كان معاوية بن أبي سفيان يقول:

«إنني أحكم بما أراد الله، فلو أراد الله أن يمنح أحدكم مـ ـالاً منحته، ولو أراد أن يمنع عنه مالاً منعته». وهنـ ـا رد عليـ ـه واحد من المسلمين قائلاً: هذه ليست إرادة الله، بـ ـل إرادتـ ـك أنت يا ابن آكلة الكبد».

وقتل الرجل في الحال، ومعاويـ ـة يتمـ ـتم «لقـ ـد أزِفـ ـت ساعته.. إنها إرادة الله»!

***

«لا تسألني

إن كان القرآن

مخلوقا.. أم أزلي

بل سلني

إن كان السلطان

لصًا.. أو نصف نبي»

أمل دنقل

***

سرقة صيفية

وشتوية أيضًا

كثرت السرقات في عالم الكتب والرسائل الجامعية بشكل مثير ولافت.

وتنظر المحاكم الآن ٧٤ قضية سرقة رسائل جامعية وكتب منشورة.

فهناك كاتب صحفي أدانه القضاء مرتين بتهمة السرقة.

ورغم ذلك لا يزال نجمًا على شاشات التليفزيون ولا يزال أيضًا يواصل نشاطه وسرقاته بحماس واقتدار بالغين!

ويُرجع المحللون هذه الظاهرة إلى أسبابها الأخلاقية.

لكن الباحث العربي برهان غليون يردها في مقاله التحليلي عن أزمة الخليج إلى أسباب نفطية!

فقد رصد مراكز الأبحاث التي مولتها دول النفط وعددها ١٥٤ مركزًا واتهمها جميعًا بإفساد النخبة العربية.

فهي التي أغرقت الباحثين في البحث العلمي وتجاوز معاييره ومناهجه، فليس مهمًا أن يلتزم الباحث بمضمون البحث لكن المهم أن يكون واحدًا من المستفيدين خاصة لو كان الباحث يساريًا.

وهكذا غابت الضوابط، وانتف ت المح ددات، وتفش ت الظاهرة على هذا النحو الدرامي.

كان شاعرنا العظيم عبد الحميد الديب يتهم كبار ش عراء عصره بسرقة أشعاره، ولم يكن أحد يصدقه!

وكان يبكي في قصائده ويقول:

بين النجوم أناس قد رفعتهموا

إلى السماء فسدوا باب أرزاقي

الآن يجب أن نصدق الديب ونرد له الاعتبار، فاللصوص ليسوا وقفًا على مراكز النفط، لكنهم من قبل ذلك بكثير!

أغلى من السلاح

في ألمانيا اشترى ناشر ش اب ح ق الطبع ة الأربع ين لمؤلفات الشاعر الشيوعي برتولد بريخت.

والطريف أن الناشر الشاب كان ق د ورث ع ن وال ده مصنعًا للسلاح، وبحسبة اقتصادية أدرك أن مؤلفات بريخت أكثر ربحًا من تجارة السلاح.

والطريف أيضًا أن الناشر الشاب ليس شيوعيًا!

وفي فرنسا شهدت المحاكم الفرنسية أغرب نزاع قضائي بين الحكومة والحزب الشيوعي الفرنسي، فقد قام الحزب باحتكار جائزة الشاعر الشيوعي لويس أرجوان، ودعا المشاركين من جميع أنحاء العالم على نفقته.

وثارت الحكومة الفرنسية وغضبت من هذا الاحتكار، لأن لويس أرجوان ليس ملكًا للحزب الشيوعي وحده، لكنه ملك لفرنسا كلها واتهمت الحكومة الحزب الشيوعي «بالاعتداء»على الروح القومية الفرنسية.

أما في كاليفورنيا فقد بيعت إحدى لوحات الرسام الثائر جوبا بأربعين مليون دولار!

كل هذا يحدث رغم انهيار الأحزاب الشيوعية.

فالإبداع الإنساني ليس رهنًا ببقاء الحزب الشيوعي أو اندحاره، وسيظل بريخت أغلى من السلاح.

ملحوظة:

هذا الكلام لا علاقة له بانتصار الشيوعيين في بلوندا وليتوانيا، أقول ذلك حتى يطمئن المفزوعون من كتابنا اليمينيين.

انتهت الملحوظة.

أيام في حدائق الرايخ الرابع

في ألمانيا، لن تلمس سوى الصمت والخضرة والتناقضات المنظمة!

ستون حزبًا وثمانون قناة تليفزيونية وخمسمائة نوع من البيرة!

هنا العنف والجنس والنظام وفوضى الروح والأرض مكسوة بالخضرة كالقطيفة.

هنا التأمينات الشاملة والضرائب التي تصل إلى ٥٠% من دخل العامل والفزع من فقدان الوظيفة!

في إعلانات الصحف، تبحث المرأة عن رجل بمواصفات معينة في الطول والعرض والارتفاع لمدة يومين في الأسبوع!

وفي التليفزيون تشهد أعنف مواجهة بين المذيع وأحد سجناء الجيش الأحمر الألماني المحظور.. يقول السجين: «أنا لست سجيناً لكنني أسير حرب وأطلب معاملتي على هذا الأساس» ويرد المذيع: «لكنك تحمل السلاح في مواجهة الدولة؟» فيقول السجين: «أنا في حرب مع قوات الاحتلال

وليس الدولة، فكيف تتحدث عن دولة محتلة من أربع دول أجنبية؟».

في افتتاحية إحدى أكبر صحف ألمانيا، كتب رئيس التحرير يقول إنه قرر التمرد على هذا النظام الصارم، فألقى بسيارته وراح يتسكع في شوارع المدينة، ورأى الناس وهم في طريقهم إلى العمل يرتدون الملابس الأنيقة ويتمتعون بصحة جيدة لكنهم لا يبتسمون!

إنهم يعانون من الاغتراب، ومن ثم فهو – رئيس التحرير– يحذر حكومته من شبح كارل ماركس الذي يدق على أبواب ألمانيا بقوة!

إنه مجتمع الوفرة والنُدرة في آن واحد.. مجتمع الثراء والتعاسة الروحية والوحدة التي تأكلك على حشائش الرايخ الرابع!

فمنذ أن سقط الرايخ الثالث وألمانيا تعيش الحزن والتمرد المكتوم، لكنها لم تفقد قوميتها أو نزعتها النازية.

فالأحزاب المتطرفة تدعو لقتل الأجانب وعددهم ٦ ملايين منهم ٥ ملايين تركي!

والنازيون الجدد ضد وحدة ألمانيا وضد الانضمام لأوروبا الموحدة وضد كل ما هو غير ألماني!

قال محدثي الألماني المتعصب: لقد منحت مصر العالم فن المعمار والنحت، كما منحت ألمانيا العالم فن الموسيقى والفلسفة.. لكن انظر ماذا منحت فرنسا العالم؟ إنها مجرد دولة كاثوليكية مُتخلفة!

يا نهار أسود!.. فرنسا مُتخلفة من وجهة نظر هذا الألماني.. تصوروا!

عندما وصلت إلى مدينة «هايدلبرج» كانت المعركة لا تزال مشتعلة بين الحكومة والفلاحين، فالحكومة تتهم الفلاحين بالتوسع في إنتاج المحاصيل مما يشكل وفرة مربكة للاقتصاد الألماني.. والفلاحون يتهمون الحكومة بعدم القدرة على استيعاب الإنتاج الزراعي.

وهكذا..

معركة من نوع غريب وسوف ينتهي الأمر بالتخلص من المحاصيل الزائدة إما بالحرق أو بإلقائها في المحيط حتى لا تتأثر الأسعار العالية.. تمامًا كما حدث في هولندا عندما ألقت ملايين الأطنان من الزبد في المحيط.. وكيف سخر فن

الكاريكاتير من هذه الفضيحة حيث صور رسام الكاريكاتير سمك المحيط وهو «يغط» في الزبد، في الوقت الذي بلغ فيه متوسط دخل الفرد في هاييتي ٣٠ دولارًا سنويًا، ويموت غالبية السكان من الجوع.

إنه التناقض المنظم والمحكم كما أسلفنا.

ورغم مرور خمسين عامًا على هزيمة ألمانيا إلا أنها لا تزال تدفع الثمن.

فقد دفعت ملايين الدولارات لقوات الاحتلال الأربع: انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا.

ودفعت ملايين الدولارات في حرب الخليج، وعندما أذاعت الصحف الغربية صافي ربح الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج- ويبلغ ١٣ مليار دولار - انتفض المجتمع الألماني كله وتساءل «وماذا ربحت ألمانيا إذن؟ وإلى متى تستمر الولايات المتحدة في خداع الجميع والكذب على الجميع والربح من الجميع».

أسئلة تؤرق المجتمع الألماني لكنها مكتومة وحزينة وغائرة.

لكن هل ستبقى ألمانيا ضرعًا لأمريكا وأوربا الموحدة؟

يقول الجمهوريون «لا» فهم عصارة الروح البروسية، ويقول الجيش الأحمر «لا» فهم أحفاد نيتشه وشبنجلر وفاجنر وكارل ماركس.

وتقطع الغابات والحدائق بأن حوائط الرايخ الرابع سوف تنهض من جديد على جثث الأجانب وقوات الاحتلال وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا.. المتخلفة!

الشعب الذي لا يحتمل

سخرت جريدة «التايمز» البريطانية من قرار رئيس الرقابة المصري حمدي سرور لمنعه عرض فيلم «قائمة شندلر».

فقد رأى الرقيب أن الشعب المصري شعب رقيق لا يحتمل مشاهدة مقتل أكثر من ثلاثة أفراد فقط بينما يحتوي الفيلم على مشاهد قتل جماعية مما يجرح وجدان المصريين.

أما السبب الثاني كما يرى الرقيب فهو احتواء الفيلم على مشاهد عارية!

وقد نشرت الجريدة انتقادها لقرار الرقيب تحت عنوان «الشعب لا يحتمل»!

والغريب أن السبب السياسي لمنع عرض الفيلم كان كافيًا تمامًا دون التعلل بهذه الأسباب الخائبة.

فالفيلم صهيوني النزعة والتوجه والهدف والرسالة، إلا أن الرقيب ترك كل هذا وراح يمسك بأسباب مضحكة.. فما جدوى الحديث عن العنف أو العرى في عصر «الدش» والقنوات الخاصة، ما هي حكاية «المشاعر الرقيقة» التي يتحدث عنها الرقيب؟

والطريف أن الفيلم موجود في مصر، وشاهده عدد كبير من المثقفين، وهو مطروح الآن في أسواق أوروبا على شريط فيديو، لقد خشي الرقيب من ذكر الأسباب السياسية، فجاءت النتيجة لغير صالحه ولغير صالح الرقابة والديمقراطية.

الحوار

عندما قرر الخديوي إسماعيل إنشاء برلمان مصري استكمالاً لحلمه الأوروبي، صاح به محدثه الإنجليزي: «يا أفندينا.. الديمقراطية تبدأ كلامًا وتنتهي بجد»!

وبالفعل لم يمض سوى عامين وانقلب البرلمان «جدًا» وأصبحت الديمقراطية «بحق وحقيق» حتى أن الخديوي

استعان بمعارضة البرلمان في مواجهة الإنجليز، وشهدت مصر أرقى صور الحياة البرلمانية بمعناها العميق.

شاعر اللوعة الأنيقة

رحل مأمون الشناوي آخر الظرفاء، وأول شعراء الأغنية المطبوعين.

سبيكة نادرة من الرقة والحساسية وخفة الظل ومرح الصورة الشعرية.

كوكتيل من البساطة والعذوبة والرشاقة والعمق، إذا تحدث أحسست بإيقاعه وإذا كتب الشعر ظننت أنه يؤثرك به، ويناجيك وحدك.

والمعنى لدى مأمون له أكثر من وجه، وأكثر من بعد، وأكثر من ظل.

ففي أغنية «من قد إيه كنا هنا» يرسم مأمون للنسيم والحبيب، وما بينهما صورة «والنسمة بتودّيني عليك» «وتعطفك تاني عليا».

فلا تدري من يعطف من: النسيم أم الحبيب أم كلاهما؟

ومأمون أنيق في لوعته، لا ينكسر تمامًا أمام الحبيبة، ولا يبوح لها، إنه يشير ويومئ ويتخفى وراء الحكمة، ويسـ تتر وراء الطبيعة من لهيب العاطفة.

يقول مأمون في رائعة أم كلثوم: «كل نار تصبح رمـ اد مهما تقيد إلا نار الشوق يوم عن يوم تزيد».

ويتألف مأمون في رسم الصورة الحركية التـ ي تحسـ ها وتشاهدها وتلمسها من خلال كلمات عادية بسـ يطة، لكنهـ ا تشكل صورة قوية الملامح والقسمات.

ففي أغنية نجاة يصف مأمون حاله:«ناديت عليـ ك لا رد صوت ولا صدى ناديت وتعبت مـ ن طـ ول الـ دا.. استناني».

مشهد عاطفي متكامل الأبعاد والأركان، فيه التودد وفيـ ه الكبرياء.

ويُعتبر مأمون من أقدر الشعراء على وصف «الحيـ رة» فهو مرتبك دائمًا أمام الحبيبة، ونحن أيضًا نتبعه فـ ي هـ ذه الحالة الغريبة من التفكك والتشوش والانقسام.

يقول مأمون: «اللي حيرني واللي غيرني فاتني في حال، نام وسهرني ولا فاكرني ولا مش ع البال».

قدرة هائلة على الإمساك بالتفاصيل وهي تفضي من صورة إلى صورة ومن حال الحال. هكذا كان مأمون بسيطًا أو موحيًا ونافذًا، ومؤثرًا.

صادق الحس بديع التكوين تحس أن الكلمات لديه ألوان وظلال ومساحات.

عم مأمون، إلى اللقاء.

تجريد أم تهريج

رفضت شركة تأمين «لودز» البريطانية التأمين على مجموعة لوحات لفنان تشكيلي مصري شهير، واللوحات موجودة ضمن مقتنيات مليونير مصري يعيش في لندن، واللوحات تنتمي لمدرسة التجريد.

قال خبراء الشركة إن لوحات الفنان الشهير والحائز على جائزة الدولة التقديرية، مجرد «تكوينات زائغة» وهذيان لوني وغياب كامل للرؤية والمعنى والرسالة الفنية، ولا شك أن هذه فضيحة بكل المعاني.

فهذا الفنان الذي يظهر على الناس في التليفزيون، ويتحدث في شئون الفن وأزمات المرور والتطرف الديني، هذا الفنان يعبث بنا وبمشاعرنا وأحاسيسنا.

فلسنا ضد التجريد في الفن، لكننا ضد «التهـ ـريج» كمـ ـا يقول الفنان حسن سليمان «فالتجريد قيمة وإيقاع، والفن غير الغموض والهذيان، والتمرد ليس نفيًا للقـ ـانون، لكنـ ـه فهـ ـم أرحب وأكثر اتساعًا مما هو عليه».

وقد انتشرت في الآونة الأخيرة هذه الألاعيب غير الفنية، وأصبحت المعارض لا تحتمل، لقد عشنا زمنًا كانت اللوحـ ـة فيه أكثر تأثيرًا من طلقات الرصاص.

ففي أواخر الأربعينيات رسم عبد الهادي الجـ ـزار لوحـ ـة «الجوع» أو «الأطباق الفارغة»: مجموعة من الناس تلتـ ـف حول مائدة أطباقها فارغة وألوانها شاحبة.

وعلى الفور أصدرت قوات الاحتلال الأمر بالقبض على اللوحة ورسامها.

وتم تحرير محضر بالواقعة وإصدار قرار اتهـ ـام ضـ ـد الرسام، لأنه "يثير الفتنة.. ويؤلِّب الطبقـ ـات بعضـ ـها فـ ـوق بعض».

ويروي الناقد الفنان صبحي الشاروني تفاصيل الواقعة في كتابه الفريد والوحيد «عبد الهادي الجزار» وكيـ ـف تـ ـدخل صديقه الفنان محمود سعيد لإنقاذه من السجن.

زمن آخر.. وفن آخر.. وفنانون آخرون لم يعيشوا معنا زمن الحزب الوطني وحواراته القومية، ولا شعراء الحداثة، ولم يشاهدوا مذيعات التليفزيونات ولم يقرأوا مقالات رؤساء تحرير الصحف الحكومية.

زمن آخر، وفن آخر، فاغفر لهم يا عبد الهادي الجزار فإنهم لا يرسمون!

(الأهالي: ١٣/٧/١٩٩٤)

قبل أن أصبح سفاحًا ديمقراطيًا؟

هذا حديث عن الجنس.. فلا تجزع!

نحن الآن في صحبة الكاتب الأمريكي هنـ ـري ميللـ ـر.. أجرأ وأشجع وأعمق كاتب عرفه القرن. فالجنس عند ميللـ ـر يعني الحب والرفض والتمرد والهدم، يعني اللـ ـذة والألـ ـم.. باختصار يعني الحياة.

وميللر يكتب عن حياته، فهو موجـ ـوع القلـ ـب والـ ـروح والجسد.

يكتب ليوخزك لا ليثيرك، ليؤلمك ويقلقـ ـك فلـ ـم تعـ ـرف أمريكا كاتبًا جرّدها من ثيابها ومزق علمهـ ـا وسـ ـخر مـ ـن روحها ودستورها وتمثال حريتها، كما فعل ميللر.

وفي رواية «الوشيجة.. الصلب الوردي» يكتب ميللر عن حياته وعن أمريكا، فلا نعرف من أي عمق يتحدث، ومن أي جرح يئن ويصرخ.

في أمريكا «أنت لست في حاجة إلى ارتكاب جريمة لكي تكون مجرمًا، «فنحن» منحطون ولكن ليس بما فيه الكفاية».

كذا يبدأ ميللر رحلته، أنه يعـ يش مـ ع فتـ اتين.. موذـ ا وستاسيا، إحداهما رسامة والأخرى راقصة.. ويظن ميللر أنه ثمة علاقة شاذة بين الفتاتين، لكنه لا يهتم بذلك، فهو يضاجع إحداهما وهذا يكفي!

وميللر ثائر حقيقي ورافض لمجتمعه، يحلم بيوم «سـ وف يفرغ أمريكا من سكانها ويعيدها للهنود الحمر»، فهو لا يرى في أمريكا سوى «جمهرة من السكان» إنهم ليسـ وا شـ عبًا، فالشعوب نتاج حضارة وأمريكا مجتمع لقيط يتلاقى فيه الناس كغرباء تفترسهم الوحشة وتسلمهم الوحدة للجنون.

في لقائه بصديقة المحامي يكشف ميللر عن عمق ثقافتـ ه، فهو يتحدث عن ديستويفسكي وكيـ ف وجـ د خلاصـ ه فـ ي المسيح، فراح يؤنسه حتى صار أكثر ألوهية!

إنها المفارقة التي استبدت بديستويفسكي، وعندما يتحـ دث عن الفيلسوف الجبار شبنجلر يتحدث عن خصائص الشعوب وروحها المتأججة وحضارتها الشامخة التي لا تعرف أمريكا شيئًا عنها.

إن ميللر يصم المجمع الأمريكي بالجهل والحيوانية، فمـ ا أبعد المسافة بين «السكان» «والشعوب»!

وميللر يتعذب بالكتابة ويحاول أن يجد إجابة عن سـ ؤاله الدائم: «لماذا نكتب»؟

إننا نكتب لأننا لم نتحدث بعد، فنحن موجودون فقـ ـط. أن نكتب فهذا يعني أنك في قلب التناقض وبين ساحلي الصراع، أن نكتب فإن لديك ما نقوله، ومن أجل ذلك يتسكع ميللر بين الحانات والوجوه المكدودة والقلوب الضائعة.. بين العاهرات والشواذ واللقطاء من كل لون وجنس.

«أعطونا مجتمعًا فيهـ ـا شـ ـعراء ورسـ ـامون.. أعطونـ ـا عروضًا مسرحية لا استعراضات عسكرية.. أعطونا مجتمعًا نصافح فيه بودلير ورامبو وفان جوخ، فأنا لا أريد أن أصبح سفاحًا ديمقراطيًا».

ونعود للجنس، فالمرأة التي أحبها ميللر هي كـ ـل امـ ـرأة أعوزتها الحياة ودفعت بها إلى شاطئ الرذيلة، فهذا مجتمـ ـع تجرد من الرحمة وآمن بالاستغلال، فما حيلـ ـة مونـ ـا التـ ـي تحاول أن تصنع تمثالاً ولا تجد طبق الحساء الساخن؟!

ما حيلة ستاسيا وهي تجاهد أن ترقص وكـ ـل بصـ ـمات أصابع الرجال الخشنة على جسدها المتعب.

لا المساحيق ولا بدلة الرقص الرخيصة تستطيع أن تخفي ذلك.

يقول ميللر: «غص في العمق ولا تصعد أبدًا».

إنها مهمة ميللر المقدسة أن تغوص في الواقع حتى تصل إلى أبعد نقطة، حيث الدناءات والسفالات والجرائم.

إنها كارثة الوجود الإنساني كما يعيشها ميللر، فليس هناك ما يخفيه، والكاتب الذي لا يعي حقيقة ذاته ومجتمعه، لـ يس كاتبًا، إنه موجود فقط، لكنه لم يحدث أبدًا!

إن المأساة عند ميللر تكمُن في تلك المواجهة بين الكلمـ ة والفعل، فهو لا يملك سوى فضح وتعرية مـ ا يجـ رى مـ ن حوله، فهل هذا كاف؟

يقول شبنجلر عن رجالات الكلمة: «أولئك الذين يملكـ ون من العدل أكثر مما يملكون من القوة، ويملكون من الحقـ ائق أكثر مما يملكون من الوقائع»، ومن تتبـ ع سـ خرية ميللـ ر وتهكمه الجارح، فما حيلته وهو يملك الحقيقة ولا يملك القوة! إنه مفلس، جائع، ضائع، متسكع لا يرى في حياته سوى دليل اتهام على انحطاط المجتمع ووقائعيته!

من أجل ذلك صلب المسـ يح والحـ لاج، وقطعـ ت رأس الحسين وجيفارا، وانتحر هيمنجواي وتينسي ويليامز.

والآن لماذا ميللر؟

لأن ميللر يشبهنا، فهو وحيد في مواجهة آلة الفساد الكبيرة المنظمة، وهو شاهد على سحق الروح الإنسانية تحت وطـ أة مجتمع فاجر لا يقدم للعدالة وزنًا ولا يصغى لصوت الحقيقة في أعماقه.

لقد ظلت كتابات هنري ميللر ممنوعة من التـ داول فـ ي أمريكا حتى عام ١٩٦١ بدعوى الإغراق في الجـ نس، ولـ م يكن الأمر كذلك، فميللر ينشد الحريـ ة الحقيقيـ ة لا حريـ ة السوق، والاحتكارات الضخمة، وينشد العدل وليس أصـ وات الكونجرس، من أجل ذلك عاش ميللر منبوذًا مرفوضًا.

ومن الطريف أن ميللر لـ م يكتـ ب إلا بعـ د أن تجـ اوز الأربعين، فقد ظل متهيب الكتابة حتى أدركتـ ه الشـ يخوخة، وظل يحتشد طوال السنوات ليكتب روائعه وهو على مشارف الخمسين.

ومن الغريب أن ميللر يعترف في كتابه «رامبو وزمـ ن القتلة» اعترافًا خطيرًا. فقد تعرف على أشعار رامبو وهـ و

في الخمسين من عمره، لأنه كان يشك في عبقرية هذا الصبي الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وعندما قرأ أشعاره أصابته صاعقة لم يبرأ منها إلا بكتابة كتابه الفريد «رامبو وزمن القتلة».

يقول ميللر: «لو قرأت أشعار هذا الصبي العبقري في مطلع حياتي، لما جرؤت على الكتابة طيلة عمري!».

مرة أخرى: لماذا ميللر؟

إن ميللر وكتاباته دروس في فن الكتابة وعذابها، فهو يحسد هؤلاء الكتاب الذين لا يتعذبون في كتاباتهم فتجيء مثل «شوربة الخنزير الباردة»، وما أكثر هؤلاء الكتاب في بلادنا.

يقول ميللر: «عندما تسوء أحوال المرء لا يبقى أمامه سوى القتل أو الانتحار، وعندما يعجز عن ذلك يصير مهرجًا». وهذا ما فعله بالضبط.. لقد سخر من نفسه ومجتمعه وحياته وظل متمردًا عنيدًا مهرجًا لا يرى في الاحتكارات الضخمة سوى «آلة لذبح الروح»، ولا يجد في حرية أمريكا سوى حريتها في استغلال الشعوب، ولا يرى في تمثالها سوى كاريكاتير من الرخام الفارغ.

ما بعد ميللر

ما إن فرغت من قراءة هنري ميللر حتى قررت أن أكتب رواية!

لقد كتب ميللر عن حياته وعذابه ووحشيته ودهشته، وأمسك بتناقضات وجوده، فلماذا لا أفعل مثله، ورحت أحتشد وأجمع مادة الواقع، فكل ما حولي ينطق بالفساد: الكتابات الرديئة، الصحف القومية، مقالات النقاد الحداثيين، آراء المذيعات على الشاشة الصغيرة، أفلام المقاولات، تصريحات الوزراء، جرائم الأطباء، مافيا المحامين، الأناشيد الوطنية عن مصر وتوشكى، وعروض المسرح القومي، كلها مادة غنية لصنع رواية جيدة.

وبالفعل أعددت المادة ورحت أقرأ الصحف، فلم أستطع القراءة وأدركت أن القارئ سوف يتعذب معي، وأن الرواية سوف تكون سخيفة وغير ممتعة، وكلما أمسكت بمادة من مواد الرواية أصابني الغثيان فما بال القارئ المسكين!

قلت لنفسي: أنت لست روائيًا فلتجعل من هذه المادة الغنية قالبًا مسرحيًا جديدًا، وبالفعل أعددت شخصيات المسرحية من الكُتاب والنقاد والمذيعات وشعراء الحداثة وقررت أن أعريهم

في الفصل الأول وأسخر منهم في الفصل الثـ ـاني وأقـ ـبض عليهم في الفصل الثالث، سوف أحتجزهم في قسم الشـ ـرطة ولن أفرج عنهم أبدًا، واسترحت لهذا الشـ ـكل الجـ ـذاب مـ ـن الكتابة إلا أني تنبهت للرقابة وأجهزتها، فلن تتركني أسـ ـخر على هذا النحو من المذيعات وجميعهن أبناء مسئولين كبار، أما النقاد فسـ ـوف يصـ ـرخون علـ ـى صـ ـفحات الصـ ـحف ويتهمونني بالإرهاب. ولجأت لحيلة فسـ ـوف أجعـ ـل زمـ ـن المسرحية في العصور الوسطي ومكان المسرحية فـ ـي بلـ ـد نحن على خلاف معه ولتكن العراق أو إيران أو السـ ـودان، وهكذا تمر المسرحية من الرقابة، تبقى مشـ ـكلة العـ ـرض، فالمسارح مملوكة للدولة ومن ثم سوف ترفض الدولة مبـ ـدأ السخرية حتى لو كانت المسرحية مجازة رقابيًا.

وهكذا أغلقت الملف ولم يبق سوى مشكلة هذا المقـ ـال.. فهل يمر على خير.

أتمنى ذلك.

جائزة يوسف إدريس

الضجة المثارة حول منح الجامعة الأمريكية جائزة الاسم الراحل الكبير يوسف إدريس، إنما تدل على مدى التهافت الذي بلغته حياتنا الثقافية، فبدلاً من انتهاز الفرصة للاحتفال بيوسف إدريس وأثره البالغ في حياتنا راح حفنة من الكُتاب والنقاد يتهمون الجامعة الأمريكية وأعضاء لجنة الجائزة وزوجة الكاتب الكبير بـ «الإمبريالية» هل هذا معقول؟

لقد احتفلت بريطانيا بمرور مائة عام على محاكمة أوسكار وايلد، وأعادت طبع كل ما كتب بخط يده في طبعات أنيقة، كلك فعلت فرنسا مع شاعرها المعجزة رامبو، لم يشكك أحد في بريطانيا كلها في جدارة أوسكار وايلد، ولم يشتم أحد في فرنسا زوجة رامبو على الرغم من أنه لم يتزوج!

والحكاية تتلخص في أن محترفي «الإبداع الإعلامي» كانوا يريدون الجائزة لأنفسهم بدعوى «أن الحي أبقى من الميت».

إلا أنهم لم يعرفوا أن يوسف إدريس حي وباق ومؤثر رغم ضجيج «المبدعين الإعلاميين» وأعمالهم الكاملة المطبوعة بأموال دافعي الضرائب.

باقة ورد على ضريح يوسف إدريس. وتحية خاصة لزوجته وأفراد أسرته، ولعنة آخر العام على هؤلاء الأدعياء المتهافتين.

(الأهالي: ١٩٩٧/١٢/٣١)

نيجاتيف وثلاث صور غائرة

هكذا أصبح المثقفون ظاهرة بحثية..

وتوالت الكتب والأبحاث والدراسات الخاصة لبحث م ن هو المثقف؟ وما هي علاقته بالسلطة والمجتمع والحياة؟ وما هو تأثيره في الحاضر والمستقبل؟

فمنذ أن كتب إريك بنتلي كتابه الش هير ع ن المثقف ين والبحث لا ينقطع. فالمثقفون هم الأساس الفك ري لمختل ف التيارات السياسية والاجتماعية والوطنية، وهم صُناع الطغاة الذين يكتبون خطب الزعماء وينظرون للاتجاهات المعادي ة لجموع الشعب، هم الذين يكدحون بـ أدمغتهم لـ دفع حرك ة المجتمع إلى الأمام. هم الخونة والقديس ون، وه م الث وار وأعوان السلطات، وهم الضمير والارتداد.. هم المخطئ ون والمبررون لخطاياهم.

رأينا شاعرًا كبيرًا مثل إزرا باوند يؤيد الفاش ية ويمج د موسوليني، وبكينا شاعرًا مثل لوركا حارب الفاش ية ودف ع حياته ثمنًا لذلك!

ورأينا روائيًا فذًا مثل جون شتاينبك يؤيد حـ رب فيتنـ ام ويلوث تاريخه الأدبي كله حتى أن اتحاد الكتاب الأمريكـ ي يرفض أن يلف جثمانه في علم البلاد «المقدس»!

وتقطعت قلوبنا حزنًا على مثقف كبير مثل فرانز فـ انون الذي آمن بثورة الجزائر، فذهب إلى خنادق الثـ وار طبيبًـ ا ومحاربًا، ودفن في مقابر الشهداء الجزائـ ريين بنـ اء علـ ى وصيته!

من أجل ذلك راح الباحثون يفحصون ظاهرة «المثقـ ف» ويقيمون المؤتمرات العلمية للتعرف على الأساس الاجتماعي والمعرفي والتاريخي لهذا الكائن الفريد!

وكانت آخر تجليات هذا الانشغال بحث طريف قدمـ ه د. على فهمي في مؤتمر "الانتلجنسيا العربية" المثقفون والسلطة في عمان عام ١٩٨٧.

البحث بعنوان «المثقف بالسماع فـ ي مصـ ر.. محاولـ ة للرصد». فقد هال الباحث ظاهرة «المثقف بالسـ ماع» التـ ي انتشرت في السنوات الأخيرة من خلال الندوات واللقـ اءات الفكرية، التي تعددت إلى حد يثير القلق!

فيبدو أن ثمة علاقة طردية بين الخواء الفكري والثقافي والسياسي من جهة، وتزايد الندوات والأحاديث والجعجعات من جهة ثانية!

يصف الباحث «المثقف بالسماع» بأنه مسرفٌ في الحديث متقعر، متحذلق، يردد الشارد والوارد من المأثور دليل ثقافة وعنوان حكمة، مقتحم، جريء في مداخلاته، لديه سيولة لفظية، متنطع، انتهازي، يمتلك القدرة على الالتقاط ويعيد الحديث الشفوي بعد عمل المونتاج!

ثم ماذا.. إذ كان «للمثقف» اسمان.. هل تبرق المسألة؟!

صورة أولى.. رسالة مغلقة!

ويظل بيننا الشوق مدناً تتسع وتخلو من أهلها.. يظل الحنين شجرة تطرح أسئلتها حول غياب المعنى ومعنى الغياب.. أتذكر كيف حاولت ذات يوم رسم منزل ابن خلدون بالدراسة.. أتذكر أسئلتك العذبة.. هل كان هملت سريالياً؟ هل يمكن رسم الحيرة باللون الأزرق؟ هل كان علينا أن نعشق كل شيء إلا ذواتنا!

نظرت في مرآتي فوجدت وجهي ناقصًا.. أنا لم أعد أنا!

الجميع ينتظر: اللوحة.. الفرشاة.. موسيقى بيتهوفن الهادرة.. النشر المحنط (أتذكره) كتاب الموتى وجه إخناتون كما رسمته.. فنجان القهوة الخزفي.. وأنا!

تعاويذي ليست ملحدة.. لكنها تاريخية!

كيف أمضي بك الآن من بوابة النصر دون أن يراني المماليك، والشطار، والبصاصون وأصحاب المتاجر؟

كيف يا أميري النائم؟ كيف؟!

صورة ثانية.. مرثية للزهو!

في الجامعة.. كنا نتعالى على أبناء الأغنياء رغم فقرنا الشديد، لأننا متفوقون، وحصلنا على درجات كبيرة في الثانوية العامة تؤهلنا لدخول كليات الاقتصاد والعلوم السياسية والإعلام وغيرها.. وكان أبناء الأغنياء في الكليات المجاورة، التي كنا نعتبرها أقل من كلياتنا، يقبلون هذا التعالي ويوافقونا على أننا أفضل منهم علميًا وثقافيًا، وعشنا بهذا الزهو سنوات الجامعة، فلولا مكتب التنسيق لما تحقق لنا هذا الزهو. كنا نشعر بعدالة ما، هم يملكون المال ونحن نملك الحلم والتفوق، الآن وبعد أن أصبح مكتب التنسيق آخر صروح العدالة في مجتمعنا، مهددًا لأن الذين يملكون المال

نجحوا في الالتفاف من حوله وتسربوا إلى كليات القمة م اذا يفعل الفقراء إذن؟ وكيف يتسنى لهم الإحساس بالمجد والتميز ما دام المال وحده قادرًا على شراء المجد والحلم والزه و؟ كيف لهم ذلك وهم معدمون؟

لقد فزع قلبي مرتين.. الأولى عند ما اهتزت العدال ة والثانية عندما فقدت زهوي!

صورة ثالثة.. قبل أن يتنبه التاريخ

عرفته في سنوات المطاردة.. كان شاعرًا ورسامًا يقط ن في منطقة معزولة شمال مدينة السويس.

يتحدث عن البحر والحب والأدب، ويكره السياسة رغ م انشغاله بها في تلك الفترة!

وكلما التقينا أخرج قصائده من جيبه، وتلاها بشكل غريب حتى أن ملامحه كانت تتغير، وعينيه، أحس – أنهما انتقلت ا من مكانيهما، ثم يتحدث عن مشروعاته المس تقبلية.. مث ل إخراج فيلم سينمائي عن السويس كما يعرفها هو.

ثم يأخذني إلى مرسمه النائي لكي أشاهد رسوماته الجميلة للبحر، واستيقاظ الشمس، وكيف ظل ساهرًا لكي يصطاد هذه اللحظة الفريدة ويرسمها بالألوان الساخنة. أما آخر حبيباتـ ه

فقد رسم لها لوحة سوف تقف بجوار الموناليزا عندما ينتبه التاريخ لعبقريته!

وهكذا عشت سنوات أتردد عليه، وأحب أحاديثه وأشعاره ورسومه وأحلامه.

وغبت سنوات.. ومرت ثلاث حروب وعدت إليه في مرسمه البعيد، وفي، إنه لا يزال في مكانه.

وعانقت صديقي عناقًا حارًا، وعلى الفور أخرج من جيبه قصائده، وراح يتلوها بشكل غريب، ثم أطلعني على لوحته الأخيرة للبحر، وروى كيف ظل ساهرًا حتى يقبض على لحظة الشروق والاستيقاظ، وجاءت لوحة آخر حبيباته وأكد لي بلهجة قاطعة أنها سوف تأخذ مكانة في متحف اللوفر بجوار لوحات سيزان ومافيه وفان جوخ، وأنه سوف ينتظر في هذا المرسم النائي حتى ينتبه التاريخ!

(الأهالي: ١٩٩١/٨/٢١)

أكتب و «أتحبس» أنا!!

الحكومة لا تحبس الصحفيين فقط، لكنها تحبس القراء أيضًا!

وهذه ليست سخرية من الحكومة ولا «ازدراء» بها فهذا ما جرى للقارئة آمال عبد الرحيم التي تجرأت على نشر رسالة في جريدة «عقيدتي» ضد أحد «أصدقاء» العفاريت الذين يزعمون مصاحبة العفاريت، فقضت المحكمة بحبسها ستة أشهر!

فالمطلوب أن يصمت الصحفيون والكتاب والقراء، وأن يستمعوا فقط لإعلام الحكومة وكتاب الحكومة وكل ما تقوله الحكومة! فإذا كانت الحكومة تؤمن بوجود العفاريت فلا يصح لآمال عبد الرحيم أو أية «آمال» أخرى أن تشكك في هذا الإيمان وتجرح قداسته!

فنحن المصريين «عفاريت» بطبعنا، وقد حققنا «المعجزة الاقتصادية» وأصبحنا «نمر على النيل» يشهد على ذلك إعلامنا القوي وقمرنا الصناعي المعلق في الفضاء!

والحكومة قوية بطبيعتها، فهي تعترف بالفساد ولا تقاومه لأنها حرة ولا تخضع لسيطرة أحد ولا تستجيب للضغوط من أي نوع.

وكنا نظن أن المنافسة الإعلامية في قنوات الدش المختلفة، سوف تشعل نار الغيرة في إعلامنا كي يتطور وينفتح، لكن ما حدث غير ذلك، فقد رفض الإعلام المصري المنافسة وتحولت المذيعات إلى معلقات سياسيات ومبشرات بعظمة وسعة أفق السيد وزير الإعلام فلا يوجد برنامج واحد عن البيئة أو الآثار أو ارتباكات المرور أو البورصة، إلا وتحدثت المذيعة مع ضيوفها عن عبقرية السيد وزير الإعلام.

ونحن لا ننازع السيد وزير الإعلام في تليفزيونه، فمن حكم في قنواته ما ظلم، لكننا نشاهد ونراقب ونصمت حتى لا تفاجئنا الحكومة بحبس المشاهدين أيضًا.. يجب إذن الابتعاد عن أية قضايا جادة، وأن نكتب فقط عن إنجازات الحكومة ومعجزاتها ولو تأملت الصحافة الآن لوجدتها صورة متطورة باللون والإبهار والسطحية حتى لا يخضع أصحابها لطائلة القانون.

فلو أردت أن تعرف ما يجرى في أندونيسيا م ثلاً، فل ن تجد شيئًا في التليفزيون أو الصحافة أو أية وسيلة للإعلام في بلادنا، ولن تجد سوى الإعلانات الملونة والبرامج التافه ة، وكأن ما يجري خارجنا لا يهمنا ولا يعنينا.

وكنت عازمًا أن أحدثك عزيزي القارئ عما ج رى ف ي هذه الجزر الحزينة المسماة «أندونيسيا» وعدت لكتاب نع وم تسومسكي – مفخرة القرن وضميره «خمسمائة وواحد س نة والغزو مستمر» روى فيه جذور المأساة الإندونيسية وكي ف نجح الغرب وال . «سي. آي. إيه» والصحافة الأمريكية دورًا شريرًا خبيثًا في تضليل الرأي العام.

كنت عازمًا على أن أحدثك عن هذا كله وأكث ر، لكنن ي خشيت أن يأتي الحديث ثقيلاً مملاً وحزينًا أيضًا.

وربما يقودنا بشكل غير مباشر إلى السجن! لق د ق دمت برامج التليفزيون العربية الإخبارية منها والدرامية، ب رامج وثائقية مدهشة بمناسبة مرور ٥٠ عامًا! على نشأة إس رائيل ولم تهتز قنواتنا الإعلامية لذلك، بل استمرت ف ي خطته ا الإعلامية «الضاربة» وشاهدنا مخرجًا سينمائيًا وأستاذًا لمادة الإخراج بمعهد السينما يتحدث عن رؤيته «للدمعة الح ائرة»

في عيون وزير الإعلام أثناء انطلاق القمر.. إنها لحظة تاريخية حدثنا عنها المخرج وأستاذ الإخراج طويلاً، وتمنى لو أعد فيلمًا عن وزير الإعلام في سترته الفضائية ممسكًا بمنظار كبير وهو يتابع انطلاق القمر في فضاء الله الواسع!

لحظة مزدحمة بالمجد وعبور القرن واقتحام العصر تجسدت في الدمعة الواقفة في عين وزير الإعلام.

ومن آيات الإعلام المصري أن يتحدث سمير صبري مع ضيوفه ويلقي عليهم العظات والعبر وما يجب على المرأة أن تفعله عندما يصمت الزوج.

وكيف تشعل النار في أعصابه حتى يحس بها إلى آخر هذه الموضوعات الجادة والعميقة!

أما المذيعة سهير شلبي فهي لا تتوقف عن الانبهار وإطلاق الدهشة تلو الدهشة عن شواطئنا الجميلة التي هي أجمل ألف مرة من شواطئ أوروبا.

وهكذا تمضى قافلة الإعلام وتنبح أقلام المعارضين الذين لا يعجبهم العجب ولا ينبهرون بسترة وزير الإعلام الفضائية.

أجيال ضائعة

طلبت مني مجلة عربية كتابة مقال سـ ـاخر عـ ـن كبـ ـار الكتاب وكيف يتناولون القضايا، وما هي أساليبهم في توصيل أفكارهم للقراء.

بكلام آخر المطلوب تقليد هـ ـؤلاء الكبـ ـار علـ ـى نحـ ـو كاريكاتوري لا يجرحهم ولا يثير غضبهم، ورغم صـ ـعوبة المحاولة وحساسيتها، إلا أن النتائج جاءت مدهشة، فلو تابعت كامل زهيري لوجدته يكتب وبشـ ـكل دائـ ـم عـ ـن «المثلـ ـث الذهبي» في الفن التشكيلي، وعن عشـ ـقه الـ ـذي لا ينضـ ـب لفرنسا والهند، وكيف التقى ببطل رواية يحيي حقي «قنـ ـديل أم هاشم» في باريس، وكيف كـ ـان يمثـ ـل وحـ ـده الجاليـ ـة المصرية في الهند، ثم يعود إلى موضوعه الأثير عن حريـ ـة الصحافة وكيف راح يبحث عـ ـن كتـ ـاب بعنـ ـوان «حريـ ـة المطابع» أصدره شباب الحـ ـزب الـ ـوطني أواخـ ـر القـ ـرن الماضي، وهكذا لم يخرج كامل زهيري عـ ـن دوائـ ـر الفـ ـن التشكيلي والرحلات في قلب عاصمة النور، وأخيرًا حريـ ـة الصحافة، وختمت فقرتي عن كامل زهيري بعبارات فرنسية

نقلتها حرفيًا من مقالاته ووضعت عشرات من علامات التعجب من عندي طبعًا.

أما لطفي الخولي فهو مشغول ببناء تحالفه الشعبي والدولي لكوبنهاجن، وتساءلت بصفتي من أبناء هذا الشعب: هل حقًا منحناه توكيلاً رسميًا كي ينوب عنا في كوبنهاجن أو أية عاصمة شمالية، وكعادته لم يهتم لطفي الخولي كثيرًا بالقاعدين على رصيف الأحداث واستمر في بناء مستوطنته بكونبهاجن غير آبه لدعاوى المشككين في صحة التوكيلات من أمثالي!

وختمت الفقرة ببعض الاجتهادات «التي ليست من عندي» بل من عنده وأعلنت اعتصامي بالرصيف ضد كل إغراءات كوبنهاجن الشعبية والدولية أيضًا.

أما الكاتب الساخر محمود السعدني فسوف يتذكر الراحلين من أصدقائه من أبطال فريق الكرة الشراب بالجيزة ويذرف الدموع حنوًا عليهم ويقارن بين انتصاراتهم في الميادين العامة وشوارع الجيزة وبين خيبة ووكسة فرقنا القومية الآن على الصعيدين المحلي والدولي.

وختمت كلامي بضرب «تعظيم سلام» لمحافظ البحيـ ـرة لكي يغتاظ محافظ الجيزة وينفرس وتأكل الغيرة قلبه فيرفـ ـع دعوى قضائية وتتدخل النقابة لفض الن ـزاع ويـ ـنجح نقيـ ـب الصحفيين مكرم محمد أحمد في احتواء الموقـ ـف. ووقفـ ـت حائرًا أمام بعض أقلام كتابنا ومفكرتنا وعجزت عن تقليدهم، فهي كتابات صعبة ومستعصية على التقليد! فلم أنجح أبدًا في تقليد الكاتب الكبير مرسي عطا الله، ولم أفلح فـ ـي محاكـ ـاة الكاتب الكبير زكريا نبيل، وفشلت تمامًا في تقليـ ـد الكاتـ ـب الكبير جلال دويدار، أما الكاتب الكبير ثروت أباظـ ـة فأيـ ـة محاولة لكتابة اسمه فقط ستقودني للسـ ـجن حتمًـ ـا.. وهكـ ـذا قررت الاكتفاء بهؤلاء الكتاب وأضفت إليهم فقرة أقلد فيهـ ـا الكاتب الكبير محمد عودة يطالب فيها بأهمية دراسة تجربـ ـة الهند الديمقراطية وتجربة الصين الشعبية، ويـ ـدعو فيهـ ـا – كعادته – للكفاح المسلح!

وقلت في بداية المقال: إن مشاغبة كبـ ـار الكتـ ـاب أمـ ـر مطلوب وحيوي وصراع الأجيـ ـال واقـ ـع حتمـ ـي، وكـ ـان همينجواي يقول: «إن جده كان يسخر من جيل أبيه ويتهمـ ـه بالضياع.. وجاء والد همينجواي ليتهم ولده بالضـ ـياع هـ ـو

الآخر». ويقول هيمنجواي: «يبدو أن كل الأجيال ضائعة على نحو ما». وقلت في ختام مقالي إنهم يتهموننا بالضياع ونحن نتهمهم بالضياع أيضًا.. وهكذا «نبقى خالصين»!!

الطريف أن المجلة لم تنشر المقال لأنني لم أقلد أسلوب رئيس تحريرها فهو من النوع الصعب والمستعصي على التقليد!

(الأهالي: ١٩٩٨/٦/١٧)

لولا المسدس لاختلط الناي في الناي

محمود درويش

ويل للمثقفين!

في عام ١٩٩٠ بلغ عدد الكلاب الضالة في شوارع القاهرة ٥ ملايين و ٣٠٠ ألف كلب وفي عام ١٩٩٥ تناقص العدد إلى نصف مليون كلب فقط!

الأمر الذي أثار انتباه الباحث محمد أبو طالب فراح يتقصى الأسباب فجاءت النتائج مذهلة!

أين ذهب أكثر ٤,٥ مليون كلب؟ وكيف «اختفوا» من شوارع العاصمة؟

هل تعرضت القاهرة إلى عملية «نشل» بحيث أصبحنا نعيش وسط نصف مليون كلب فقط؟

هذه الأسئلة حملها الباحث وراح يبحث في محاضر الشرطة والتموين والسياحة حتى عثر على الإجابة الصاعقة.

لقد أكلنا ٤ ملايين وسبعمائة ألف كلب أيها السادة!

فقد قام أصحاب محلات الكباب والكفتة وعربات المأكولات السيارة باصطياد الكلاب وتقديمها للجمهور على أنها كباب وكفتة وطرب وشيش طاووق!

وعثر الباحث على ١٥ قضية تموينية كل عام لأكبر محلات الكباب والكفتة في العاصمة!

والمفجع أن وزارات الداخلية والتموين والصحة والسياحة تلقت نتائج البحث بإعراض هائل، وتواطأت فيما بينها على أن تستمر المحلات والعربات في تقديم لحم الكلاب للناس، بل زادت تراخيص المحلات والعربات حتى أن شارعًا في أحد الأحياء الراقية به أكثر من ٢٥ عربة تقدم الشيش طاووق والطرب وأسياخ الكفتة، والطريف أن المنطقة خلت تمامًا من الكلاب الضالة وكذلك المنطقة الشعبية المجاورة للحي الراقي!

ومنذ عرفت بهذا البحث وأنا أتلكأ عند مرور بهذه المحلات والعربات وأروح أتفرس وجوه الرواد وهم يلتهمون «الكلاب» الطازجة واكتشفت أن وجوههم مسحوبة، وأنوفهم مفلطحة فترتعد فرائسي، وأفر هاربًا مخافة أن «يعضني» أحدهم.

وبقيت على هذا الحال وقتًا طويلاً.. فنتائج البحث لا تفارقني، وعربات الكفتة تطاردني، وكلما وجدت كلبًا في الشارع رثيت لحاله، وشيعته بنظرات حانية واعتبرت لقائي به آخر لقاء، فسوف يصطاده أصحاب المحلات والعربات لا محالة!

وكلما التقيت صديقًا سألته متى أكل كبابًا وكفته؟

فإذا أجابني بأنه فعل ذلك أمس تفرست في وجهه وإذا بالسحبة إياها تطل من وجهه فأفر هاربًا!

وهكذا أصبحت أعيش في كابوس لا يرحل، وكلما شممت رائحة الكباب تحسست معدتي.

أما أحاسيسي فقد طرأت عليها تغيرات كبيرة فبت أشعر بصوت الكلب «يوحشني» ولم يعد يلفت نظري في الشوارع سوى الكلاب!

فهذا الشارع لا يوجد به سوى كلب واحد، أما الشارع الآخر فقد «جرفه» أصحاب المحلات من الكلاب الأليفة!

فماذا نفعل؟ وكيف نعيش وسط نصف مليون كلب فقط مهددة بإحالتها إلى أسياخ من الكباب والكفتة والطرب والشيش طاووق!!

حجازي.. شاعر الفرص الضائعة

هدأت العاصفة، وانفصلت القنوات التليفزيونية السبع عن بعضها، وذبحت العجول فداءً وشكرًا لله على نجاة الـ رئيس مبارك، وأصبح من حقنا أن نسأل: هل كان الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي موفقًا في «كلمة المثقفين» التي ألقاها في لقاء الرئيس على الهواء مباشرة؟

أقول: لا.. لم يكن حجازي موفقًا في كلمته.. فقد أضاع على المثقفين فرصة مناقشة الرئيس فيما يقلقهم ويوجعهم؟ ورب قائل وهل هذا وقته؟

أقول: نعم.. فالمثقفون هم القادرون وحدهم على الارتقاء بلغة الحوار والتخاطب وطرح الأسئلة.

وهم وحدهم القادرون على فتح قضية الإرهاب والديمقراطية ومستقبل البلاد، والتشريعات الفاسدة.

لقد فعل الصحفيون ذلك في عيد الإعلاميين، وعارضوا الرئيس معارضة واضحة ورفضوا تعديلات قانون العقوبات المسماة بقانون الصحافة وكانوا شجعانًا.

وكان أجدر بشاعرنا الكبير أن يفتح الحوار حول سياسة «العناد» الحكومية المتربصة بالديمقراطية ومستقبل البلاد،

وكان حربًا بشاعرنا أن يثير على الرئيس قضية الصحافة – وهو العضو البارز بنقابة الصحفيين – وما يحيق بها من أخطار – كذلك قضية التسلط الإعلامي، وحجب الرأي الآخر الذي يفتح الباب للإرهاب والإرهابيين حتى وصلوا إلى أكثر أجهزة الدولة حساسية وفي مقدمتها التليفزيونية.

كان يجب على الشاعر الكبير أن يعلو بكلمة المثقفين بدلاً من هذه الخطبة «العمودية النيئة».

لقد كان هذا أوانه ووقته، فإذا لم يتحدث المثقفون مع رئيس الدولة عن الحرية والديمقراطية مستقبل الوطن.. ففيم يتحدثون؟

وإذا لم يعارض المثقفون الفساد واستغلال النفوذ وتزوير الانتخابات وتزييف الوعي وتعميق القهر.. إذا لم يعارض المثقفون ذلك.. ففيم يعارضون؟ وعلى أي شيء يعترضون؟

عفوًا يا شاعرنا الكبير فلم تكن كلمتك تعبيرًا عن المثقفين وهمومهم.

ابن رشد الإيطالي

احتفلت السفارة الإيطالية في القاهرة بصدور أول ترجمة إيطالية لكتاب «فصل المقال» للفيلسوف العربي ابن رشد.

وفيه يدافع ابن رشد عن العقل والفلسفة ويزيل التعـ ـارض بينهما وبين الشرع، وينادي بـ . «الاستدلال العقلي» والقياس وغيرها من المناهج العقلية في مواجهة التغييب والانحطاط.

ويتحدث ابن رشد عن «صناعة المعرفة» والأخذ بأسباب العلم كطريق لمعرفة الله.. «فمن لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع».

فالعلم أساس اليقين مهما كانت نتائجه «لأن الحق لا يضاد الحق».

وهكذا يفتح «فصل المقال» أبواب المعرفة مـ ـن تأويـ ـل وتصويب وحدب على الاجتهاد ويرفض التفسـ ـير الحرفـ ـي والمباشر للنص.. ويسخر ابن رشد من فقيه ساذج يطلب من مريض بالإسهال أن يشرب العسل لأن «فيه شفاء للنـ ـاس» وعندما يزيد الإسهال يشكو المريض للفقيه فيقـ ـول الأخيـ ـر: «صدق الله ولا تصدق بطنك»!

ويحمل ابن رشد على هذه التفسـ ـيرات المسـ ـيئة للـ ـنص القرآني، ويدافع عن العلم «فإذا شرق قوم بالماء فلا يعني أن الماء سبب للموت» فالشرق أمر عارض، والحاجة إلى الماء ضرورة حياتية.

وبهذا المنهاج الواضح يدافع ابن رشد عن العلم والعقل وأثبت عدم التعارض بينهما وبين الشرع.

والطريف أن الذي أنفق على ترجمة هذا الكتاب. ليست الدولة الإيطالية، ولا دار نشر كبرى.. بل مؤسسة صناعية تدعي «فنمكانكة» التابعة للمجموعة الاقتصادية الضخمة المعروفة «إري».

ورب سائل: وما علاقة هذه المؤسسات الضخمة بابن رشد؟ إنه الإدراك السليم لأهمية الثقافة ودورها في بناء المجتمع، كما أنه إدراك لدور الرأسمالية الوطني وحمايتها من الجهل والتخلف.

وكم تمنينا لو أدركت جمعية رجال الأعمال في بلادنا حقيقة دورها في المجتمع وقامت بتشجيع الثقافة والبحث العلمي بدلاً من تصديع رؤوسنا بشعارات القضاء على القطاع العام، وتغيير التشريعات «الشمولية» والسعي إلى التهرب من الضرائب.. والحصول على أعلى نسبة من الإعفاءات الضريبية.

إنه الدور المنوط بهؤلاء الرأسماليين لو كانوا رأسماليين حقًا.. لكنهم غالبًا، ومع بعض الاستثناءات، سماسرة وطفيليون وجهلاء أيضًا.

ورب سائل آخر يقول: «ولكن الدولة تملك الهيئة العامة للكتاب، وهي أكبر دار نشر في البلاد وهذا دورها».

ونقول إن رئيس الهيئة مشغول بإصدارات السيد عمرو الليثي نجل السيد ممدوح الليثي في طبعات أنيقة وفاخرة والسيد عمرو مسئول بتليفزيون «M.B.C» ورئيس الهيئة يعد برنامج «ما رأيكم دام فضلكم» في التليفزيون نفسه... وهكذا أنت تطبع لي وأنا أذيع لك.. كما أن الهيئة مشغولة أيضًا بإصدارات المبدعات من المذيعات، وأصدرت الأعمال الكاملة للمذيعة «جيلان حمزة».

وقد صرحت الفنانة رغدة أخيرًا للصحف والمجلات بأن رئيس الهيئة عرض عليها إصدار مجموعتها الشعرية، وهي لا تزال في طور التفكير!

هذا حالنا... وحال هيئة كتابنا ورئيسها وجمعية رجال أعمالنا.

أما ابن رشد فله الله والإيط ـاليون ومجموع ـة شـ ـركات «إري» الاقتصادية!

أعداء درويش الجدد

الشاعر العربي الكبير محمود درويش يجيد اللغة العبرية ويعرف الكثير عن الثقافة اليهودية وتربطه صـ ـلات عميقـ ـة بشعراء إسرائيليين وساسة ومثقفين.

وهو مؤمن بـ . «الحوار» مع الحضارات الأخـ ـرى، ولا يسعى لنفي الآخر، فلماذا – إذن – رفـ ـض اتفـ ـاق أوسـ ـلو؟ ولماذا قدم استقالته من قيادة منظمة التحرير؟ ومن هو العدو الذي يرفضه محمود درويش؟

يقول شاعرنا الكبير:

فيا غريب

علق سلاحك فوق نخلتنا

لأزرع حنطتي في حقل كنعان المقدس

خذ نبيذًا من جراري

خذ صفحة من سفر آلهتي

وقسطًا من طعامي

وخذ الغزالة من فخاخ غنائنا الرعوي

خذ صلوات كنعانية في عيد كرمتها

وخذ حجرًا من الأجورد

وارفع فوقه برج الحمام

لتكون منا إن أردت

وجار حنطتنا

واترك أريحًا

تحت نخلتها ولا تسرق منامي

أأتيت.. ثم قتلت

ثم ورثت

كي يزداد هذا البحر

ملحًا

هكذا يرسم محمود درويش صورة فريدة وشفافة لعدم الالتقاء ونفي التقاطع مع العدو، فالذي أتى ليقتل ثم يرث لا يعرف أسرار الحنطة ولا يفهم الغناء الرعوي حتى لو شرب نبيذنا وأكل من طعامنا.

وتزداد صورة العدو وضوحًا:

في كوخنا

يستريح العدو

من البندقية

يتركها فوق كرسي جدي

ويأكل من خبزنا مثلما يفعل الضيف

ويحنو على فرو قطتنا

ويقول لنا دائمًا

لا تلوموا الضحية

نسأله:

من هي؟

فيقول:

دم لا يجففه الليل.

لقد أراد درويش في قصيدته المذهلة أن يثبت لنا استحالة التعايش مع العدو، فالشعر في داخله يعني العدل، ولو اهتز العدل انتفى الشعر. أراد درويش أن يقول لنا إن الأرض لا تتسع لغير الفلسطينيين. فجراب السيف لا يتسع لسيفين ولا يملك درويش سوى أن ينادي عدوه على البعد:

سلم ملي بيتنا يا غريب

فناجيل قهوتنا

لا تزال على حالها

هل تشم أصابعنا فوقها؟

إذن لدرويش البيت والأرض والحنط ـة مهم ـا تباع ـدت فلسطين فهو يوقن:

لولا المسدس لاختلط الناي في الناي.

(الأهالي: ١٩٩٥/٨/٩)

إرادة الاعتقاد وديمقراطية رجب القاضي

في رواية نجيب محفوظ «ثرثرة فوق النيل» يقف رجب القاضي بسيارته بعد أن دهس إحدى الفلاحات في طريق العودة من معبد رمسيس، ويسأل أصدقاءه في السيارة: هل نهرب أم نسلم أنفسنا؟ وتأتي نتيجة الاستفتاء تسعين في المائة من الأصوات مع الهروب.

فمن حيث الشكل كان رجب القاضي ديمقراطيًا تمامًا، لكنه في حقيقة الأمر قاتل!

وهكذا الديمقراطية.. فنحن نعيش شكلاً ديمقراطيًا صحيحًا: هناك أحزاب معارضة وصحف معارضة وبرلمانيون معارضون، لكن حقيقة الأمر ليست كذلك!

فالمحاذير أكثر من المسموح به فعليًا، والمحظورات أكبر بكثير من المباح.

فنحن في صحف المعارضة لا نستطيع أن نمس رئاسة الجمهورية أو وزارة الدفاع أو أبناء المسئولين الذين يعملون في البزنس أو حتى رجال الأعمال أخيرًا!

وقبل خمس سنوات طالب الكاتب أمين هويدي بطرح ميزانية وزارة الدفاع على البرلمان، وانتفض الجميع، وهاجت الدنيا، وحذر رئيس الجمهورية من الدخول في مناطق «الأمن القومي».

فلا أحد يستطيع أن يتعرض لهذه المؤسسة المهمة ولو بالسؤال، فهي منطقة غير مسموح بدخولها مهما كانت الأسباب.

وقبل عامين طالبت في هذا المكلان السيد وزير الإعلام بإعلان ثروته – هو وأبناؤه – ولم يهتز وزير الإعلام، فهذه أمور غير قابلة للمناقشة أو حتى السؤال عنها!

وعندما حاولت جريدة «الدستور» أن تتجاوز الحد المسموح به في المعارضة بتناول رجال الأعمال الجدد، وقبل ذلك تعرضت جريدة «الشعب» ورئيس تحريرها لابن وزير الداخلية وتم حبسه على الفور. فالديمقراطية على الطريقة المصرية هي أن تلعب في المساحة التي يحددها النظام، وعندما يعلن رئيس الجمهورية أن قضايا الفساد التي تم فتحها ومعاقبة أصحابها، إنما تم ذلك بمعرفة الحكومة وموافقتها، وهذا صحيح، فصحافة المعارضة لا تملك

المعلومات الكافية عن الفساد وحجمه ورموزه، وحرية تداول المعلومات ليس معمولاً بها في بلادنا، وإذا حاولت تقديم مستندات أو وثائق تدين مسئولاً كبيرًا فلن تنجح!

فالمعلومات موجودة في الهيئات الرقابية، وهذه الهيئات تحت السيطرة التامة، وإذا تسربت منها ورقة أو معلومة، فمن السهل الرد عليها بورقة أو معلومة مغايرة! ولو فعلت ذلك لتعرضت للسجن والإغلاق والتشرد في الشوارع!

وفي صحف المعارضة لا نملك سوى أن نعارض بعض صغار المسئولين عن بعض المخالفات التي يوردها الجهاز المركزي للمحاسبات، ولن يسمح لك أحد بغير ذلك! ولا مانع من معارضة محافظ القاهرة أو الجيزة، أو من نشر بعض أخبار عن فساد المحليات، وحتى هذه المؤسسات نجحت في السيطرة من جانبها على صحف المعارضة.

فالمحافظون والوزراء يملكون الإعلانات، ومن غير المعقول أن تنشر صحف المعارضة إعلاناً عن إنجازات وزير ما ثم تنتقد قراراته في صفحة أخرى؟

وقد حاولت بعض الصحف أن تفعل ذلك حرصاً على احترام القارئ، وفشلت المحالة وانفض القراء ولم يعد يبقى

أمام صحف المعارضة إلا أن تواصل انتقاداتها لبعض المسئولين في المساحة المسموح بها.

ولكل نظام شاعر وصحيفة ومنطق وخطاب، فإذا تحدثت عن الفساد قالوا لك إن الفساد «ظاهرة عالمية» فالإنسان هو الإنسان والشر موجود منذ بدء الخليقة، وإذا تحدثت عن الإرهاب قالوا لك إن الإرهاب «ظاهرة عالمية» وإذا تحدثت عن أبناء المسئولين أو رجال الأعمال حبسوك بالقانون والديمقراطية!

إنها ديمقراطية رجب القاضي الصحيحة الشكل والسليمة من حيث الدقة والشفافية.

لقد كان الرئيس الأمريكي ليندون جونسون رائعًا عندما قال: «علموهم الديمقراطية ولو أدى إلى قتلهم جميعًا».

نعم كان جونسون رائعًا مثل رجب القاضي تمامًا.

الإبر الصينية

قالت لي الطبيبة الصينية الشابة إنها ليست متأكدة من نتائج الإبر الصينية بالنسبة للعصب البصري، لكنها ستحاول.

وبالفعل قامت الطبيبة بزرع أكثر من عشرين إبـ ـرة فـ ـي رأسي وعيني ووجهي، واستسلمت تمامًا لمحاولتها، وكانـ ـت تجربة مثيرة بحق، وعندما سألتني عـ ـن إيمـ ـاني بالطاقـ ـة الروحية قلت لها ضاحكًا: كان كارل ماركس يقول: إذا كانت الفلسفة المادية هي نصف الفلسفة، فالمثاليـ ـة هـ ـي نصـ ـفها الآخر، فأنا من المؤمنين بالإرادة الإنسانية وقدرتها الجبـ ـارة على تجاوز المحن.

فأنا أملي ولا أكتـ ـب، وإذا كتبـ ـت لا أرى مـ ـا أكتبـ ـه، والطريف أنني لا أخطئ الكتابة حتى لـ ـو تحركـ ـت بعـ ـض النقاط وتزحزحت بعض الحروف.

وها أنا ذا مستسلم لأكثر من ثلاثين إبرة صينية في شتى أنحاء جسمي ترشقها الطبيبة الشابة بمهارة حتـ ـى تخاطـ ـب المراكز العصبية. وفي إحدى الجلسات سألتني الطبيبة: هـ ـل تعتقد في الطب الصيني؟ قلت: أعتقد في الصينيين وقـ ـدرتهم على البناء، ولم ترتح الطبيبة الشابة لإجابتي وانصرفت أفكر في حالتي وأنا عار تمامًا، فتذكرت كتـ ـاب ويليـ ـام جـ ـيمس «إرادة الاعتقاد». وفيه يتحدث عن قوة الاعتقاد، فإذا آمنـ ـت بشيء فسوف يتحقق بدرجة تعتمد على قدرتك في الاعتقـ ـاد،

ويرى أن الذين لا يعتقدون في شيء هم أكثر الناس بأسًا وتشاؤمًا وكثيرًا ما ينتهون إلى الانتحار.

إن قوة الحياة هي خارج أعضاء الجسم هي روحه الغريبة الغامضة.

وقبل خمس سنوات صدر كتاب في أمريكا بعنوان «هل يبرأ الإنسان من السرطان؟» تروي فيه كاتبته قصتها مع السرطان، فقد أخبرها الأطباء بأنها في المرحلة الأخيرة من المرض ونصحوها باختيار أحد الشواطئ لكي تستمتع بحياتها قبل الموت، وأكدوا لها أنها لن تعيش أكثر من سبعة شهور ورفضت الكاتبة كاترتين دينس نصيحة الأطباء وقررت مقاومة المرض واستبعاد الموت كفكرة وشبح ماثلين أمامها، وبالفعل نجحت كاترين في تجاوز المحنة كل ما فعلته أنها راحت تستمتع بالحياة وتقرأ الشعر وترسم اللوحات وتلهو على الشواطئ، وآمنت بأنها لن تموت على النحو الذي رسمه الأطباء لها.

تقول كاترين: «إن طاقة الإنسان الحقيقية لا تتجلى إلا باختبارها عند الشدائد»، وهو ما فعلته، فقد كانت تشعر بالحياة تدب في أوصالها عندما ترفض الموت وتأبى الرحيل.

لقد آمنت بكلمة المسيح الجميلة: «كل جسد يستطيع أن يحمل جراحه إلا الروح المكسورة.. من يحملها؟!!».

إنها القدرة على الاحتمال ومقاومة الفناء.

وكان الشاعر العربي يقول:

هي النفس ما حملتها تتحمل

وللدهر أيام تجور وتعدل

ولا عار إن زالت عن المرء نعمة

ولكن كل العار ألا تجمل

وها أنا أقاوم الموت والعمى والديمقراطية!

هذا الأستاذ الجامعي

فزعت عندما قرأت في عدد «الهلال» الشهر الماضي أن أستاذًا للنحت في كلية الفنون الجميلة قام بتغطية أحد التماثيل في ساحة الكلية بدعوى أن الجسد العاري حرام!

ولو قرأ أستاذ النحت فتوى الإمام محمد عبده التي على أساسها افتتحت كلية الفنون الجملية أبوابها، لما فعل فعلته.

فالقضية ليست حلالاً أم حرامًا، لكنها الجهل بموقف الدين.

ولو اتجه أستاذ النحت إلى المكتبة وقرأ كتاب دكتور ثروت عكاشة «التصوير في الإسلام» أو بحث الرائد «التصوير بين الحظر والإباحة» لما قام بتغطية التمثال.

والغريب أن مجلس الكلية لم يتخذ أي إجراء ضد أستاذ النحت، وهي محنة ثالثة، فالجميع خائفون ومذعورون والمناخ ثقيل وفادح وصوت الجهل بات عاليًا مجلجلاً.

منذ أن اتخذ مجلس الكلية قرارًا بمنع رسم الجسد العاري والأمور تنتقل من سيئ إلى أسوأ.

فكيف لتلميذ كلية الفنون أن يرسم جسدًا دون أن يراه أو يتعرف على تضاريسه، أو بلغة العلم أن يقوم بتشريحه.

فماذا لو أغلقت كلية الطب المشرحة؟

ومنعت التلاميذ من التعامل مع الجثث؟

وقد علمت أن أستاذ النحت يحرض تلاميذه على الخروج من الكلية بدعوى أن الفنون الجميلة كلها حرام، ولا أدري لماذا لا يقدم هذا الأستاذ استقالته بدلاً من تحريض تلاميذه؟

وهل حلال أن يتقاضى راتبًا عن تدريس النحت في الوقت الذي يرفض فيه القيام بعمله؟

إن كلية الفنون الجميلة مطالبة بتوضـ يح هـ ذا الموقـ ف الغريب، وكذلك مجلس الكلية الذي وافق على استمرار هـ ذا الأستاذ في هجومه الجاهل وتحريضه السافر علـ ى الفنـ ون الجميلة.. وإنا المنتظرون.

قالوا في الحب

لو قرأت كتاب الألماني الفذ آدم ميتز «نهاية القرن الرابع الهجري» لعرفت أن الحب عند العرب حالة عضوية!

مثلاً يقول الشاعر عروة بن حزام مخاطبًا عفراء:

وإني لتعروني لذكراك رعدة

لها تحت جلدي والعظام دبيب

حالة مروعة وغريبة، إنهـ ا الحمـ ى أو القشـ عريرة أو الرعشة (سمِّها ما شئت) المهم أن الشاعر يتمـ زق وتتنـ اثر أعضاؤه ومفاصله!

أما قيس بن الملوح فيقول:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

هي حالة أكثر فزعًا وأشد خطرًا، فالشاعر يحمـ ل فـ ي جهازه الهضمي أوركسترا كاملاً.

ويتساءل ميتز: هل كان الحب قاسيًا إلى هذا الحد؟ ونجيب: نعم، فتراثنا العاطفي مليء بالضربات الموجعة والآلام المبرحة حتى أن شاعرًا مثل أحمد شوقي لم يجد ما يقوله عن الحب غير قوله:

وعندي الهوى موصوفه لا صفاته

إذا سألوني ما الهوى قلتُ مابيا

إنها حالة مستعصية على الشرح والوصف والتعبير، حالة لا يعرفها ميتز وغيره من الباحثين والدارسين، فالحب عندنا مرادف للموت والوحشة والجنون والتصدع والانهيار الكامل. نحن لا نحب ولكننا نغرق ونذوب وتتقطع أحشاؤنا.

يقول محمود درويش:

إن ثلاثة أشياء لا تنتهي

أنت والحب والموت

أن تقتليني وأن توقفيني عن الموت

هذا هو الحب.

إنها حالة من الاحتضار الدائم واستبداد الرغبة، حالة من العطش الذي لا سبيل إلى ارتوائه إلا بالحب أو الموت!

ويرى الشاعر الراحل مهدي الجـ ـواهري أن قـ ـيس بـ ـن الملوح لو نال ليلي لما تفجر بالشعر على هذا النحو، فشـ ـعر قيس تصوير لحرمانه منه، ربما كان ذلك صحيحًا، فالحـ ـب هو ألا تنال شيئًا وأن تظل هائمًا بلا شاطئ.

وباختصار الحب كما عرفـ ـه صـ ـلاح جـ ـاهين سـ ـاخرًا «بهدلة».

وهذا ما جرى له ولنا!

(الأهالي: ١٩٩٨/٣/٢٥)

مشاوير في صحائف الشعر والحب والغش والرقابة!

لم أهتز لأحداث عام ١٩٩٤ المثيرة والصارخة، ولم أنتش بانتصار الشيوعيين في بلغاريا والمجر وألمانيا الشرقية سابقًا و «حاليًا أيضًا». ولم أحزن لطعن نجيب محفوظ، أو م وت جبرا إبراهيم جبرا ولم أشارك في البحث عن الفنانة ش ادية أثناء اختفائها من حفل افتتاح مهرجان القاهرة السينمائي.

ولم أطالب بإعدام مستوردي اللحوم الفاسدة، لم أتأثر بكل هذه الأحداث، إلا أن ما هزني حقًا هو صدور قانون «الغش التجاري».

وليس معنى ذلك أننا سنأكل لحومًا غير فاسدة، أو دجاجًا لم تنته صلاحيته منذ سنوات، أبدًا، ولكن لأنه سوف ينطب ق على سلع أخرى باتت متداول ة ف ي أس واقنا وتليفزيونن ا وإذاعاتنا وصحفنا.

فالتصريحات التي تنشرها الصحف لكبار المسئولين إنم ا هي بضاعة فاسدة ومغشوشة! والفتاوى التي يطلقها ا دع اة

الإرهاب بإلحادنا ووجوب قتلنا هي «سلع» فاسدة وعديمة الصلاحية!

والمطربون الطلقاء على شاشة التليفزيون سوف يشملهم قانون الغش التجاري.

أما شعراء الحداثة فقد نص القانون في مادته الثالثة على «التحفظ» عليهم في مكان موزون ومقفى!! وهو مطلب شعبي وقومي كثيرًا ما ماطلت الحكومة في تلبيته احترامًا لرغبات الناس واحتياجاتهم.

وينص القانون على حماية القراء من كتاب الزوايا الصحفية في الصحف القومية (لم يتعرض القانون للصحف الحزبية حتى كتابة هذه السطور ونغلق القوس).

ولعل أهم ما ورد بالقانون هو ذلك النص الذي يفض العلاقة بين الحاكم والمحكوم إذا ما شاب هذه العلاقة «غش» أو «إذعان».

وهكذا أصبحت العلاقة بيني وبين زوجتي – وبعد طول استقرار – محط أنظار التشريع والمشرعين، بعد طول تجاهل!

أما علاقتي بالحزب الوطني فسوف تحكم المحكمة لنا – من أول جلسة – بانتهائها، لما انطوت عليه من غش واضح وعدم رضا من جانبنا طوال السنوات الفائتة.

ولم ينس القانون علاقة التليفزيون بالمواطنين وما فعله بنا منذ أن «ولد عملاقًا»، فقد استقر في ضمير المشرع أن المادة الإعلامية من دراما وفنون ومنوعات وإعلانات كلها «مغشوشة» الأمر الذي أدى بالمشرع إلى تغليظ العقوبة والقبض على كتاب المسلسلات والمذيعين والمذيعات وحبسهم أمام التليفزيون ليشاهدوا ما اقترفت أيديهم من برامج ومسلسلات، لا زلنا في انتظار المزيد من التشريعات المبهجة وكل تشريع وأنتم فرحون.

الرقابة.. وأنا

في أوائل الثمانينيات كتبت أغنية «متصدقيش» للفنان علي الحجار.

وكان هذا أول لقاء بين صوت علي الحجار الجميل وبين كلماتي «الجميلة أيضًا»!

وكان الفنان عماد الشاروني هو الذي أعـ ـد الموسـ يقى، وقمت بكتابة الأغنية على الجملة اللحنية فجاءت تجربة جديدة فرحنا بها كثيرًا.

وذهبنا بالأغنية إلى الرقابة لإجازتهـ ا والإعـ ـلان عـ ـن الشريط الذي يحمل اسمها على شاشة التليفزيون.

وفرحنا بأن لجنة الرقابة تضم الشاعر فاروق شوشة.. إلا أن قرار الجنة جاء صاعقًا!

فقد اعترضت اللجنة على كلمات الأغنية، تقول الكلمات:

متصدقيش

البحر لو قال سامحتك

متصدقيش

البحر لو قال بحبك

متصدقيش

إن الدموع غير الندى

متصدقيش

إن النشيد غير الصدى

متصدقيش

إن السحاب أصل المطر

قالت الرقابة بالحرف الواحد: «إن هذا البيت من الأغنية فيه اعتراض على «قدرة الله» وأسقط في أيدينا وأصابنا بالرعب.. فهذا تكفير واضح للشاعر والمطرب والملحن والمنتج.

ولم تكن المرة الأولى التي يتهم فيها علي الحجار في دينه.

فعندما قدم رباعيات صلاح جاهين الخالدة اعترضت نفس الرقابة على رباعية تقول:

عبسًا بأقول

وأقرأ في سورة عبس

وقامت الدنيا، واتهمت الرقابة صلاح جاهين وعلى الحجار وسيد مكاوي بـ «الكفر» (هكذا)!

ومرت سنون، وأقبل الناس على الرباعيات وكذلك «متصدقيش» رغم معاداة التليفزيون لهما.

ومنذ فترة كنت أستمع إلى برنامج فاروق شوشة «لغتنا الجميلة» وإذا به ينشد قصيدة قيس بن الملوح «المؤنسة» ويقول فيها:

أراني إذا صليت، يممت نحوها بوجهي

وإن كان المصلى ورائيا

أصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها

اثنتين صليتُ

الضحى أم ثمانيا

وأخذتني العزة «بالشعر» وقررت كتابة رسالة لفاروق شوشة أتهمه فيها بالتعنت مع أشعاري والتساهل مع أشعار «ابن الملوح».

فأنا لم أصل لحبيبتي كما فعل قيس، ولم أخطئ في عدد ركعاتي وسجداتي!

وقررت رفع دعوى قضائية على التليفزيون وعلى فاروق شوشة، لولا أن نبهني أحد أصدقائي «العقلاء» قائلاً: لو فعلت ذلك فسوف يتم منع إذاعة قصيدة «قيس» مرة ثانية

وسوف تنتبه الرقابة لهذه الأبيات، وربما فصلوا فاروق شوشة من عمله!

وخفت مرة ثانية فماذا أفعل في هذا المناخ الضاغط؟ وكيف تتعامل مع هذا الكابوس؟ وترددت طويلاً في كتابة هذه التفاصيل حتى أخبرني صديقي أن موظفي الرقابة لا يقرأون الصحف الحزبية وفرحت بذلك، وكتبت ما جرى وتذكرت رباعية صلاح جاهين الممنوعة:

فيه ناس تقول

الهزل يطلع جد

وناس تقول الجد

يطلع عبس!

شاعر في السجن

في عام ١٩٤٦ وقف صدقي باشا – رئيس وزراء مصر أنذاك – في ساحة البرلمان ممسكًا بقصيدة «إصرار» للشاعر كمال عبد الحليم ليعلن على النواب ويحذرهم من هذا الخطر القادم، وراح يتلو عليهم أبيات القصيدة!

وفي مطلع الخمسينيات شرع كمال عبد الحليم في الدعوة للشعر الجديد وأصبح رائدًا من رواده، ولم نزل نذكر حتى الآن أغنياته الثائرة مثل:

دع سمائي فسمائي مُحرقة

دع مياهي فمياهي مُغرقة

وإلى جانب الشعر كان كمال عبد الحليم واحدًا من هذه الكتيبة المناضلة التي خرجت في الأربعينيات مطالبة بالاستقلال والاشتراكية.

ولم يتوقف كمال عبد الحليم عن العطاء، فأنشأ «دار الغد للنشر» وراح يطبع الكتب والمجلات والدواوين وغرق في الديون، لكنه وقع أخيرًا في أيدي عصابات الطباعة، واستصدروا حكمًا بسجنه لكتابته شيكات بدون رصيد رغم أنه قام بتسديدها، وبالفعل ألقى القبض على الشاعر الرائد وقاموا بإيداعه ليمان وادي النطرون البارد، رغم تخطيه السبعين من عمره!

والآن.. يعاني كمال عبد الحليم آلامًا مبرحة في جسده الواهن، ويتعذب في زنزانته الوطنية.. فهل نطمع في قرار إنساني من وزير الداخلية بنقله إلى المستشفى؟

إن الضمير الثقافي سوف يتعذب طويلاً لو أصاب كمـ ـال عبد الحليم مكروه في هذه السن الحرجة، ولن يتحمـ ـل أحـ ـد هذه النهاية الفاجعة لرمز من رموز ثقافتنا المعاصرة.

هناك فرق

عندما فقدت بصري قبل عامين قال لي صـ ـديقي الفنـ ـان «حجازي» إنني لن أخسر كثيرًا! فما الذي يمكن أن أراه في شوارع وتليفزيون هذه المدينة؟ وبالفعل لم أحزن طويلاً.. فها هي ميادين العاصمة خالية، تماثيل كبار فنانينا.. فأين تماثيل «عبد القادر رزق» ومحمد هجـ ـرس و «حسـ ـن العجـ ـاتي» وغيرهم من الكبار!

وأين حدائقنا وبناياتنا التي تشتهي العين أن تراها؟

حتى الباب الحديد لحديقة الحيوان، وكان آية في الجمـ ـال والتشكيل، تمت تغطيته بلوحات الإعلانات الفجـ ـة لأمـ ـواس الحلاقة!!

أما الناس في الشوارع فقد فقدوا الحس بالألوان وتناسقها، وأصبحت ملابسهم تثير الضحك بألوانها ونشازها، مما دفـ ـع كاتبنا الفنان كامل زهيري للدعوة لـ ـ «محو أميـ ـة العـ ـين»

فالقاعات الفنية خالية من الجمهور، ومن اللوحـ ـات الجميلـ ـة أيضًا!

وهكذا عزبت نفسي إلى أن تحسن بصـ ـري وأصـ ـبحت أشاهد الأشياء وأدركها، وهنا قال لي صديقي الفنان «عمـ ـار الشريعي» مداعبًا: «أنت فتحت.. دي حاجة تقرف».

ولم يكن عمار مداعبًا بل يقصد الحقيقة، فمـ ـا أن فتحـ ـت عيني وشاهدت مياه النيل حتى أصابني الغم لما يحمله مـ ـن قذارة.

هل هذا هو النيل الذي أقسم به المصريون ذات يوم أمـ ـام المحاكم عندما كان الشاهد يقسم أنه «لم يعتد على النيل».

أما مساجدنا الأثرية وما أصابها، فقد أصابني بالحنين إلى العمى مرة ثانية!

وعندما شكوت لعمار ما شاهدته قال لي ضاحكًا: «أنـ ـت زرتنا وشفت عالمنا، أديك فتحت.. عرفت بقى الفرق»!

(الأهالي: ١٩٩٥/١/٤)

صباح الخير أيها الكذابون!

أخطأ الصحفيون في معالجة قضية مارينا، ولم ينجحوا في اختيار المفاضلة بين الصفقة والضمير!

وأخطأت الصحافة حين ظنت أن عشرات الصفحات الملونة مدفوعة الأجر قادرة على إقناع الناس وإلهامهم.

فالناس ليسوا أقل ذكاء من الصحافة والصحفيين.

تصوروا كاتبًا يكتب في صحيفة أن السبب الرئيسي في قضية مارينا هو «انخفاض أسعار دخول القرية»، فلو ارتفع رسم الدخول إلى ثلاثين جنيهًا لما قضى الشاب نحبه!

وبعد أن روى لنا الكاتب قصة مارينا وكيف عاشت بين جوانح المهندس حسب الله الكفراوي حلمًا، فخاطرًا، فاحتمالاً، حتى أصبحت حقيقة لا خيالاً!

كان يجب على الصحافة أن ترفض إعلانات رجل الأعمال قبل إجلاء الحقيقة، وكان يجب عليها أن تنحاز إلى العدل ومحاصرة الخارجين على القانون، والذين ظنوا أن ثرواتهم سوف تعصمهم من المساءلة. فقد انحازت الصحافة إلى تحالف الثروة والنفوذ على حساب الحقيقة والضمير.

حتى رجل الأعمال نفسه لم ينجح في الاختبار، فراح يدلي بالتصريحات في الصفحات مدفوعة الأجـ ر، ويقـ دم نفسـ ه كنموذج للتقوى والعمل الصالح.

لو لم يستخدم سلاح الإعلانات، وترك الصحافة دون تأثير منه لما حدث ما حدث، لقد اشترى رجل الأعمال مسـ احات هائلة في بعض الصحف وملأها بعشرات الحكايات، وشارك في كتابتها – للأسف – بعض أقلام اشتهرت بنفاقها وفقـ دت مصداقيتها.

وقد أصبح الخروج على القانون في بلادنـ ا نوعً ا مـ ن الوجاهة والاجتماعية؟

وكلما تركت سيارتك في عرض الطريق خافـ ك النـ اس وتهيبوك وظنوا أنك من أصحاب النفوذ.

وكلما نجحت في كسر الحواجز وتحايلت على الجمـ ارك والضرائب والقواعد المنظمة، فأنت من أصحاب النفوذ.

وفي دراسة حديثة عـ ن سـ لوكيات الفئـ ات والشـ رائح الاجتماعية الجديدة، تبين أن ٧٠% منهم خلت منازلهم مـ ن الكتاب والأسطوانة واللوحة، فقط ثلاجـ ات كبيـ رة لحفـ ظ الأطعمة والمشروبات!

وفي إحدى القرى السياحية شاهدت شاليهًا مطلاً على البحر، قام صاحبه بـ (تقفيل) البلكونة وتركيب (إيركوندشن) أي والله!!

ولا ملايين الدنيا

قضت محكمة كندية بتغريم أحد رجال الأعمال لأنه حاول تقبيل إحدى بائعات الهوى في فمها!

واستندت المحكمة إلى مواثيق حقوق الإنسان الحديثة، التي نظمت العلاقة بين بائعات الهوى والجمهور!

فليس معنى أنك دفعت أموالاً أن تفعل بها ما تشاء، فهي من حقها أن تعطيك فمها أو ترفض، لأن قبلة الفم تعبير عن الحب، كما أكدت المواثيق الحديثة.

وبذلك قضت المحكمة بتغريم رجل الأعمال، رغم اعتراف الفتاة بأنها تقاضت خمسة آلاف دولار مقابل الجنس وليس الحب!

وقبل سنوات أعلنت الممثلة العالمية اليزابيث تايلور في مؤتمر كبير، أنها ستمنح شفتيها لصاحب أكبر تبرع مالي لإسرائيل، وفاز في العرض رجل أعمال إنجليزي وتحت

العدسات والأضواء منحت تايلور شفتيها في أطول قبلة أمام الجمهور والكاميرات والدنيا كلها!

وعاد الرجل إلى بلاده وأقام دعوى قضائية على تـ ايلور، لأنها كذبت عليه وعلى الجمهور.

لقد وعدت بـ . «قبلة ساخنة» لكن قبلتها له كانـ ت فـ اترة وباردة على حد قوله.

وقال محامي تايلور: إن رجل الأعمال الإنجليزي مجنون حقًا.

إنه يُطالب بالحب، وظن أن المـ ال يشـ تري الحـ ب، إن تايلور ممثلة قديرة منحته شفتيها ولم تقل إنها سوف تمنحـ ه مشاعرها وأحاسيسها.

إن ملايين الدنيا – كما يقول محامي تايلور – لـ م تمـ نح رجل الأعمال الإنجليزي أو أي رجل قبلة ساخنة وحقيقية.

وهكذا خسر رجل الأعمال الإنجليزي قضيته وانتصـ رت المشاعر الإنسانية الصادقة، وأكدت أنها بـ لا ثمـ ن مهمـ ا عظمت الثروات.

قبل التسلل

في قصة قصيرة لمكسيم جوركي عن عامل مطبعة يقوم بجمع مقالات رئيس تحرير مجلة موالية للقيصر، يتعذب عامل المطبعة، ويضيق بهذا النفاق ويتمنى لو كتب هو مقالاً يشرح فيه عذاب الناس وآلامهم.

وفي ليلة باردة جرع عامل المطبعة كمية كبيرة، الخمر وكتب مقاله الذي كان يحلم به ووقعه باسم رئيس التحرير، وبالفعل ينشر المقال ويهرب عامل المطبعة ويسقط في يد رئيس التحرير!

ومغزى القصة أن الكتابة الحقيقية لها ثمن، وأن عمر النفاق قصير.

وقبل ثلاث سنوات أصيب مذيع تليفزيوني في كينيا بلوثة أثناء قراءة النشر وراح يكلم الجمهور مباشرة عن أن الأخبار التي قرأها عليهم قبل لحظات كلها كاذبة!

فالحقيقة مهما خبت وتوارت، لا تموت، والضمير ينام بعض الوقت لكنه يتعذب طويلاً لو طال هذا النوم.

ونحن في الصحافة تتعذب ضمائرنا طويلاً مما نكتبه وننشره بعد أن تعددت المحاذير، وكثرت المحظورات،

وتشابكت المصالح، وتعقدت العلاقات، فهناك عشرات م ن أوامر حظر النشر التي تصدرها النيابة العام ة ولا ب د أن نتمثل لهذه الأوامر، فالنيابة صاحبة الولاية على المجتمع.

كذلك الأمر في باقي المؤسسات الحزبية وغير الحزبي ة، فهناك موازين وحسابات وتوازن ات ومن اطق محظ ورة، وأخرى ممنوعة، ونحن متأرجحون بين الحظ ر والإباح ة، وأخشى أن يأتي يوم نتسلل فيه إلى المطبعة ونكتب ما كت ب عامل المطبعة الروسي، أو نجن كما فع ل زميلن ا الكيني التعس!

ضجيج القطارات

أدهشني ما نشرته «أخبار الأدب» ع ن الس كة الحدي د ورئيس مجلس إدارتها وإنجازاته، وك ان الأس تاذ جم ال الغيطاني قد مهد لهذا الإعجاب وذلك الول ع بالقط ار ف ي يوميات سابقة بالأخبار، حيث راح يش يد ب رئيس مجل س إدارتها ويعد صفاته وتفانيه في عمله، حتى أنه لم يعد ق ادرًا على النوم إلا إذا سمع صوت القطار!

ومن حق الغيطاني أن يعجب برئيس الهيئة، وم ن حق ه أيضًا أن يباهي به الأمم بين القطارات، إما أن يصدر ع ددًا

خاصًا عن أهمية القطار في الأدب العربي ويجند له أقلامً ا شتى في مختلف مجالات الأدب، فهذا افتعال لا يليق بجريدة متخصصة.

نعم، هناك جوانب طريفة في علاقة الأديب بالقطار، لكن المؤسف أن هذا الملحق الخاص هو مادة إعلانية خالصة ولم تلتزم الجريدة ولا رئيس التحرير بالتنويه عن ذلك، وهو م ا يعد خرقًا لمواثيق الشرف الصحفية المتعارف عليها.

لقد شهدت الساحة الصحفية في السنوات الأخيرة خلطً ا فجا بين الإعلان والتحرير تح ت مس ميات جدي دة، مث ل «الصفحات المتخصصة» بدلاً من «إعلان تس جيلي» كم ا ينص القانون، وبالطبع دخل مجال الإعلان صحفيون وكُتاب تخفوا وراء التسميات الجديدة،

وظنوا أنهم يخدعون القراء وأنهم بمنأى عن القانون.

وقبل عشر سنوات أثيرت معركة في فرنسا قمت أنا بنشر تفاصيلها في مجلة «الصحفيون» وقت أن تولاه ا الكات ب صلاح عيسى، فقد قرر المالك الجديد لصحيفة «لوفيج ار» الفرنسية أن يكتب مقالاً بجريدته المشتراة وهو مليونير ل م يجرب الكتابة قط، إلا أنه صاحب الجريدة.

وهنا تصدى له الكاتب الفرنسي رولان بـ ارت صـ احب الزاوية المميزة بالجريدة، ولجأ إلى نقابات الصـ حفيين فـ ي فرنسا وانقسم الرأي العام الصحفي إلى فريقين:

الأول يعترض على أن يكتب صـ احب الجريـ دة وفـ ي مقدمتهم بارت، والثاني يؤكد حق المالك في التعبير.. فالكتابة حق للجميع، إلا أن الفريق الأول يرى أن الأمر ليس كذلك، قد تكون حقًا للجميع ولكنها ليست حرفة الجميع!

إن كلمة «إعلان» التي تسبق الموضوع، لا تقلـ ل مـ ن أهميته، لكن هذا حق القارئ ورفع الكلمة تضليل للقارئ!

وقد اقترح الفريق المؤيد للمالك فـ ي الكتابـ ة أن تسـ بق كلماته «مقال صاحب المجلة»!

إلا أن الفريق الثاني رفض، ولا يعني ذلـ ك أن الفريـ ق الثاني ضد حق التعبير، لكنه يحترم حق القارئ في المعرفـ ة دون تضليل، حتى لو تعلق الأمر بصاحب الجريدة.

كان يمكن أن تكتب جريدة «أخبار الأدب» على ملحقهـ ا كلمة «إعلان تسجيلي» أو «صـ فحات متخصصـ ة» لكـ ن ضجيج القطارات حال دون هذا التنويه، لذا لزم التنويه مـ ن جانبنا!

باقة ورد

احتفل الفنانون والمثقفون والكُتاب في بلادنا بالعيد السبعين لميلاد الفنان الكبير حسن سليمان، صاحب أرق وأعذب الخطوط والألوان. على مدى أكثر من خمسين عامًا أعطى حسن سليمان آلاف اللوحات الجميلة المعبرة والحزينة.

رسم الفلاح في الحقل، ورسم حياة الناس والبسطاء ورسم الورود الشاحبة والأشجار الغريبة وكتب «حرية الفنان» وعلمنا «كيف نقرأ لوحة» وأرتاد الفن الشعبي وأبدع فيه كتابًا متميزًا سوف يصدر قريبًا في طبعته الثانية عن هيئة قصور الثقافة بهذه المناسبة، وحسنًا فعلت الهيئة.

لم يقتصر نشاط حسن على اللوحة والكتابة، بل امتد إلى المعمار والترجمة، وأصدر كتابًا فاخرًا عن موسيقى الشعر الباطنية بعنوان «ذلك الجانب الآخر» وللأسف صدر الكتاب في سوريا وليس في مصر!

ويواصل حسن رحلته غاضبًا تارة ورافضًا تارة أخرى، ما زال حسن في مرسمه يرسم ويكتب ويستمع إلى الموسيقى ويعترض على القبح والركاكة والرداءة والرذالة!

كنت أتمنى أن تسارع هيئة الكتاب أسوة بزميلتها الهيئة العامة لقصور الثقافة، بإعادة كتب حسن ليمان.

وكنت أتمنى لو أتيح للقارئ قراءة محاضرات حسن سليمان على مدى أربعة عشر عامًا قضاها في معهد السينما أستاذًا ومحاضرًا لمادة ابتدعها هو وهي «تكوين الكادر» وهي المادة التي استفاد منها عشرات المخرجين الموهوبين مثل: عاطف الطيب – خيري بشارة – علي بدرخان.. وغيرهم.

وفي عيد ميلاده السبعين.. لا نملك إلا أن نقدم باقة ورد طبيعية ليست في جمال وروده وأزهاره، لكنها تحمل عبق ورحيق محبتنا.

كل سنة وأنت طيب أيها المعلم الفنان.

(الأهالي: ١٩٩٨/٩/٦)

سيدي وزير الداخلية:
مع خالص امتناني وخوفي!!

«أوبرا ونفري» هي أغلى وأغنى وأشهر مذيعة زنجية عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها. فهي جذابة، لبقة، تثير العقل والخيال بأسئلتها الذكية، وطريقتها في إدارة الحوار.

وفي برنامجها الشهير سألت «ونفري» ما هي الأشياء الخمسة التي يمكن أن يمتن لها المرء في حياته؟

وتسابق الناس في إجاباتهم فجاءت جميعها صادقة، بسيطة ومثيرة. أيضًا. وسألت نفسي بدوري: ترى ما هي الأشياء الخمسة التي يمكن الامتنان لها؟ بسؤال آخر: لمن أوجه امتناني وشكري العميق؟ ورأيتني ممتنًا – في المقام الأول – للسيد وزير الداخلية.

فقد أحال سيادته ستة من زملائي الصحفيين إلى محكمة الجنايات، وهو أمر طبيعي، فإذا لم يذهب الصحفيون إلى محكمة الجنايات، فإلى أين يذهبون إذن؟!

هل يذهبون إلى الأوبـ ـرا أو الكونسـ ـير أو الغردقـ ـة؟ إن محكمة الجنايات هي مثواهم الطبيعي، وإذا لم يمثلـ ـوا بـ ـين يديها فمن الذي يستحق المثول أمامها؟ هل المرأة الحديديـ ـة التي تملأ العواصم الأوروبية لهوًا ولعبًا بأموالنا؟ أم الشاعر الغنائي الدكتور عبد الحميد حسن ومشغولاته الذهبية وتنقلاته الآمنة بين سبع عشرة شقة في أفخم مناطق العاصمة؟ نعـ ـم الصحفيون وحدهم هم المجرمون وما عداهم آمن فـ ـي بيتـ ـه وشقته وقريته السياحية.

أما الامتنان الثاني فقد رأيته جديرًا بالـ ـدكتور «حمـ ـدي السيد» نقيب الأطباء على امتناعه ورفضه إعـ ـلان الأطبـ ـاء الذين أجرموا في حق الناس، وامتنعت النقابة عن مسـ ـاءلتهم فالنقابة والنقيب يؤمنون بأن الخطأ حق بل واجب، وإيه يعني لو «نسى» طبيب سبع عشرة «سرنجة» في بطن امرأة أثناء الولادة؟ فالموت حق على الناس – كمـ ـا يـ ـرى النقيـ ـب – والأصوات الانتخابية خير وأبقى!!

الامتنان الثالث الذي أحسسته عميقًا غائرًا في داخلي كان للشاعر الغنائي «حب الرمان الأسموزي» صاحب الأغنيـ ـة ذائعة الصيت "توشكى حبيبتي جوه القلب"، فلولاه لما عـ ـرف

البسطاء من أمثالي أين تقع «توشكى» ولرحنا نضرب ف ي جنوب الوادي بغير علم ولا هدى حتى نعرف أين توش كى؟ فالأغنية لها وظائف عدة: وظيفة تاريخية وأخرى جغرافي ة وهكذا يكون الفن الموجه.

باقي امتناناتي رأيتها غير صالحة للنشر، فهناك ق رارات حظر أصدرها السيد النائب العام، وهناك محذورات عائلي ة وحزبية تمنعني من البوح بما يدور في أعم اقي. إلا أنن ي قررت أن أكتبها وأرسلها للسيدة «أوبرا ونفري» لتذيعها على الناس بجوار تمثال الحرية مع خالص امتناني وخوفي م ن السيد وزير الداخلية.

سر التصدع

في استفتاء فاجع أجرته إح دى الهيئ ات العلمي ة قب ل سنوات، تبين أن ٢٦% م ن ط لاب الجامع ة الأمريكي ة بالقاهرة لا يعرفون ترتيب ألوان العلم المصري.

وفي استطلاع أقل فجيعة – أجرته الهيئة نفسها – تبين أن ٣٠% من طلاب السنة النهائية بكليات الحقوق المص رية لا يعرفون عدد مواد الدستور المصري؟

وتوالت التفسيرات عن «أزمة الانتماء» و «مأساة التعليم» وغيرها من التأويلات الجاهزة، فلا أحد يريد مواجهة الواقع، ولا أحد يفكر في حقيقة التصدع الذي أصاب مجتمعنا. وكان ديجول يقول: «من لا يعرف سارتر لا يعرف فرنسا» وفي الشهر الماضي رحل المحقق والكاتب والباحث المصري الكبير «محمود شاكر» الذي حقق «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» للجرجاني، وصاحب كتاب «المتنبي» وهو الكتاب العمدة في فهم شاعر العربية الكبير، وصاحب كتاب نادر في تحقيق قصيدة «تأبط شرًا». ويعتبر أول كتاب في موسيقى الشعر على هذا النحو من الفهم والذوق الرفيعين.

كتاب يتناول «النبر والنغم» وعلم المعاني والمنهج الدقيق في فهم الشعر ومعناه.

مات محمود شاكر تاركًا علمًا وفيرًا وتلاميذ نجباء في شتى أرجاء الوطن العربي، وعندما فارق الحياة اكتشفنا أننا لم نعرفه، فلا صوره الشخصية كثيرة، ولم تسجل له الإذاعة أو التليفزيون حديثًا واحدًا.. وهكذا غادرنا شاكر دون أن نعرفه أو نسمع صوته.

وإذا كنا نخطئ في ترتيب ألوان العلم المصري، ويرحل أعلامنا على قارعة الوطن دون تعريف أو تنويه، فمن أين يأتي الانتماء؟! ومن المسئول؟!

الإبداع بالأمر العسكري

لو تابعت – مثلي – أفلام وروايات وأشعار حرب أكتوبر، لأحسست بعمق الخواء واصطناع البطولات وكذب المشاعر! فلا تدري من أين أتى هؤلاء المؤلفون بهذه الحكايات السخيفة! لقد كتب «همينجواي» رائعته «وداعًا للسلاح» عن الحرب وفظاعتها، وعاشت صفحات خالدة في تاريخ الأدب، وقدمت «جين فوندا» فيلمها الرائع «العودة إلى الوطن» فكرهنا الحرب وأحببنا الفيتناميين، وإذا تأملت هذه الأعمال العظيمة لوجدت أنها تقوم على تفاصيل صغيرة وصادقة عاشها المحاربون وسطرها الأدب العظيم بإحساس وصدق.

أما نحن فلا نؤمن بالتفاصيل الصغيرة ونترك العنان لخيالنا الباهت عن القائد الإنسان الذي يعرف كل صغيرة في حياة أبنائه الجنود. ولو كنت سيئ الحظ مثلي وقرأت رواية

واحدة من سلسلة «آداب أكتوبر» لكره ت الأدب والأدب اء والمحاربين والدنيا كلها.

فهذا جندي يكتشف – بمحض المصادفة – أن زميله على المدفع هو خصمه اللدود في الحارة، لكن الحـ رب جمع ت بينهما فامتزجت دماؤهما، إلى آخـ ر هـ ذا اللغ و الف ارغ والأحاسيس النيئة، وكان الأديب الراحـ ل يوسـ ف إدريـ س يصرخ «اتركوا لنا شيئًا مجيدًا.. ولا تلوثوه بالأدب» فالأدب «تلويث» إذا لم يكن صادقًا وكاشفًا ومؤثرًا.

ويروى الكاتب المسرحي نعمان عاشور كيف هرب مـ ن «كتيبة» الأدباء التي أراد السادات أن يرسلها إلى الجبهة بعد انتهاء الحرب ليعيشوا وسط المحاربين ويكتبوا أدبً ا يليـ ق بالحرب المجيدة.

يقول نعمان: «كنت أظن أن لقاء السادات بالأدبـ اء فـ ي القناطر الخيرية في صيف ١٩٧٤ مجرد دردشة عن الحرب، فكلنا – معشر الحاضرين من الأدبـ اء – يعرفنـ ا السـ ادات وعمل كثير منا معه في صحيفة الجمهورية – إلا أن الأمـ ر كان مختلفًا، فقد أصدر السادات في هذا اليوم الصائف قرارًا

بإرسالنا إلى الجبهة لكي نعيش بين الجنود ونعرف خشونة الصحراء وغلظتها، ومن ثم نكتب أدبًا واقعيًا.

ويستطرد نعمان: «وقررت الهروب، فالأدب الواقعي لا يعني أن نعيش بين الجنود، والأدب العظيم لا يكتب بقرار عسكري» هذا ما سجله الراحل نعمان عاشور في «جولة الفكر». ويبقى السؤال: متى نكتب أدبًا عظيمًا؟ ومتى نكف عن هذا السخف الذي تمطرنا به أجهزة الإعلام كل عام؟

متى؟

عفوًا.. أيها السادة

أعلن الفنان سعيد صالح على صفحات جريدة «العربي» أن نجوميته قد تأخرت بسبب معارضته للنظام السياسي، وأنه طوال هذه السنوات كان يبحث عن مسرح جاد.

وهذا كلام لا يصلح «إفيه» في مسرحية هزلية، ولا يجب أن نأخذه مأخذ الجد، فالفنان سعيد صالح نجم كبير ولم تتأخر نجوميته ولا حاجة، وكلنا يعرف ماذا كان يفعل في السنوات التي يقصدها، فلم يكن يبحث عن مسرح جاد أو غير جاد.. فلماذا الدخول في قضايا كبرى ومسائل لن تضيف للفنان النجم بل تنال منه.

***

المخرج المسرحي انتصار عبد الفتاح قال بالحرف الواحد في التليفزيون المصري للمذيعة نانو حمدي: «إنه يسعى في مسرحيته الجديدة «ترنيمة ٢» إلى «تفكيك الصمت» وإعادة صياغته من جديد.

وبعيدًا عن انهيار المذيعة بهذه الكلمات الكبيرة التي لا تفضي إلى شيء، إلا أن العرض مليء بالصخب وليس صامتًا أو مفككًا كما يدعي المخرج المؤلف.

أليس من الأفضل لهؤلاء المخرجين أن يتركوا لنا العمل بدون هذه الكلمات الغريبة التي لا معنى لها.

***

تمنيت لو لم يحذف المخرج سيد سعيد المشاهد التي حذفها من فيلمه البديع «القبطان». فالفيلم تحفة فنية وطول الفيلم لم يكن مثيرًا للضجر أو الملل، واللقطات المحذوفة خسارة حقيقية.

أما الوردة التي أهديها إلى من يستحقونها، فهي للممثل الجبار أحمد توفيق، تحية لمخرج الفيلم، وقلبي مع المنتج

الشجاع، وأملي في جمهور يستجيب لهذه الحساسية الجديدة في السينما المصرية.

ما تنشره الصحف اليومية والحوليات ينساه التاريخ

صلاح عبد الصبور

أخطاء مقدسة وأكاذيب مشروعة!

هل تثق فيما تنشره الصحف؟ هل تصدقها؟

أما أنا فلا أثق فيها، ولا أصدق ما تنشره من أخبار!

ليس لأنني أعرف كيف «تطبخ» الصحيفة، وكيف «توضب» أكاذيبها، وليس لأن صلاح عبد الصبور كان يقول: «ما تنشره الصحف اليومية والحوليات ينساه التاريخ»!

لا... ليس لهذه الأسباب فقدت ثقتي بالصحافة، لكن السبب الأساسي هو «النظام» الذي يحكم الصحافة، ويضبطها ويوجهها.

نحن لا نملك دليلاً واحدًا على ما ننشره، نكتب على «لحم بطننا» دون وثائق أو مستندات!

مثلاً.. نشرت الصحف القومية – وليست المعارضة – عن ضبط مصنع شيكولاته في بنها اسمه «الروضة الشريفة» وأعلن وزير الصحة أن التحليل المعملي أثبت وجود مواد مخدرة، ومنشطة، وسامة، وتم إغلاق المصنع.

وصرح وزير الصناعة لجميع الصحف بأنه «يشك في وجود مؤامرة خارجية» فالشيكولاته يأكلها الأطفال، فمن إذن صاحب المصلحة في أن يأكل أطفالنا شيكولاته مخدرة وأخرى منشطة وثالثة سامة؟!».

من صاحب المصنع؟ لا أحد يعرف، ومن هو مصير تحقيقات النيابة؟

ولو ذهبت صحيفة «معارضة» لتحقيق هذه الوقائع لن تجد شيئًا.. كل ما سوف تجده هو تصريحات وزيري الصحة والصناعة.. أما القضية فلا أثر لها.

أيضًا.. نشرت الصحف ضبط نوع من الشاي في الأسواق يحتوي على نسبة عالية من «برادة الحديد» كما نشرت الصحف تقرير المعمل التابع لوزارة الصحة مؤكدًا وجود هذه النسبة، ولم تنشر الصحف – بالطبع – اسم الشاي ولا اسم منتجه.

واغتاظ أحد المواطنين ورفع دعوى قضائية على المسئولين بوزارة الصحة والتموين، لأن من حقه معرفة اسم الشاي واسم منتجه.

وحكمت المحكمة بحقه في «المعرفة» ونصت في حكمها بضرورة «إعلان» اسم الشاي ومنتجه.

وحتى الآن ترفض وزارتا الصحة والتموين إعلان اسم الشاي واسم صاحبه، والمواطن يحمل حكم المحكمة القضائي ولا يجد من ينفذه!

والطريف أن الصحف نشرت الحكم القضائي ورفضت نشر اسم الشاي طبقًا لنص الحكم!

وهكذا تستمر المأساة، فالصحف تعرف اسم الشاي ومنتجه، وكذلك وزارتا التموين والصحة، والوحيدون الذين لا يعرفون هم الذين يشربون الشاي!

وقبل أعوام نشرت الصحف صورًا للمحافظ السابق عبد الحميد حسن في قفص الاتهام، بعد أن اتهمته النيابة العامة بالحصول على ٢٥ شقة دون وجه حق، وتم ضبط مجموعة من «المشغولات الذهبية» في منزله قدرت بآلاف الجنيهات، وفجأة قررت النيابة «حظر النشر» وخرج المحافظ السابق من السجن وراح يمارس حياته العامة والخاصة ويؤلف الأغاني للمطربين والمطربات! وهكذا اختفت أوراق القضية،

ولا أحد يعرف ماذا جرى؟ وما هو مصير الشقق والمشغولات الذهبية؟

تمامًا مثلما حدث في قضية المدعي الاشتراكي الأسبق عبد القادر أحمد علي، الذي حصل على ملايين الجنيهات وفر بها إلى باريس، وقبله توفيق عبد الحي، وبعده قضية سعد محمد أحمد وزير القوى العاملة الأسبق وولده.

كلها قضايا فساد واستغلال نفوذ، وسرقة أموال الناس.

والغريب أن هناك «لغة» خاصة يتحدث بها المسئولون في هذا الصدد قوانين لا نعرفها تحكم تصرفاتهم وأفعالهم، فالجميع يعرف لكنهم متفقون على ألا يعرف أحد من المواطنين!

ومنذ عشر سنوات أثرت في جريدة «الأهالي» قضية «المصرف العربي الدولي» ونشرت نصف الاتفاقية الخاصة لهذا البنك حتى لا يخضع لرقابة البنك المركزي، ووصفه د. إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط الأسبق بأنه «بنك المهربين والمتهربين» وثارت الدنيا ورد علينا د. مصطفى خليل رئيس مجلس إدارة البنك في جميع الصحف، ورد عليه

د. إسماعيل صبري الذي فاجأنا في رده بوجود قانون يمنع الوزراء السابقين من إفشاء جلسات مجلس الوزراء!

ولا نعرف حتى الآن ماذا جرى في مجلس الوزراء؟ وكيف مرت هذه الاتفاقية؟ ولماذا ظل هذا المصرف غير خاضع لرقابة البنك المركزي؟ وما علاقته بالتهريب؟

كلها أسئلة مفتوحة، ولا إجابة عليها!

لقد نشرت الصحف عن قضية «مستوردي اللحوم الفاسدة» وتراشق الوزراء بالتصريحات النارية.. فهل حدث لهؤلاء المستوردين أي شيء؟ أبدًا أما من هم؟ ومن أين لهم هذه السطوة وهذا النفوذ؟ فلن تجيبك الصحافة ولن يسأل عنك أحد!

وها هي قضية الآثار أو فضيحة الآثار الكبرى، كما أسمتها الصحف؟ هل تعرف من هم هؤلاء المهربون الستة؟ هل عرفت كيف تم نقل الآثار وتهريبها؟

هل عرفت ماذا جرى في تحقيقات النيابة حول هذه الكارثة؟

لن تلقى إجابة شافية رغم ما تنشره الصحف كل يوم وما يكتبه الصحفيون والمعلقون والأثريون!

وستظل الصحف تنشر أخبارًا وتصريحات لكبار المسئولين حتى تعثر على فضيحة أخرى!

والغريب أنك لو جلست إلى أي صحفي سيقول لك أسماء مهربي الآثار، لكنه لا يستطيع أن ينشر ذلك- فالأمر ليس سهلاً في الصحف القومية، وإذا حاول نشرها في صحف المعارضة فلن يجد دليلاً على ما يقول لأن جميع التقارير وتحقيقات النيابة وكل الأوراق المتعلقة بالقضية، ليست متوفرة وليست في حوزة أحد من الصحفيين كل ما تنشره الصحف هو أقوال المسئولين كبار يعرفون الكثير ويصرحون بالقليل.. وهناك اتفاق عام بين الجميع على عدم خرق القواعد، أو الإخلال بموازين اللعبة.. المهم أن القارئ لا يعرف شيئًا في النهاية، ولا يخرج بشيء، هذا هو المقصود بمعنى «النظام».

هل عرفت الآن لماذا لا أثق بالصحافة؟ ولماذا لا أصدقها؟

وكأن الشاعر أمل دنقل كان يقرأ مصيرنا في قصيدته الذهبية:

إن اليمين لفي خسر

أما اليسار ففي العسر

إلا الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتراة العيون فيعيشون.

وهذا ما جرى!

حدث في الصيف الماضي

قالت لي طبيبتي الألمانية «سوف تعيش عشرين سنوات فقط»!

كان ذلك في الصيف الماضي في مستشفي «هايدل برج».

قلت لنفسي: أنت الآن على مشارف الأربعين، وباقي من الزمن عشر سنوات فما الذي يمكن أن نفعله؟

ورحت أحصى أحلامي فلم أجد منها شيئًا!

كنت أحلم أن أكون شاعرًا كبيرًا مثل رامبو، وأصدرت ديوانًا ولم يحدث شيء!

وكنت أحلم أن أكون رسامًا مثل جوبا أو حسن سليمان وحامد ندا، ورسمت عدة لوحات وطبعتها في ديواني ولم يحدث شيء!

ومنذ خمسة عشر عامًا وأنا أعمل صحفيًا.. ولم يحدث شيء أيضًا.

وفي العشرينيات من العمر حاولت أن أكون سياسيًا فعرفت السجن وفقدت حريتي ثلاث سنوات!

والآن باق من العمر عشر سنوات، وهي لا تكفي لإعداد كتاب واحد. فما الحل؟

عدت لأوراقي فوجدت مخطوط كتاب بعنوان «أوراق الشخص الآخر» ويضم مجموعة صور ومقالات أعددتها للنشر ولم تصدر حتى الآن.

أما الشخص الآخر فهو أنا، وأما الأوراق فهي محاولة للتعرف على ذاتي الضائعة بين الشعر والصحافة وفن الرسم.

وهكذا رحت أعيد قراءة ما كتبت حتى أصدره في كتاب، لكن ما لفت نظري هو قصيدة كتبتها ونسيتها بعنوان «امرأة»!

هذه السنوات القليلة

لم تعد كافية

إلا لكتابة قصيدة واحدة

في عينيك

فلماذا لا تنتظرين قليلاً

حتى أتمكن من الكتابة

والغريب أنني لا أكتب شعرًا منثورًا، ولا أعرف من هي تلك المرأة التي أحاول الكتابة عن عينيها، وقررت اسـ تبعاد القصيدة من الأوراق ووضعت بدلاً منها قصـ يدة لشـ اعري المفضل «بريخت» يقول فيها:

أجلست النساء

على ركبتي

وقلت لهن:

أمامكن رجل لا يمكن الاعتماد عليه.

أكاذيب مشروعة

من بين الهوايات التي أخفيتها عن زوجتي، قراءة مجلات الموضة.

فأنا أشتري كل ما يصدر من مطبوعات عن الأزياء وتسريحات الشعر، وبعد قراءتها أتركها في مكتبي حتى لا تقع في أيدي زوجتي.

وهكذا ظللت أمارس هذه القراءة «المحرمة» سنوات في سرية تامة، حتى جاء يوم لا ينفع فيه رد ولا دفاع!

كنت أجلس بجوارها في سيارتها وهي تقود، وكانت متوترة – كالعادة – وتلقى بتعليماتها وتوجيهاتها.

فأنا من وجهة نظرها.. رجل خائب لا يصلح لشيء ولا يجيد سوى السهر و «الصرمحة».

فكم هي سيئة الحظ لأنها أحبتني واختارتني زوجًا، وكثيرًا ما تلعن هذا اليوم الأسود الذي تزوجتني فيه.

كان هذا حديثًا عاديًا من بين أحاديثها الصباحية، أسمعه وأنا صامت كالدهر.

وفجأة صاحت زوجتي: انظر هذه المرأة ترتدي فستانًا كان موضة في الستينيات.

ونظرت ووجدته بالفعل موضة قديمة، ورحت أتحدث بطلاقة عن الموضة وفتحات الصدر والأكمام القصيرة والطويلة، وعلاقة ذلك بتسريحة الشعر ولون الحذاء وحزام

الخصـ .ر، واستعرضـ .ت معلومـ .اتي عـ .ن «الشـ .يفون» واستخداماته، وفجأة لكمتني زوجتي لكمة أفقت على إثرهـ ا، وصاحت: ومن هي هذه السيدة التي قالـ ت لـ ك كـ ل هـ ذه المعلومات؟

وانتبهت من هول الاتهام وأضافت: هـ ذه معلومـ ات لا يمكن لرجل تحصيلها إلا بمعرفة امرأة، وأنت طوال سنوات زواجنا التعس لم تتحدث معي قط عن الموضة، فمن أين لك بهذه المعلومات؟

ورحت أدافع عن نفسي ورويت لها عن هوايتي وكيـ ف أخفيتها عنها.

ولم تقتنع.. فالذي يخفى هواية كل هذه الفترة يخفى أشياء أخرى!

وأسقط في يدي.. فلم يعد الصدق كافيًا لإقناع زوجتـ ي، فلجأت إلى الكذب، فما أكثر أكاذيبي على زوجتي، وما أجمل الكذب على الزوجات!

أول شرارة

هكذا قال السادات لمناحيم بيجين: «أنت صديقي»!

كان السادات عائدًا من كامب ديفيد، وكل وسائل الإعـ ـلام تعزف لحن «السلام» المتميز، وأصبحت صـ ـورة منـ ـاحيم بيجين في صحفنا وتليفزيوننا «داعية» سلام.

واطمأن السادات على صورة «صديقه» حتى جاء صباح سقطت فيه الرتوش والظلال والألوان والأوركسترا كله.

كان د. محمود الشنيطي رئيسًا لهيئة الكتـ ـاب، وإذا بـ ـه يصدر أول ترجمة عربية لكتاب منـ ـاحيم بيجـ ـين بعنـ ـوان «المتمرد» وعلى الغلاف شعاره المفضل «أنا أحارب إذن أنا موجود».

وتخاطف الناس الكتاب، فالجميع يريد أن يعرف حقيقـ ـة «الصديق» الجديد، فإذا بمناجيم بيجين مجرد محترف، تربى في عصابة، لا يؤمن بالسلام أو أي مبدأ من أي نوع!

وسارع د. الشنيطي بتقـ ـديم اسـ ـتقالته بعـ ـد أن غضـ ـب السادات، وغضبت أجهزة إعلامه، لقد أحـ ـس الشـ ـنيطي أن هناك عملية «تزييف» كبرى، وكان لا بد من فضحها، فقال رأيه بشكل عملي ومباشر، فجاء موقفًا وطنيًا، وكان بمثابـ ـة أول شرارة في نيران مقاومة السـ ـادات وسـ ـلامه، وخـ ـرج الرجل وأسس «المركز العربي للبحث والنشر».

لقد رحل الشنيطي في الأسبوع الماضي، وأوجعني فراقه، فقد كان – حتى آخر لحظة – يحلم بإصدارات جديدة ودور نشر جديدة ومطابع جديدة، وهي أحلام لا تعرف الموت.

فسلام على الشنيطي، وكم تمنيت لو أعادت هيئة الكتاب نشر كتابه الوحيد «قضية ليبيا» وفاءً لما قدمه للهيئة ولبلاده.